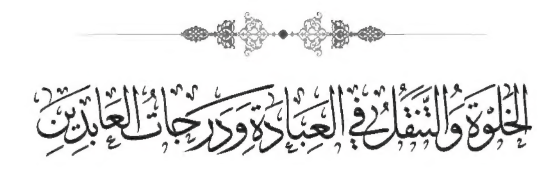
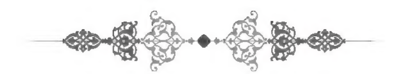

الخلوة والتنقل في العبادة ودرجات العابدين



نهتم بنشر اللُّغة والثقافة العربية في تركيا والعالم

ISBN: 978-605-71063-1-5

الطبعة الأولى - 2022

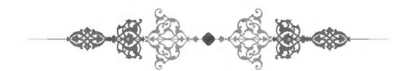


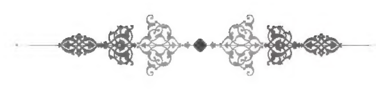
+90 5511 661 995 rawayie2018

rawayie2018@gmail.com

SERTIFIKA NO. 41465

تصميم الغلاف والإخراج الفني: أحمد عجم





الخلوة

والتنقل في العبادة ودرجات العابدين



تأليف

الإمام الزاهد العالم بعلم المعاملة والمتحدث
في عيوب النفس وأحوالها شيخ مشايخ التصوف

أبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي رحمه الله

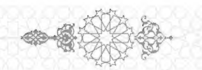
١٦٥ - ٢٤٣ هـ

دراسة وتخريج وتحقيق

محمد فوزي كريم

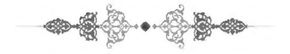
دار روائع الكتب
للطباعة والنشر والتوزيع





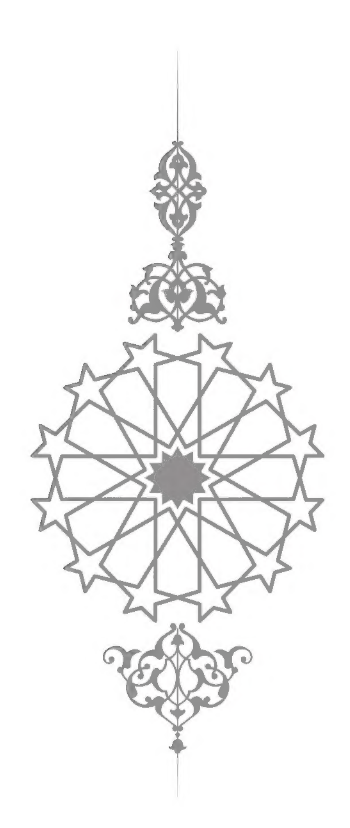
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾[(١)].





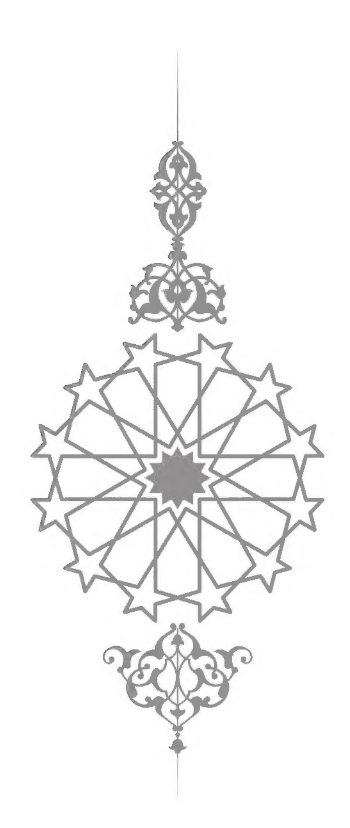
(١) مريم: (١-١١)، الآية.



إهداء

إلى عائلتي العزيزة وأخصُّ ابنتي (سارة) داعيـاً الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يحفظكم جميعـاً، وسائرَ بلاد المسلمين من وَبَاء (COVID-19)، ومن كلِّ مكروهٍ في هذه الظروف الصعبة التي يمر بها الناس.



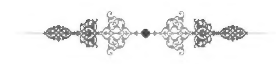


شكر وتقدير

أتقدَّم بجزيل الشكر والتقدير والامتنان لكل الأساتذةِ الأفاضل في الجمهورية التركية / جامعة يالوفا / قسم فلسفة الأديان، لمساعدتهم لي في تكملةِ الدراسات العليا، وإلى كل أستاذٍ قَدَّم لنا نُصحاً في تحقيقِ المخطوطات وفق المنهج العلمي والأكاديمي، وأخص منهم البروفسور: محمد طاهر يَرن، رئيس قسم الفلسفة في جامعة يالوفا، وبصراحة لا أملك ردَّاً لفضلِ إحسانكم عليَّ سوى التوجه إلى المولى -عَزَّوَجَلَّ- داعياً لكم بالسَّدادِ والثبات، وأن يبارك لكم في العِلْمِ والعَمل وجزاكم الله عنا خير الجزاء.

محمد فوزي كريم / جامعة يالوفا

١/ ١/ ٢٠٢١



Teşekkür

Yalova Üniversitesi / İslami Bilimler Fakültesi Dinler Felsefesi Anabilim Dalı'nın tüm seçkin hocalarına ;

lisansüstü eğitimimi tamamlamadaki yardımları için en içten teşekkürlerimi, takdirlerimi ve şükranlarımı sunarım. Bana el yazmalarını bilimsel ve akademik yönteme göre doğrulama konusunda tavsiyede bulunan her profesöre müteşekkirim , özellikle Yalova Üniversitesi Felsefe Bölüm Başkanı PROF. DR. MUHAMMED TAHIR YAREN özel bir minnettarlık ve şükran duygusu içerisindeyim. Bana yaptığınız tüm iyilik ve emekleri ne kadar da istesem karşılığını vermek için size dua etmekten başka bir şey elimden gelmiyor.

İlim yolundaki çalışmalarınızda Allah sizi en güzel şekilde mükafatlandırsın diye dua ediyorum.

Mohammed Fawzi

1/1/2021



قدمه

فضيلة الشيخ العلامة
صالح بن أحمد الشامي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

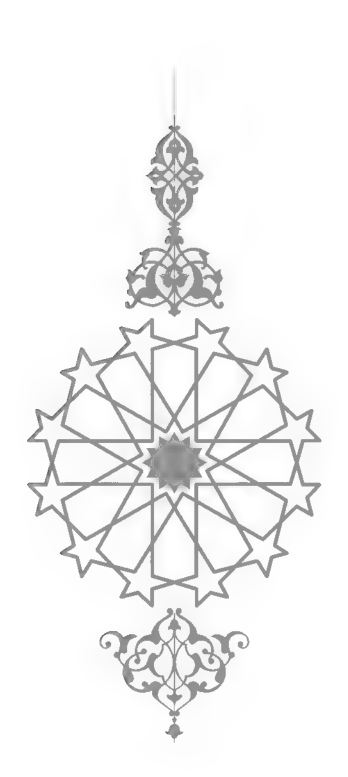
وبعد:

فإن الإمام أبا عبدالله، الحارث بن أسد المحاسبي هو أحد أعلام هذه الأمة الفاضلة، الذين كان لهم السبق والمساهمة في بيان علم المعاملة وبيان عيوب النفس وآفات الأعمال. وقد قال الإمام الغزالي عنه: «المحاسبي حبر الأمة في علم المعاملة، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس، وآفات الأعمال. وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه»

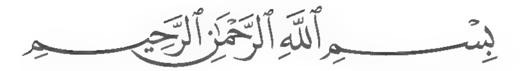
ومن كتبه القيمة «الخلوة والتنقل في العبادة ودرجات العابدين»

وقد قام فضيلة الدكتور محمد فوزي كريم بدراسة وتخريج وتحقيق هذا الكتاب فجزاه الله تعالى خيراً وجعل ذلك في سجل أعماله. فإن نشر العلم في مقدمة فضائل الأعمال.

كتبه
الفقير إليه تعالى
صالح بن أحمد الشامي



بين يدي الكتاب



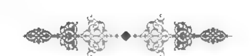
الحمد لله رب العالمين، حمد الذاكرين الشاكرين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبين، وعلى آلهِ وصحبه الطيبين.

وبعد..

إنَّ مخطوطةَ الخَلْوَة والتَّنقل في العبادَةِ ودرجات العابدين هي من روائع الكُتْبِ للمحاسبي؛ لكونها قد عطَّرَ فيها روعة الكلماتِ بالوعظِ مستنداً على القرآنِ الكريم، وصفات الأنبياء، وكان يشير لجوهرِ كبح آفاتِ النفس بالسعِي لمواطنِ الخَلْوَة، لقولِه: ويهيج من حبِّ الخَلْوَة إمَاتَةُ الطمع، ودواعي الحرص، والرغبة في الدُّنيا، وفيها قُوت العقل، وقد وضح كتاب الخَلْوَة عُصارة جهدِ المحاسبي في السنواتِ الأخيرة من حياتهِ بطريقةِ إسناد الوعظ بالأصولِ عند تفسير القرآنِ الكريم وبتلازم مع السُنَّة النبوية الشريفة، ويبدو ذلك عند تصفُّح الكتاب بِتمعّنٍ ووضوحٍ؛ لأنَّهُ قد ركّزَ على مفهوم درجةِ الصّدق في النفسِ وقياسها في العمل بدلالة القَلْب، وما فيها من التَّهتُّكِ، والتبَتُّل في الأعمالِ، والالتزام بالعبادةِ، وقد جدَّ بعلاجها عند تفسيرِ المعنى لآياتِ القرآنِ الكريم باستقراءِ القصص التي جاءت بها الآثار، ومطابقتها بمفهومِ الوعظ.

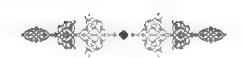
واتضح أن وصف الخَلْوَة جاء بمفهوم التقوى وحسن الظن لقولِه: ويهيج من حبِّ الخَلْوَة تَذكُّر النِّعم وطلب إلهام الشكْرِ، والزيادة مِن الطاعةِ، ويهيج من حبِّ الخَلْوَة وجود حلاوة العملِ والنشاط في البكاءِ بحزنٍ من القلْبِ مع تَضرُّع واستكانة، ويهيجُ من حبِّ الخَلْوَة القنوع والترحُّل والرّضا بالكفافِ والعفافِ، والاستغناء عن الناسِ، ويهيجُ من حبِّ الخَلْوَة عزوفُ النفس عن الدنيا، واشتياقها إلى لقاءِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهي من طريقِ حسن الظنّ بالله تعالى، وخوف النقص في الدّينِ، ويهيجُ من حبِّ الخَلْوَة حياةُ القَلْبِ، وضِياء نوره، ونفاذُ بصره في عيوبِ الدُّنيا، ومعرفة النفس، ومعرفة النقصِ، والزيادة في الدِّين:

ومما سبق ذكره يأتي مفهوم الخَلْوَة على أنه السلوك بالتَفويضِ والتوكلِ على رَبّ العبادِ، مع رؤيا التميز بين الرجاء والخوف عند طريقة الصمت؛ لأن الخَلوَات مفهوم لإدراك العزلةِ من الناسِ لربِّ الناس، وطريقُ النجاةِ من الهلاكِ؛ فلهذا السبب نَجدُ أنَّ صاحب الطريقة السالك القاصد للخلوةِ يصاحبهُ هاجس الخشوعِ والترقب، في بدايةِ التسبيحِ والذكر بمعاني الصفات المعطرّةِ لدخولِ الخَلْوَة طارقٌ باب اليقينِ، والتمسك بالصّبرِ، والعمل بالإحسانِ، باتباع منهج النبّي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسيرة الصحابة الأخيار، والتابعين الأبرار، والأولياء الأطهار -رضي الله عنهم أجمعين-.



واتضح من تجمع المادة أن كتاب الخَلْوَة والتنقل في العبادَةِ ودرجات العَابدين قد جاء في **عدة أبواب** وهي كما يلي:

- الاجتهاد والخَلْوَة وقصر الأمل.
- معرفة الأصل الذي يتفرَّع منه جِماعُ الخير.
- الاستدراج.
- الصمت ومخالفة الهوى.
- علامة المَرْأى.
- التميز بين الخوف والرجاء. وفيهِ فصل(تقوى الله).
- صدق الإرادة وثقل الصّدق.
- حاجة العَدوِ إلى صدق النية في الفرائضِ.
- قلَّةُ الأكل وتصغير الدنيا.
- التزام المنفعة في الأكل والشرب واللّباس.
- حسن الظنّ والخوف والرجاء.
- اعرف الصدق وموضع مأمنه.
- فضل ترك المعاصي.
- الزجر عن القنوط.
- السببيَّة والهمُّ بها، وما يتشعب من ضررها.
- بيان الحسنة والهمُّ بها، وما يتشعب من نفعها.



إذا أردتَ أن تكون عالماً، فأعرض نفسك على أخلاق القرآن، فالقرآن أربع آياتٍ؛ آيةٌ تأمركَ، وآيةٌ تنهاكَ، وآيةٌ تُشوِّقك، وآيةٌ تخوِّفك؛ فإن عدلت عن القرآن عدلت عن الشفاء، وإن لزمت القرآن هبطتَ على رياض الجنَّة[1].



الْحَارِثُ بن أَسَد المُحَاسِبيّ

(١) مخطوطة شرح المعرفة وبذل النصيحة - الحارث بن أسد المُحَاسِبيّ: رقم المخطوطة: ١٣٥٤، شهيد علي باشا، إسطنبول: ص٤٦.

قائمة الإشارات

- ﴿ ﴾ الآيات القرآنية.
- :: :: الأقوال تم نقلها من المخطوطاتِ.
- « » الأحاديث النبوية.
- ـ ـ زيادة من المحقق.
- * * جمل وكلمات وردت خارج المتن في المخطوطة عند الحاشية جانبية.
- (( )) الأقوال المقتبسة من مصادر.
- (۞) إشارة نهاية الصفحة في المخطوط.
- { } أدعية للمصنف.
- (۩) عنوان الموضوع لفصلٍ داخل الباب.



قائمة المختصرات

- الأصل: مخطوطة جامع السليمانية في إسطنبول.
- د. ت: دون تاريخ.
- ت: تحقيق.
- ف. ح: فحص حواشي.
- أ: اعتناء وضبط.
- تر: ترجمة.
- ش: شرح.
- تخ: تخريج.
- ع. ع: علق عليه.

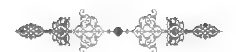


صفحات من المخطوطة

الصفحة الأولى من الكتاب

الصفحة الوسط من الكتاب

الصفحة الأخيرة من الكتاب



قال الحارث المُحَاسِبيّ عن أبي الدرداء قال رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «أَثْقَلُ مَا يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُسْنُ الْخُلُقِ»[1].



(١) سنن الترمذي - محمد بن عيسى (٢٧٩هـ)، ت: بشار عواد، دار الغرب، بيروت، ١٩٩٨: ج٤، ص٣٦٧، رقم الحديث (٢٠٠٢).



خُطبَةُ الكتاب

اللهمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ أَصْلُ الأُصُول، نُورُ الْجَمَالِ، وَسِرُّ الْقَبُول، أَصْلُ الكَمَالِ وَبَابُ الْوُصُول، صلاةً تَدُومُ وَلا تَزُول، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ أَكْرَمُ نَبِيٍّ وَأَعْظَمُ رَسُولٍ مَنْ جَاهُهُ مَقْبُول، وَمُحِبُّهُ مَوْصُول، الْمُكَرَّمُ بِالصِّدْقِ فِي الْخُرُوجِ وَالدُّخُول صلاةً تَشْفِي مِنَ الأَسْقَامِ وَالنُّحُول وَالأَمْرَاضِ وَالذُّبُول، وَنَنْجُو بِهَا يَوْمَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ مِنَ الذُّهُول، صلاةً تَشْمَلُ آلَ بَيْتِ الرَّسُول وَالأَزْوَاجَ وَالأَصْحَاب وَتَعُمُّ الْجَمِيعَ بِالْقَبُول، الشَّبَابَ فِيهِمْ وَالْكُهُول، وَسَلِّمْ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِه أجمعين آمِين.

الحارث بن أسد المُحَاسِبيّ صُوفِيٌّ متحدث بالوعظِ، عَالِمٌ بعَلمِ الْيَقِين، سَارَ نَبْلُ فَضلهِ وتكلم بهِ الخلقُ فأراهُم الجوهرَ المكنونَ، وشَفتْ الأسماع بدُرِّ لفظهِ المَكْنُون، فهو أحدُ الأوتاد كانتْ أحواله مُصححةً مذكورة، شَيْخُ مَشَايخ التَّصَوُّفِ أَبِي عَبْدِ اللهِ الحَارِثُ بن أَسَد المُحَاسِبيّ البَصريّ العَنَزِيَ الأصلِ، وأَشارَ نسَبَهُ إلى القبائلِ العربية في شبهِ جزيرةِ العرب، ((١٦٥-٢٤٣هـ)) [(١)].

(١) تاريخ مدينة السلام، أحمد الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ)، ت: بشار عواد، الغرب، بيروت، ط١، ٢٠٠١: ج٩، ص١٠٤. سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي (٧٤٨هـ)، ت: حسان بن منان، دار الرسالة، بيروت، ٢٠٠١: ج١٢، ص١١٠. أنباء أبناء الزمان، أحمد بن خلكان (٦٨١هـ)، أ: إحسان عباس، صادر، بيروت، ١٩٩٤: ص٦١، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، عبد الله بن أسعد بن علي اليافعي =

وقد سُميَّ الْمُحَاسِبيّ بِضَم الْمِيم وَفتح الْحَاء وَكسر السِّين الْمُهْملَة وَفِي آخرهَا بَاء مُوَحدَة؛ لِأَنَّهُ كَانَ يُحَاسب نَفسَهُ، وَقَدْ اجْتمع لَهُ عِلمُ الظَّاهِر وَالْبَاطِن بكرمِ الله -عَزَّوَجَلَّ-. كانَ الشَيْخُ مُهتماً بالزُهد ويطالبُ بمحاسبةِ النفسِ من الناحيةِ الدينية والخلقية داعياً إلى التوبةِ، عَارفُ العارفين في زمانهِ وأستاذُ السائرين وشَيخ البغداديين[1]، وأحد رجال الحقيقةِ الداعي إلى الإنابةِ لحقوق الله -عَزَّوَجَلَّ-، والمُقتدي بسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في شرح المعْرفة وبَذْلِ النصائح للعبادِ عند مفهوم تفسير القرآن الكريم، استقراء الوعظ لديهِ

= (٧٦٨هـ)، الكتب العلمية بيروت،١٩٩٧: ج٢، ص١٠٦. طبقات الأولياء، عمر الشافعي ابن ملقن (٨١١هـ)، ت: نور الدين شربيه، مكتبة الخانجي، قاهرة ١٩٩١: ص١٧٥. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، شهاب الدين الحنبلي ابن عماد (١٠٨٩هـ)، ت: عبد القادر الأرناؤوط وآخرون، دار ابن كثير، بيروت، ٢٠٠٦: ج٣، ص١٩٧. طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي (٧٧١هـ)، ت: عبد الفتاح محمد، مكتبة هجر، مصر، ١٤١٣هـ: ٢، ص٢٧٧. الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، زين المناوي، ت: محمد أديب، صادر، بيروت، ١٩٩٩: ج١، ص٥٨٨. اللباب في تهذيب الأنساب عزالدين الجزري (٦٣٠هـ)، ت: قاسم محمد، المثنى بغداد،١٩٧٥: ج٣، ص٦٣. طبقات الشافعية، تقي الدين الشهرزوري ابن صلاح (٦٤٣هـ)، ت: محي الدين نجيب، دار بشائر، بيروت، ط١، ١٩٩٢: ج١، ص٤٤٠.

(١) تذكرة الأولياء - فريد الدين العطار (٦١٧هـ)، ت: محمد جادر، الأندلس، بيروت،١٩٧٩: ص٢٩١. الكواكب الدرية، المصدر نفسه: ج١، ص٥٨٥. الأنساب، عبد الكريم بن محمد السمعاني (٥٦٢هـ)، ت: عبد الرحمن المعملي. دار الجنان، بيروت، ط١، ١٩٨٨: ج٩، ص٧٦. تاريخ التراث العربي، فؤاد سَزكين، تر: محمود فتحي، إدارة الثقافة والنشر، الرياض،١٩٩١: ج٤، ص١١٣.

يُشير منذُ بداية حياتهِ إلى مَعرفةِ الله -عَزَّوَجَلَّ- من خلال مَعرفة عدو الله.

ويتضح أن أغلب أحاديث الإمام المحاسبي تهدف إلى مَعرفة النفسِّ الأمَّارةِ بالسوءِ، وجميع مصنفاتهِ تسير في خطٍ مستقيمٍ واحدٍ في الاسترشاد والنصح للعباد، لقولهِ: ((مَنْ عملَ الأعمال بما سمعَ؛ فَقدْ عملَ بأخلاقِ الأولياءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ))[1]، وقد سلك طريقَ الخَلَواتِ ناصحاً بنَصائحِ الورعِ على الأغلب، والتي دَقَّقَ التأمل بها فوصفَها بالمُجَانَبَةِ لكلِّ ما يكرهُ الله -عَزَّوَجَلَّ- في مسائل أعمال القلوب والجوارحِ[2]، ونصحَ العُبَّاد أيضاً بالوقوفِ بين يدي اللهِ ومناجاتهِ بخشوعٍ وتضرُّعٍ من خلالِ فهم السُنن لأنها آدابُ النفوسِّ ودواءُ فتن القلوبِ، وقد دقَّقَ الوصفَ في العقلِ لتجنب الفتن، فقال فيهِ: ((إنَّهُ غريزةٌ وضعَها الله في أكثرِ خلقهِ؛ فَمَنْ عرفَ ما يَنفعهُ ممّا يَضَّرهُ في أمَرِ دنياه عَرف أنَّ اللهَ تعالى قَدْ مَنَّ عليهِ بالذي سُلِبَ مِنْ أهل الجنون))[3].

إن وصفَ عظمةِ اللهِ تعالى في الخلقِ جاءت عند المحاسبي في كلماتٍ مُوجَزةٍ ومفهومة وبسيطة فقالَ: ((إنَّ الخلقَ كحلقةٍ واحدةٍ، إذا انفكتْ منها واحدةٌ تعطّلتْ جميعها من الرباطِ؛ ولذلك جَعلهُم مُتصلينَ بعضهُم ببعضٍ؛ لأنَّهُم صَنعةٌ واحدةٌ))[4] ويبدو أن المحاسبي كان أشدّ الناسِ محاسبةً لنفسهِ،

(١) طبقات الأولياء، ابن ملقن، المصدر سابق: ج١، ص١٧٥.

(٢) المسائل في أعمال القلوب والجوارح - الحارث بن أسد المُحَاسِبيّ، ت: محمد فوزي: بلومينا، القاهرة، ٢٠١٨: ص١٢٧.

(٣) مخطوطة كتاب الزهد - الحارث بن أسد المُحَاسِبيّ، رقم المخطوط: ١١٠١، جار الله، إسطنبول، ص١١٢.

(٤) انظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أحمد بن عبد الله الأصفهاني، دار فكر، =

ويَحثُّ المؤمنين في المكاسبِ والشبهةِ، وبيانِ مُباحها ومحضروها واختلافِ الناسِ في طَلَبها، وتطلّعَ في الرّدِ على بعضِ العلماءِ من الأغنياء، وحثَّهُم على بيانِ فرضِ التوكلِ على اللهِ -عَزَّوَجَلَّ- الذي تجتمعُ فيهِ خواصُ الخلقِ وعوامُهم، وقال: إن الله سبحانهُ رَبطَ التوكلَ بالحركةِ في كسبِ طلبِ الرزقِ؛ فهو صاحبُ احساسٍ مرهف بكلِّ ما يتعلّقُ بالدّين، وكانَ مِنَ المعروفِ عنهُ أنَّهُ كانَ محفوظاً من طعام فيهِ شبهةٌ؛ فإذا مدَّ يَدهُ إلى طعامٍ فيهِ شُبهَةً تحرّك لهُ عِرق في إصبعهِ فيمتنعُ عن تناولهِ[1].

ويبدو أن المُحَاسِبيّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- عند الثالثة والستين من عمرهِ وفي أواخر حياتهِ، قد اعتزلَ الخلقَ واختفى بخلوةٍ طويلة دامت عشرة أعوام، ورَجعَ إلى بغداد قبلَ وفاتهِ بمدةٍ قليلة. ليرُشدَ العُباد إلى الاقتداءِ بالطريقِ الصحيح، والنهج الذي يُتَّبعُ في العبادةِ وفوائد الخلوة. وقد روى أبو بكر بن هارون بن المُجدر قال: ((سَمِعْتُ جعفرَ بن أبي ثور يقولُ: حضرتُ وفاةَ الحارثِ؛ فقالَ لهُم: ((إنْ رأيت ما أُحبُّ تبسّمتُ إليكم، وإنْ رأيت غيرَ ذلكَ تبينتّم في وجهي، فتبسَّم ثُمَّ ماتَ))[2] .

:: توفي الإمام المُحَاسِبيّ سنة (٢٤٣هـ) وقد دُفنَ وصلَّى عليهِ تلاميذهُ من

= القاهرة، ١٩٩٦: ج١٠، ص ٧٤

(١) مرآة الجنان وعبرة اليقظان - اليافعي، مصدر سابق: ج٢، ص١٠٦. الرسالة القشيرية - أبي قاسم القشيري، مصدر سابق: ص٥٨. طبقات الشافعية - السبكي، مصدر سابق: ج٢، ص٢٧٧.

(٢) طبقات الشافعية - السبكي، مصدر سابق: ج٢، ص٢٧٧.

علماءِ التصوّفِ في القرنِ الثالثِ الهجريّ، ومنهُم: الجُنيد البغدادي، وأحمد بن عبد الله بن ميمون، وجعفر ابن أبي ثور سري السقطي::،كَان زاهداً حتى في موتهِ فكان يكفيهِ أربعةٌ من المتصوفةِ في دفنهِ على حشودِ عامةِ الناس رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]، وقد دُفِنَ في بغداد بجانبِ الكَرخ في مقبرةِ باب الدير العتيقةِ، والتي سُمِّيتْ حاليًا بمقبرةِ الشيخِ معروف الكَرخِي (٢٠٤هـ)[2].

ويتّضحُ أنَّ مكانَ التربّةِ قد اتَخذتهُ الصوفيةُ فيما بَعد تربةً لمراقدِ مشايخِ الصوفيةِ، كان المحاسبي المعلِّمُ والشيخ والواعظُ الزاهدُ ذو مكانةٍ مرموقةٍ في بغدادَ، شَافعيُّ المذهبِ، متحدِّثٌ في الفَقهِ، شارح للأصول. مِنَ الذينَ جالسوا الشافعي وتحلُّوا بصحبتهِ وبحُلَى العقد الفريد، وكان يُعدُّ مِنْ الطبقة الأولى[3].

والمادة في الموضوع تؤيد أن المُحَاسِبيّ استطاع بالعْلمِ والكلام في الوعظ والتفسير أنْ يُخْرِجَ التصّوفَ مِنْ فوضى التشَتّت إلى الأحكام العامةِ في الأصولِ؛ فكان مرجعـًا لبعض الأولياءِ والفقهاء في جميع الفنونِ من بعده[4]،

---

(١) مخطوطة كتاب الرعاية لحقوق الله – الحارث بن أسد المُحَاسِبيّ، رقم المخطوط: ١٥٣٤، الجامع الكبير، بورصة، ص٢.

(٢) معروف الكرخي: علم الزهاد، بركة العصر، أبو محفوظ البغدادي توفي في بغداد سنة (٢٠٤هـ). سير أعلام النبلاء، الذهبي (٧٤٨هـ)، مصدر سابق:ج٩، ص٣٤٠.

(٣) طبقات الفقهاء الشافعية- عثمان الشهرزوري (٦٤٣ هـ)،ت: محي الدين علي، البشائر، بيروت ط١، ١٩٩٢: ج١، ص٤٣٩. تاريخ التراث العربي، فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج١، ص١١٣. الكواكب الدرية – المناوي، مصدر سابق: ج١، ص٥٨٦.

(٤) تذكرة الأولياء – فريد الدين العطار، مصدر سابق: ص٢٩٠.

فقد تمَّ قَبولُ تعاليمهِ من الفقهاءِ والصوفية[1]، وإنَّ فكرهُ يُعتبرُ منهجاً للأصولِ عند أسلافِ الأشعريةِ في إقامةِ الجَدَل عِندهُم[2]؛ فقد قال المحاسبي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- في التصوّفِ: ((الأخذُ بالأصولِ، وترْكُ الفضولِ، واختيارُ ما اختارهُ الرَّسولُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))[3].

إن الدلالة الإلزامية في جميعِ المصادرِ تشير إلى أنَّ الإمام أبي حامد الغزالي (٥٠٥هـ)[4]، كانَ من أكثر الفقهاءِ الذين تأثَّروا بالمُحَاسِبيّ، واعتمدَ مصنفاتهِ في

---

(١) وهو الشيخ أبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي الذين قبلوا المُحَاسِبيّ كواحد من ضمن الشيوخ الخمسة الذين تُقبل تعاليمهم وتُطبق شرعاً وفعلاً وهم: الحارث بن أسد المُحَاسِبيّ، والجنيد بن محمد، وأبو محمد رُوَيْ، وأبو العباس ابن عطاء. ، وقال: الشيخ بن خفيف عن علمهم وقبولهِ (لأنهم جمعوا بين العلم والحقائق، والباقون سلَّموا إليهم أحوالهم). الرسالة القشيرية - أبي فاسم القشيري، مصدر سابق: ص٥٨. طبقات الشافعية - السبكي، مصدر سابق: ج٢، ص٢٧٥. سيرة الشيخ الكبير محمد بن خفيف، ش. ر علي الديلمي الثقافة الإسلامية، مصر، ١٩٧٧: ص١٠٩.

(٢) تاريخ التراث العربي - فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج٤، ص١١٤. الملل والنحل - محمد عبد الكريم (٥٤٨هـ)، ع .ع: أحمد فهمي، دار الكتب، بيروت، ط٩، ٢٠١٣: ج١، ص٨١.

(٣) انظر: مصدر نفسه - الكواكب الدرية في طبقات الصوفية - المناوي: ج١، ص٥٨٥. المصدر السابق - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - لأبي نعيم الأصفهاني: ج١٠، ص٧٤.

(٤) هو الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، الشافعي، الغزالي، صاحب التصانيف، الكبار بحضرته، فانبهر له، وشاع أمره، مات سنة ٥٠٥هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ. سير أعلام النبلاء - الذهبي مصدر سابق: ج٩ ص٣٢٢.

الكلامِ، والفقه، والمعاملات في أغلبِ كتبهِ ومنهم: كتاب إحياء علوم الدّين، وكتاب المنقُذ مِن الضلال، وكتاب الدرَّة الفاخرة في كشْفِ عُلوم الآخرة؛ فقد أوصى الإمام الغزالي (٥٠٥هـ)، بمنهج وعِلْمِ وفكر المحاسبي لمن بعده[١]. وَقد قيلَ عن بعضِ المصادر إن سبب تقدم منهج عِلْم الإمام الغزالي (٥٠٥هـ) في الأصول والمعاملات كان اتباعهِ لمنهج الإمام المحاسبي[٢].

وقد اعتُمِدتْ أيضـاً بعضُ كلماتِ الوعْظِ عندَ المُحَاسِبيّ كمنهجٍ في القصيدةِ الشعريةِ عندَ علماءِ التصوّفِ في المغربِ العربي، يُتغنَّى بها وتتلذذ الأسماعُ بكلامِها عِندَ الإلقاء في الحلقاتِ الصوفيةِ[٣]. وَقد لَحِقَ بِهذا الركب بعضُ أسلافِ الفقهاءِ المفسرين بفتحِ بابِ الشرحِ، والتفصيلِ في علْمِ حقيقة التصوف مُستندين على عِلْم الكلامِ والوعظ عند المُحَاسِبيّ بتفسيرِه آياتِ القرآن الكريم والاستدلالِ بها في كبحِ آفاتِ الجوارحِ والنفسِّ، والرَّدِ على كلِ فرقةٍ ضالةٍ في عَـصْرِهم[٤].

---

(١) المُنقذ من الضلال – أبي حامد الغزالي، مكتبة الحقيقة، إسطنبول، ٢٠١٤: ص٢٤. أحياء علوم الدين – أبي حامد الغزالي، دار المناهج، السعودية، ط١، ٢٠١١: ص٥٨.

(٢) تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان تر: عبد الحليم النجار، المعارف، القاهرة، ط٥، د.ت.: ج٤ ص٥٨.

(٣) الكلام لوعظ المُحَاسِبيّ يقول: (من أراد التلذذ بصحبة أهل الجنة ونعيمها فليقتنع بصحبة أهل الفقر)، والشعر عند الشيخ الصوفي أبو مدين الغوث المغربي يقول: (ما لذة العيش إلا بصحبة الفقراءُ). تذكرة الأولياء – فريد الدين عطار، مصدر سابق: ص٢٩٤. طبقات الأولياء – ابن ملقن، مصدر سابق: ج١، ص١٧٥. أبو مدين الغوث – عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة،١٩٨٥: ص٥٢.

(٤) مذهب أهل التصوف – محمد بن إسحاق البخاري (٣٨٠هـ)، أ: آرثر جون، =

وأنتشر فِكْر وكتب المُحَاسِبيّ في نهاية القرن الثامن عشَر بصورة واضحة من خلال المستشرقين وتم تحقيق أغلب مخطوطاته من المستشرقين، والمهتمين بفكرِ معرفة النفس وأحوالها؛ فقد اقتبسَت جميع مؤلفاتهِ في كتب مترجَمة تحت عناوين محاربةِ النفسِّ، وكشفِ العيوبِ البشريةِ وتأملاتِ الفِكْرِ الباطنِ، وانتقاد الروحانيةِ المُزيَّفةِ، وقد حفَّز (رينيه جيو)[1]،المستشرقين في ظهور مؤلفاتهِ النفسية في التصوفِ، وكان السبب الرئيسي في تحقيقِ أغلب مخطوطاتِ المُحَاسِبيّ[2].

اتَّضح مِنّ المادةِ المعروفةِ عنْ الموضوع أنَّ المُحَاسِبيّ كانَ يسعى دومـًا للمنهاجِ والفكرِ الصائبِ، في جميعِ مؤلفاتهِ، والتي بلغتْ حوالي ((مائتي

= الخانجي، القاهرة ط٢، ١٩٩٤: ص٧١. ختم الأولياء - حكيم الترمذي (٣٢٠هـ)، تر: عمر أونجنت، حكاية، انقرة،٢٠١٤: ص١٧١.

(١) اسمهُ الأصلي رينيه جينو: فيلسوف فرنسي ولادة، وِلِد جينو في بلدة (بلوا) في ١٥ نوفمبر ١٨٨٦م من أسرة فرنسيّة كاثوليكيّة، كان متطلّعـًا إلى المعرفة، بمعناها الصوفي وقد سمي بعد إسلامه الشيخ (عبد الواحد بن يحيى). مقالات رينيه جينو، عبد الواحد بن يحيى ١٨٨٦م)، تر: زينب عبد العزيز، دار الأنصار، مصر،١٩٩٦: ص٨.

(٢) British .Mission Louis :orientalist French .Smith Margaret :orientalist London German French orientalist Halmon Ritter .orientalist Arthur John Arberry Orientalist: Josef Vin As. تاريخ التراث العربي - فؤاد سزكين، مصدر سابق: ج١ ص١١٤. الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف، آنا ماري شميل، تر: محمد السيد وآخرون، الجمل بغداد،٢٠٠٦: ص٦٦.

مُصنَّف))[1]. وجاءت أكثرها تداولًا في أبواب الزهد، وصفاتِ الورع، ومحاسبةِ النفسِّ، والتخلُّصِ من آفات الدنيا، والابتعادِ عن الشُبُهَةِ وارتداءِ خَشْن المَلبَس، وكلها أمورٌ عُرفَ بها المُحَاسِبيّ حين قال: ((وكذلك كل من عُرِف بِزي الأغنياء؛ فغيَّر زيَّه إلى التقشف كمن عُرِفَ بلباس المروي، فانتقل إلى لباسِ الصوف وأستنكره العامة على قَدْرِه حتى إنه ليُشار إليهِ بالأصابعِ))[2]. واتضح من المصادر أنَّ الإمام الحسن البصريّ (١١٠هـ)[3]، أعمقهُم أثراً في فكرهِ وزهدهِ[4].

إنَّ الاطلاعَ الواسِع للمُحَاسِبيّ على آراءِ كبارِ علماءِ عصرهِ، وَمنْ تَبعهُم جعلَه يَقِفُ من جميعِ الآراءِ مَوقْفَ الناقدِ المُغْبّرِ[5] في وجوهِ مخالفيه؛ واعظًا وناصحًا لعلماءِ عصره. فقالَ فيهم:

---

(١) طبقات الشافعية، السبكي، مصدر سابق: ج٢، ص٢٧٦. الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، زين الدين مناوي، مصدر سابق: ج١، ص٥٨٧.

(٢) أعمال القلوب والجوارح – المُحَاسِبيّ، مصدر سابق: ص١١٢.

(٣) الحسن بن يسار البصري، إمام وقاضي ومحدّث من علماء التابعين، ومن أكثر الشخصيات البارزة في عصر صدر الإسلام. سكن البصرة، وعظمت هيبته في القلوب فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم، ولا يخاف في الحق لومة لائم، استقر في البصرة حتى حصل على لقبه البصري وأصبح يعرف باسم "الحسن البصري"، توفي سنة ١١٠هـ.سير أعلام النبلاء، الذهبي، مصدر سابق: ج٤، ص٥٦٤.

(٤) طبقات الشافعية – السبكي، مصدر سابق: ج٢، ص٢٧٧. تاريخ التراث العربي – فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج١، ص١١٣.

(٥) مغبر في عمله: دائم لا يفتر. تهذيب اللغة، محمد الهروي، ت: محمد عوض، التراث، بيروت، ط١ ٢٠٠١: ج١٤، ص١٩٠.

::لا تكونوا كالمُنْخُلِ[١] يُخرج الدقيقَ الطيبَ وتبقى فيهِ النِّخالةِ، كذلك أنتم تُخرجونَ الحكمةَ من أفواهِكم ويبقى الغِلُّ[٢] في صدوركم، يا عبيدَ الدُّنيا كيفَ يُدرِكُ الآخرة مَن لا تُقضَى في الدنيا شهوته، ولا تنقطعُ عن الدنيا رغْبتُه؟ بحقٍّ أقولُ لكم إنَّ قلوبَكم تبكي مِنْ أعمالكم، جعلتُم الدُّنيا تحتَ ألسنتِكم والعملَ تحتَ أقدامكم، وأفسدتُم آخرتَكم بَصَلاحِ دنياكم، فَصلاحُ الدُّنيا أَحبُّ إليكم منْ صلاحِ الآخرة بمناجاةِ النّاسِ[٣]::.

واتضح أَنَّ أكثرَ كلماتِ الوعظِ والآراء الْفِقْهِيَّة والجَّدَل في علْمِ الكلام التي كانت تَترددُ في مؤلفاتِ المُحَاسِبيّ المُحقَّقةِ جاءت بمفهوم القرآن الكريم والأحاديثِ النبوية الشريفة، وبعض ما قيل في الأثر.

كان منهجُ الزهد ومحاربةِ النفسِ البشرية بالتّصوفِ عند المُحَاسِبيّ منهجاً لمْ يَسلم مِنْ النقدِ في عصرهِ، بَل وحتى بَعْدَ موتهِ، فَقَد تعَرَّضَ إلى انتقادات وتجريحٍ مِنْ أغلب المدارسِ الدينيةِ[٤] لنهج فكرهِ في عِلْمِ الكلامِ

(١) منخل: الغربال. العين – الخليل الفراهيدي، ت: مهدي المخزومي، الهلال، بغداد، ١٩٨٥: ج٤، ص١٣٥.

(٢) الغِلُّ: الحَسَد. وقيل: الشَّحْنَاء، والسَّخِيمَة. جمهرة اللغة – محمد الأزدي (٣٢١هـ)، ت: رمزي منير دار العلم، بيروت، ط١، ١٩٨٧: ج٣، ص٤١٦.

(٣) مخطوطة النصائح، الحارث بن أسد المُحَاسِبيّ (٢٤٢هـ)، رقم المخطوطة ٦١٤، مكتبة بغداد، إسطنبول: ص٦.

(٤) المعتزلةِ: ويُسمون أصحاب العدل والتوحيد، والذين يعتقدون أن الله تعالى قديمٌ، والقِدم أخص وصف لذاتهِ، وهم أصحاب واصل بن عطاء أحد تلاميذ الحسن البصري، الذي اعتزل مجلس الحسن البصري بسبب رأيهم حول أن مرتكب =

والجدَل، وهذا الرأي مدوَّناً في بعضِ المصادرِ[1]، فهُم يهاجمونه في الزهد، وحتى في نهج طريقة تفسيره للكلامِ[2]. ويبدو أَنّ مدارس المعتزلة كانت من أشرسِ أعدائهِ، وكانتَ آراؤه في تعارضٍ دائمٍ معهم طيلةَ حياتهِ، فكان شديد الرّدِّ بالكلامِ عليهم في إبطال أحاديثِهم وبالأخصّ عندما يتحدثون بخلقِ القرآن؛ كان المحاسبي يجادل دائماً في المسائل ويُبطل أفكارهم ولكنهُم كانوا يواجهون بالتنكيلِ بهِ وبآرائهِ الكلامية، لكونهِ يؤمن بوجودِ مَخْرج غير النّصِ والعقلِ لدى الإنسان وهو القلب[3]. وقد قيل عن الإمام المحاسبي في رَدِّهِ بالكلامِ على المعتزلةِ: ((كانَ الحارثُ المُحَاسِبيّ أشبهَهم إتقاناً وأمتَنهم كلاماً))[4].

= الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر، ويثبت بمنزلة بين المنزلتين، فطردهُ الحسن البصري من مجلسهِ.
الملل والنحل – محمد عبد، مصدر سابق: ج١، ص٣٨. الغنية لطالبي الحق عَزَّوَجَلَّ – عبد القادر الكيلاني، ف. ح: صلاح بن محمد، العلمية بيروت،١٩٩٧: ج١، ص١٨٧.

(١) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى عبد الله جلبي، ت: محمد شرف، إحياء التراث، بيروت ١٩٤١: ج٢ ص١٥٧٣ .تاريخ التراث العربي – فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج١، ص١١٤. تاريخ الأدب، بروكلمان، مصدر سابق: ج٤ ص٥٨

(٢) تلبيس إبليس، عبد الرحمن بن علي الجوزي، دار القلم، لبنان،٢٠٠١: ص: ١٤٧، ص ١٥٨، ص: ١٦١، ص: ١٧٣.

(٣) العقل وفهم القرآن، الحارث المُحَاسِبيّ، ت: حسين القوتلي، دار الفكر، بيروت ط١، ١٩٧١: ص٩٦.

(٤) المِلل والنِحل – محمد عبد الكريم (٥٤٨هـ)، مصدر سابق: ص٢٧.

إن المعتزلة لَمْ يهتموا لأمرِ المحاسبي كثيراً، لاستخفافهِم بالفقهاءِ والزُّهادِ في المجادلةِ عندما انتشرتْ أفكارهم في بغداد سنة مئتين وتسع عشر هجرية[١]، وقد أجاد المُحَاسِبيّ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- في وصفهِم بقولهِ: ((إنَّ العَقلَ يطغى عندَ المعتزلةِ حتى يحاولون -وهم دعاةُ الحرية- أنْ يفرضوها على النّاسِ بالسيفِ))[٢].

وقد جاء تأثر المحاسبي بالبحثِ في العِلْومِ الدينية عن طريق تفسيره لحديثِ رسول اللهِ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً»[٣] وتحليلهِ لقولِ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»[٤].

كان استدلالُ استقراء من المُحَاسِبيّ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- باجتهادِهِ لمعرفةِ الفرقةِ الناجية من المسلمين، ودراسة أسباب الغربة في الإسلام رغم كثرة المدارسِ في عصرهِ. إنَّ منهج المعرفةِ بأحوالِ النفسِ عند المُحَاسِبيّ كان سبباً في قبولِ عِلْمِه عندَ أهل التصوف، فعندَ اطِّلاعهِم على أحوالِهِ النفسيةِ، وورعه، وزهدهِ؛ فقد شكل حافزاً لهم اقتبسَوا من فوائدهِ ورضوا بأدبِه، سالكين طاعتهِ لرّبهِ،

(١) مروج الذهب ومعادن الجواهر، علي الحسين المسعودي (٣٤٦هـ)، ت: حسين مرعي، العصرية، بيروت ٢٠٠٥: ج٤، ص٤٣.

(٢) العقل وفهم القرآن، المُحَاسِبيّ، مصدر سابق: ص٢٤.

(٣) سنن الترمذي - محمد بن عيسى (٢٧٩هـ)، مصدر سابق: ج٤، ص٣٢٣، رقم الحديث (٢٦٤١).

(٤) المسند الصحيح، مسلم بن حجاج (٢٦١هـ)، ت: محمد فؤاد، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٨٥: ج١ ص١٣٠.

قال المحاسبي: ((فتحَ الله علينا علماً اتَّضح لي برهانُه، وأنار لي فضلُه ورجوَتُ النجاةَ، وجَعلْتُهُ أساسَ ديني، وبنيْتُ عليهِ أعمالي))[١].

ويبدو رغم الصعوبات والصراعات التي كانت موجودة في القرن الثالث الهجري في بغداد فقد شقت مدارسُ التصوف الدينية طريقها على مُصنفات الإمام المحاسبي في نَهْجِ تفسير القرآن الكريم، وعِلْمِ الكلامِ، والفقه، واستمرت فيما بعد عند مدرسةِ أسلافِ الأشعريةِ القائمة على مبدأ الجِدَال عند السُنّة[٢]، حيث استطاعَ أنْ يضيفَ منهج الإمام المُحَاسِبيّ لمدرستهم صفةَ الجدِالِ بالصّبرِ، وكان من أهم أسباب الرغبة والاطلاع على مصنفاتِه عند المدارس الأشعرية حكمتهِ في تصنيف الدخول لعلمِ الحقيقة من خلال:

- التشريع بالقرآنِ الكريم.
- عدمُ إهمالِ نصِّ الأحاديث النبوية الشريفة.
- لمْ يُجرِّد العقلَ من المعرفةِ.

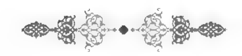
وتُبيِّن المادة في الموضوعِ أعلاه أنَّ الأفكارَ في علمِ الجَدلِ والكلام، والزهد، والإنابة للهِ كانت تسير عند منهج الإمام المُحَاسِبيّ في الوعظِ، وعند السرد تتخلَّلُها الآراءُ الفقهية، وتَبيَّن ذلك في جميعِ مؤلفاتهِ؛ فكانتْ ذات مَفهومٍ

(١) الوصايا، حارث المُحَاسِبيّ، ت: عبد القادر عطا الله، دار كتب علمية، لبنان ط١، ١٩٨٦: ص٣١.

(٢) الأشعرية: هم اتباع أبي حسن الأشعري إمام المتكلمين، وقد نَسب الأشاعرة لهُ أنه مات ببغداد ٣٢٤هـ.. الملل والنِحل، محمد عبد الكريم،مصدر سابق: ج١، ص٨١.

يتجهُ نحو الالتزامِ بالحديثِ، وسَردِ الكلام ببلاغةِ المتكلمين والتفسير بالقرآنِ الكريم بمعرفةِ الفقهاءِ وآرائهم، ممزوجةٍ بكلماتِ وعظٍ ووَرعٍ وزهدِ الصوفيةِ.

كان منهجُ التحقيق والتخريج وفقَ دراسةٍ مكثفةٍ عن المؤلفِ وعصرهِ في القرنِ الثالث الهجري في منهج عِلْمي تحليلي، وَقَد احتوى الكتاب المُقدَّمُ على نُسخٍ للصفحاتِ الأولى، والوسط، والأخيرة لمخطوطةِ الخَلْوَة الوحيدة، حسب ما تمْ ذكرهُ في المصادرِ والمراجع[1]. أما سبب اختيار موضوع المخطوطة؛ فهي تُعدُّ جوهرة نفيسة حسب إشارة المصادر إليها، وجاءت المواضيع على شكل منشورات في مجلةِ المشرق، وشرحَ وقدَّمَ للمخطوطة الأب أغناطيوس عبده خليفة، وكان التنسيق في النشرِ حسب المواضيع، وتم النشر في المجلةِ سنة (١٩٥٥م) في لبنان.



(١) تاريخ التراث العربي، فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج٤، ص١١٩.

أهم الأسباب الرئيسية بإعادة التحقيق للمخطوطةِ كما يلي:

عدم وجود نسخة ثانية للمخطوطةِ، وهي تُعتبر فريدة في النوعِ والمضمون.

إن بعض الكلمات العربية التي جاءت في المتن قد صَعُبَ على الناشر الأب أغناطيوس أن يوضح المعنى فيها، وحسب ما جاء بكلام الناشر في مجلةِ الشرق: ((ولقد أغفلت بعض النقاط على الحروف في المخطوطة؛ فصعُبت قراءتُها))[1]. علماً أن الكلمات كانت واضحة المعنى في اللغة العربية حسب منهج المُصنِّف؛ فاللّغة التي يستخدمها هي لغة القرآن الكريم، والسرد في الكلام جاء مُكمِّل من الأحاديث النبوية الشريفةِ.

يبدو رغم سعي مجلة الشرق وجهدها في وضع تحقيق المخطوطةِ بالصورةِ التي تحافظ على تسلسل المسائل في الكتابِ؛ فقد حاولوا ببعض الشي أن يطابقوا الكلمات بالمعاني وأسقطوا الكثير من الكلماتِ في نشر الموضوع.

وردت كلمات لديها معانٍ مختلفة عن مضمون المتن، وقد جاءت بالتناقضِ مع مفهوم موضوع الخَلْوَة عند الوصف والمطابقة نحو: ((وإليك بعض النصوص المَحكي عنها، وقد يطول ذكرها إذا أحببنا أن نذكرها))[2]، والتي أشار فيها بمطابقةِ كتاب الرعاية لحقوق الله.

(١) الخَلْوَة، الحارث المُحَاسِبيّ، ت: الأب أغناطيوس ص٦، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط١، ١٩٥٥: ص٤٠.

(٢) المصدر نفسه: ص٦١.

جاءت بعض الكلماتِ في المخطوطة لمْ يتم إضافتها في المتنِ، واكتفت المجلة بوضع علامة (xxx)، وسنأتي في الفصل الثالث عند الباب الثاني بتفصيل ما تمَّ ذكره فيما سبق.

أهمل الناشر الكلمات والأسطر التي لمْ يصل إلى معناها لقولِ: ((تبدو هنالك مجموعة من أوراقٍ اختلفت بالخطِ، ويبدو أنها تتعلق بمؤلفٍ آخر، وحبره أسود))[1]، وأكَّد الناشر: ((أن حالة المخطوطة سيئة، وهذا ما يدل على أن المجموعة تناولتها الأيدي))[2].

تبين المادة المعروفة عن الموضوع لبعض المصادر، إنَّه ممكن نسخِ بعض الصفحات التَّالفة للمخطوطةِ النادرة، وتأتي أيضاً عندما تكون المخطوطة بخطِ يد المُصنِّف، ويتم استبدال الأوراق التَّالفة منها، للحفاظِ على النُسخ الأصلية التي قد كتبها المؤلف، والله أعلم.

كان منهج كتاب الخَلْوَة في مجلة الشرق الوحيدة في النشر منذ سنة (١٩٥٤م)، ولمْ يجدد نشر مواضيع المخطوطة بعدها في أي مجلة ولا حتى طُبع الكتاب.

ممكن الاستفادة من موضوع الخلوة لكثرةِ الدراسات، والباحثين في عِلْم الزُهد، والتصوف وللقاصدين سلوك الخلوات أيضاً، ولاسيما قد أجاز الإمام المُحَاسِبيّ بطريقةِ الخَلْوَة في الكتاب بأسلوبٍ يختلف بالمفهومِ عما بحث فيه

(١) المصدر نفسه: ص٥.
(٢) المصدر نفسه: ص ٥.

بعض علماء التصوف، نحو: الشيخ محي الدين ابن العربي (٦٣٨هـ) في كتابِ الخَلْوَة المطلقة[1]. والشيخ الشعراني (٩٧٣هـ) في كتاب الخَلْوَة من الأسرار والعلوم[2]. والشيخ ركن الدين السمناني (٧٣٦هـ)[3] في آداب الخلوات. والشيخ أبي خلف الطَّبري (٤٧٠ هـ)[4] في كتاب خلوة العاكفين منتخب من سلوة العارفين.

وتُبيِّن المادة أن التسلسل التاريخي للإمام الحارث بن أسد المُحَاسِبيّ (٢٤٣هـ)، تعطيه الأسبقية بمعرفة أصول الخَلْوَة؛ فهو شيخ العارفين.

جاء الكتاب في مقدمةٍ، وأبواب، وفصول، ومباحثٍ، وخاتمةٍ، وقائمةٍ بمصادرِ الكتبِ وفَهرست الأحاديث النبوية، وفَهرست آيات قرآنية، ويأتي البابُ الأول: دراسة عن المؤلف ويحتوي على أربعة فصولِ: منها الفصلُ الأول ويتحدث عن نشأتهِ وعصرهِ، وفيهِ أربعة مَباحث: جاءَ المبحثُ الأول: اسمه، كنيته، مولده، وفاته. وأما المبحث الثاني: شيوخه، وتلاميذه. والمبحث

---

(١) الخَلْوَة المطلقة، محي الدين ابن عربي (٦٣٨هـ)، ت: محمود عبد الرحمن، الفكر، القاهرة، ١٩٨٧.

(٢) الجوهر المصون والسر المرقوم فيما تنتجه الخَلْوَة من الأسرار والعلوم - عبد الوهاب الشعراني (٩٧٣هـ)، ت: شريف مصطفى، جوامع الكلم، القاهرة، ٢٠٠٧م.

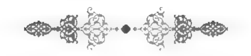
(٣) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون - حاجي خليفة، مصدر سابق: ج١، ص٤٢.

(٤) خلوة العاكفين: منتخب من سلوة العارفين للإمام محمد بن عبد الملك الطبري (٤٧٠ هـ)، ت: تحقيق ودراسة بلال الأرفه لي، وجرهارد بورينغ، دار المشرق، بيروت، ط١، ٢٠١٣.

الثالث: ثناء أهل العِلمِ في حقهِ. والمبحث الرابع: حولَ فِكْر المُحَاسِبيّ في التصوّفِ.

وجاء في الفصل الثاني: مؤلفاته. واحتوى على ثَلاثة مباحثِ: منها المبحث الأول: الكتب المحقَّقة من المستشرقين، وأما المبحث الثاني: الكتب المحقَّقة من العَرَبِ. المبحث الثالث: تحدَّث عن الكتب المفقودةِ والمخطوطاتِ الغيرِ مُحقَّقةٍ. وقدَّمْتُ بعضَ الأسبابِ التي كانت سبباً في فقدان الكتب وعدمِ تحقيق البعضِ منها.

وجاء في الفصل الثالث: وَصفُ المخطوطاتِ. وكان عبارة عن أربعةِ مباحث: جاء فيه المبحث الأول: وصفُ مخطوطةِ مكتبة كستمونه. المبحث الثاني: فيهِ وَصفُ الكتاب المطبوع عن المخطوطة، وأهم الاختلاف فيه مع المخطوطة. المبحث الثالث: جاءَ بمنهجِ التحقيق. المبحث الرابع: صورٌ عن المخطوطة الأصل، ومتن المخطوطة حسب المواضيع.



وَمِنْ أهم المشاكلِ التي واجهتني في تحقيقِ مخطوطات الإمام الحارث بن أسد المُحَاسِبيّ:

أولًا: البحثُ عن نسخةٍ أُخرى للمخطوطة لمقابلتهما، وقد استغرقتُ سنتين عسى أن نجد نسخة أخرى ولكن انتَهتْ دون جدوى، ويبدو أنها الوحيدة، والسَّبب قد يكون أنها بخط يد المُصنِّف ولم تستنسخ، واتَّضح أن أغلب المخطوطات التي وجِدَتْ في مجموعة التصوف (مكتبة كستمونه تركيا)[1]، هي أصلٌ للمصنفين على ما يبدو.

ثانيـًا: كان إعدادُ دراسةِ المقدمة لدينا صَعب جداً، من حيث الحصول على المعلوماتِ الصحيحة مِنْ المصادرِ والكتبِ التي تحدثتْ عِنْ المُحَاسِبيّ؛ لكون أنَّ بعض المصادرِ فيها الخطأ بالمنهجِ والنسخِ واضحٌ في نقلِ كلمات المتن الصحيحة من كُتبِ المُحَاسِبيّ، وحتى في المنقولِ من الكتب الأخرى، وتَبيَّن ذلك مِنْ خلال مراجعةِ المصادر[2].

اتضح عَدم وجودِ منهجٍ واضحٍ لتحقيقِ بعضِ المخطوطاتِ للمحاسبي في الكتب المُحقَّقةِ بالعربية لورودِ بعض العناوين على أنها مخطوطاتٍ ولمْ تُحقَّق من قبل، وهي بالأصل كانت مُترجمةٌ ومُحقَّقةٌ فيمّا سَبق في كتبٍ باللّغةِ الإنكليزية، والفرنسية، وقد جاء في الكتب المُحقَّقةِ بالعربية عناوين وتسميات للمسائلِ والأبواب بعيدةً عن التسميةِ الحقيقيةِ للمخطوطاتِ، وتمَّ إضافةُ

(١) التاريخ التراث العربي - فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج٤، ص ١١٨.
(٢) طبقات الشافعية - السبكي، المصدر سابق: ج٢، ص٢٧٧. تاريخ الأدب العربي، بروكلمان، المصدر سابق: ج٤، ص٥٨.

أسماء جديدةٍ لها من المُحققين، والمبالغةُ بالتسميةِ واضحةٌ عند بعضِ الكتبِ[1]. ووجدت رواياتِ غير صحيحةٍ في بعض الكتبِ لا تُطابق المخطوطاتِ من ناحيةِ المنهجِ والفكْر للمُحَاسبي، ومنها أخطاءٌ في الكلماتِ عند مطابقةِ بعض الكتب المُحقَّقةِ بالمخطوطاتِ الأصلية[2].

إن مُجمل الأسباب التي تمَّ ذِكْرها فيما سبق ولَّدت لدينا حافزاً لشراءِ بعض المخطوطات المصوَّرة الموجودة في المكتباتِ التركية[3]، وبعض الكتب المُحقَّقةِ بالعربيةِ للمُحَاسبيَ[4] التي كانت الدافع للوصولِ إلى المنهجِ الصحيح في تحقيقِ كتبِ الإمام المُحَاسِبيّ.

وقد انجزت العمل على إحصاء جميع الكتب المُحقَّقة من المستشرقين، والكتبِ المُحقَّقة من العرب وعمل فهارس لكلِّ الكتب المطبوعة والمخطوطات

---

(١) تاريخ التراث العربي، فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج١، ص١١٣. مصدر نفسه: ج٤، ص٥٨. فهرست المخطوطات العربية - الشنطي، مصدر سابق: ج٢، ص١٤٣، ص١٥٧، ص١٦٣.

(٢) شرح المعرفة وبذل النصيحة، المُحَاسِبيّ، ت: مجدي فتحي السيد، دار الصحابة، طنطا، مصر، ط١، ١٩٩٣: ص٦٥.

(٣) مخطوطة الزهد، المُحَاسِبيّ، مصدر سابق: ص٣. مخطوطة الخَلْوَة والتنقل بين العباد، المُحَاسِبيّ، رقم المخطوطة: ٢٧١٣، كستمونه، تركيا، ص٢. مخطوطة شرح المعرفة وبذل النصيحة - المُحَاسِبيّ، مصدر سابق: ص٣٧.

(٤) كتاب الرعاية لحقوق الله، المُحَاسِبيّ، ت: مارغريت سميث، الوراق، بغداد، ٢٠١٤: ص١٥. كتاب فهم القرآن والعقل - المُحَاسِبيّ، مصدر سابق: ص٢٠. التوهم - المُحَاسِبيّ، ت: آرثر جي ا، الوراق، بغداد، ٢٠١٠: ص١٢. رسالة المسترشد، المُحَاسِبيّ، ت: فتاح أبو غدة دار السلام، حلب، ط١، ١٩٦٤: ص٣٣. الوصايا المُحَاسِبيّ، مصدر سابق: ص٥.

حسب المدَّة الزمنية للتحقيقِ؛ لكي نَقف على الأخطاءِ التي وردتْ فيها.

ولتوضيح الأخطاء التي جاءتْ في مواضيع الكتبِ والنصوصِ المشار إليها في بعض الكتبِ الأخرى[1]. ليتسنَّى لأي باحثٍ أو مُحقِّقٍ فيما بَعْد الاعتماد عليها دون أي أخطاءٍ أو عناءٍ في تحقيق المخطوطة أو قراءةِ كتاب للإمام المُحَاسِبيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقد رَجِع السبب في الأخطاء على ما يبدو عند البعض إلى عدم إتقانهم اللغة العربية، وكلمات اللغة في جزيرةِ العرب حصراً، ومن الممكن أن بعض الكتب قد تم نقلها من الإنكليزية للعربية وفي مقابلتها لمْ تُطابق مفهوم اللغة العربية.

أسألُ الله رَبّ العالمين أن ينفعني وينفعَ بها، وأن يرزقنا التوفيق وصدقَ النيَّة. والصلوات عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ أَكْرَم نَبِيٍّ، أَصْلُ الأُصُول، ونُورُ الْجَمَالِ، وَسِرُّ القبول، أَصْلُ الْكَمَالِ، وَبَابُ الْوُصُول صلاةً تَدُومُ وَلا تَزُول، صلاةً تكون لنا طريقـاً لقُربهِ، وتأكيداً لحبّهِ، وبابـاً لجمعنا عليه، وهديةً مقبولةً بين يديهِ، وَسَلِّمْ عَلَيْهِ وَعَلَى آله وَأَصْحَابِه أجمعين.

والْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

محمد فوزي كريم

تركيا/ ٢٠٢١



(١) طبقات الشافعية، السبكي، مصدر سابق: ج٢، ص٢٧٧. الرسالة القشيرية، عبد الحليم محمود، مصدر سابق: ص٥٩. تاريخ الأدب العربي، فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج١، ص١١٣.

المُستَأنفُ: هو المبتدئُ الذي يغلبُ على قلبهِ ذكرٌ فيتركُ الزَّلَلَ مخافةَ العقابِ؛ فكلَّما هاجَ ذكرُ الموتِ من قلبهِ ماتتْ الشهوات عِندهُ، وأمَّا العارفُ: فذكرُه للموتِ محَبةً لهُ، اخَتياراً على الحياةِ، وتبرماً[1] بالدُّنيا التي قَد سَلا قلبُهُ عَنها شوقاً إلى الله ولقائهِ؛ رجاءَ أملِ النَظر إلى وَجههِ والنزولِ في جوارهِ لمَا غلبَ على قلبهِ مِنْ حُسْنِ الظنِّ بربه. طَالَ شَوْقُ الأبْرَارِ إلى اللهِ، وَاللهُ إلى لِقَـــائِهِمْ أَشْوَقُ[2].



الْحَارِث بن أَسَد المُحَاسِبيّ

اسمهُ وَنَسبُهُ وَكُنْيَتُهُ

هو أبو عبد الله الحارث بن أسد المُحَاسِبيّ البصري العَنَزِيَ الأصل[١] ولِد في البصرة[٢] لسنةِ مئة وخمس وستون هجرية، وجاءتْ كنيته بالمُحَاسِبيّ؛ لأنَّهُ كانَ يحاسبُ نفسَهُ وقلبَهُ، ولديهِ الإلحاح على تقييم نفسِهِ، فهو الزاهدُ العارفُ، وشيخُ مشايخ الصوفية، أحدُ الأوتادِ والجامعُ بين عِلْمِ الظاهرِ والباطنِ في التفسيرِ، صَحِبَ الإمام الشافعي، وكان من الطبقة الأولى، أي عاصَرهُ وأخَذَ عنه وَاختارَ مذهَبه[٣]، زاهدٌ في الطريقةِ، عَالِمُ العارفين في زمانهِ، وأستاذ أكثرُ البغداديين[٤].

(١) سير أعلام النبلاء - الذهبي (٧٣٦هـ)، مصدر سابق: ج١٢، ص١١٠. الأنساب - محمد السمعاني، مصدر سابق: ج٩، ص٧٦. تاريخ دار السلام، الخطيب البغدادي، مصدر سابق: ج٩، ص١٠٦. الطبقات الكبرى، أحمد البصري الشعراني، ت: أحمد شمس وآخرون: ج١، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٩١: ص١٣٩. مرآة الجنان وعبرة اليقظان، اليافعي، مصدر سابق: ج٢ ص١٠٦. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، جمال الدين المزي، ت: بشار عواد، الرسالة، بيروت، ١٩٩٢: ج٥، ص٢٠٨.

(٢) البصرة: هي من المدن الكبيرة في العراق، وفي كلام العرب تُسمَّى الأرض الغليظة، وأيضاً تُسمى الأرض الحمراء وهي في تعريب بس راه: أي ذات طرق عديدة متنوعة تتشعب إلى أماكن كثيرة، والذي ينتسب إليها يقال عنه البصري، لها خليج بحري يسمى حالياً -شط العرب- يلتقيان فيه نهران دجلة والفرات ذات شجر نخل وافر. معجم البلدان، شهاب الدين بن ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ط١ ١٩٩٧: ج١، ص٤٣٢.

(٣) طبقات الفقهاء الشافعية- ابن صلاح، مصدر سابق: ج١، ص٤٤٠.

(٤) الكواكب الدرية في تراجم الصوفية، محمد رؤوف المناوي، مصدر سابق: ج١، =

ويبدو أنَّ نشأتهُ كانتْ في جوٍّ من الصرَّاعِ الفكري والمُجادلةِ التي سادتْ فيها الشيوع بالأهواءِ عند أهل البصرة، لأنّ البصرة كانتْ منارةً للعِلْم،وكان أباهُ من بيئةٍ مجتمعٍ قد سادَ فيهِ العِلْمُ والمُجادلةِ والثقافةِ[1]، ولقد عاصرَ المُحَاسِبيّ الخلافةَ العباسية منذ ولادتِه[2]، وكانَت حياتُه في يُسرٍ ورخاءٍ وحين توفي أبوه تركَ لهُ ثروةً مِنْ الأراضي والمالِ الوفيرِ؛ فلمْ يأخذْ منها شيئاً، وبعثهُ إلى بيت المال[3].

وقيل: إنَّ سببَ رفضِ المالِ من أبيهِ لكونهِ يتكلّمُ بالقدرِ[4]، فقالَ: المُحَاسِبيّ مُعلِّلًا السبب إنَّهُ سمعَ عن النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقول: «لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ، وَلَا الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ»[5] فرأى مِن السُنَّة والورع أن لا يأخذْ ميراثه، ويتبْع السُنَّةَ، علماً أنه كان في أشدِّ الحاجةِ إلى المال[6].

= ص٥٨٥. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم، مصدر سابق: ج١٠، ص٥٧. مصدر نفسه: ج١، ص٤٣٨. تاريخ التراث العربي - فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج١، ص١٣٦. تاريخ الأدب العربي، بروكلمان، مصدر سابق: ج٤، ص٥٧.

(١) العقل وفهم القرآن للمحاسبي، مصدر سابق: ص٧.

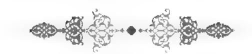
(٢) موسوعة الخلفاء المسلمين - زهير شفيق الكبى، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤: ج٢، ص١٣.

(٣) طبقات فقهاء الشافعية - ابن صلاح، مصدر سابق: ج١، ص٤٤٠.

(٤) أي قدرياً: هي إحدى الفرق، سُمّوا بذلك لردهم قضاء الله سبحانه في معاصي العباد. الغنية لطالبي طريق الحق عَزَّوَجَلَّ - عبد القادر الكيلاني، مصدر سابق: ج١، ص١٨٧.

(٥) مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل (٢٤١هـ)، ت: شعيب الأرناؤوط، الرسالة، ط١، ٢٠٠١: ج٣٦، ص٧٦ حديث رقم (٢١٧٤٧)

(٦) تذكرة الأولياء، فريد الدين العطار، مصدر سابق: ج١، ص٢٩١. تاريخ دار السلام، الخطيب البغدادي، مصدر سابق: ج٥، ص٢٩٠.



وإنّ أعمال الجوارح يُصحِحها بِرُّ القلوب أو يُفسدُها، وإنّ القلوب مهيمنةٌ على الجوارح[1].



الْحَارِث بن أَسَد المُحَاسِبيّ

(١) مخطوطة الخَلْوَة، المُحَاسِبيّ، مصدر سابق: ص٣٥.

زُهده وورعُه

قال الشيخ جنيدُ البغدادي (٢٩٧هـ)[١] - رَحِمَهُ اللَّهُ -: ((ماتَ الحارث المُحَاسِبيّ وهو محتاجٌ إلى دَانقٍ من فضةٍ، وأبوه خلَّفَ مالاً كثيراً وما أخذَ منهُ حبَّةً واحدةً))[٢]. فقد كان ملتزمـًا في اتباع السُنَّةِ النبويةِ مع أقربِ النّاسِ إليهِ، وكنتُ كثيراً أقول للحارثِ عُزلَتي أُنسِي، وتُخرِجُني إلى وَحْشةِ رؤيةِ الناسِ والطُّرُقات؛ فيقول لي الحارث: كيف تقولُ أُنسِي عُزلَتي؟! لو أَنَّ نصفَ الخَلقِ تَقرَّبوا مِنِّي ما وجدتُ بهم أُنسـًا، ولو أنَّ النِّصفَ الآخرَ نأَى عنِّي ما استوْحَشتُ لبُعدهِم[٣].

قدجاء أحد المريدين، وقال لهُ: يا مُعلِّم ما هو الأُنس بالله؟

قالَ المُحَاسِبيّ: التوحشُ من الخلقِ.

---

(١) الجنيد البغدادي: جنيد بن محمد خزا أصله من نهاوند، سكن بغداد اشتهر بالصوفية وبصحبة خاله السر السقطي وأبي حارث المُحَاسِبيّ، ودخل العلم وهو ابن عشرين سنة، وله مؤلفات كثيرة في الزهد، توفي سنة٢٩٧هـ. طبقات الأولياء، ابن الملقن، مصدر سابق: ج١، ص١٢٦. سير أعلام النبلاء، الذهبي، مصدر سابق: ج١٤، ص٦٧.

(٢) مرآة الجنان واليقظان، لليافعي، مصدر سابق: ج٢، ص١٠٦. الكواكب الدرية في الصوفية، المناوي، مصدر سابق: ج١، ص٥٨٨.

(٣) الكواكب الدرية في طبقات الصوفية، المناوي، مصدر سابق: ج١، ص٥٨٦. تاريخ مدينة السلام، الخطيب البغدادي، مصدر سابق: ج٩، ص١٠٨.

فقالَ المريدُ: فما علامةُ التوحش؟

أجابَ المُحَاسِبيّ: الفرارُ إلى مواطنِ الخَلوات، والتَفرُّدُ بعذوبة الذِكْر، فعلى قَدْرِ ما يدخلُ القلْبِ من الأُنِس بذكْرِ الله يخرجُ التوحشُ، وفي قولِ الله تعالى لداوود -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ((كن بي مُستَئِنِسـاً وَمِنْ سواي مُستَوحشـاً))[1]، ويبدو أنَّ هذه الأسئلة كانتْ في لقائهِ الأخير بتلاميذهِ وبعدها غادر بغداد إلى الكوفة، بخلوةٍ وعزلةٍ بلغتْ – تسعة أعوام – فقد هجرَ الخَلْق لرَبِّ الخَلْقِ.

دلَّت جميعُ الآثار أنَّ المُحَاسِبيّ جاءَ إلى بغدادَ في مرحلةِ شبابهِ، وليسَ في صغرهِ أو صباهِ كما ذُكْرَ في بعضِ المصادر، وكان الدليلِ على ذلك تأثُّرهِ بعلماءِ أهل البصرة مِنْ المحدثين والفقهاءِ قبل تأثُّره بعلماءِ بغداد، وما حُدِّثَ عنهُ من حديثٍ وآثار أتضح أنَّه دخل مجالسَ العِلْمِ في البصرةِ منذُ الصغرِ، وإنَّ فِكر ومنهج الحسن البصري كان أعمقَهم أثراً فيهِ[2]؛فقد حدَّثَ في وصفِه لِعلماءِ أهل البصرةِ قائلاً: ((ليتني بزهدِ الحسنَ البصريّ، وورعِ ابن سيرين، وتوكلِّ عُبادةَ بن عامر العنبري، وفقهِ سعيد بن المسيب))[3].

قيل عن المحاسبي: إنَّ الله سبحانهُ أكرمهُ بأنَّهُ لا يَدْخل بَطْنه إلا الحلالُ

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء – لأبي نعيم الأصفهاني، مصدر سابق: ج١٠، ص١٠٧.

(٢) تاريخ التراث العربي – فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج١، ص١١٣. طبقات الشافعية، السبكي، مصدر سابق: ج٢. ص٢٧٧.

(٣) تاريخ دمشق – علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر (٥٩١هـ)، دار فكر، بيروت، ٢٠٠٦: ج٢٦، ص١٦.

المَحْضُ[1]، ومِنْ كلامِهِ: ((مَنْ صحَّحَ باطنَه بالمُراقبةِ، والإخلاصِ زيَّن اللهُ تعالى ظاهرَهُ بالمُجاهدَةِ، واتِّباعِ السُنَّة)) [2].

وعن الشيخ الجنيدُ البغدادي (٢٩٧هـ)، قال: كانَ الحارثُ كَثير الضُّرِ فأجتاز بي يوماً وأنا جالسٌ على بابنا، فرأيت على وجهِ زيادة الضرُّ من الجوع.

فقلتُ لهُ: يا عمُّ لو دَخلتَ إلينا نِلْتَ شيئاً مَنْ عِندنا؛ فقالَ: أَوَ تَفعل؟ فقلتُ: نَعم، وتسرُّني بذلك وتَبرُّني؛ فدخلتُ بين يديهِ ودخلَ معي؛ فجئتُ بنوعٍ من الطعامِ جَاء لنا من عرسٍ؛ فوضعتُهُ بينَّ يديهِ مدَّ يدَهُ فأخذَ لقمةً فرفعها إليهِ فرأيتهُ يمضغُـها ولا يَزدَريها[3]؛ فوَثبَ[4]،وخَرَج وما كلّمني؛ فلمّـا كان الغدُ لقيتهُ، وقلتُ لهُ: يا عمُّ سررتني ثمَّ نغَّصتَ عليَّ؟

قَالَ يا بُنَي: أما الْفَاقَة[5]؛ فكانتْ شديدةٌ، وقد اجتهدتُ في أنْ أنالَ من الطعامِ الذي قدَّمتَهُ إليَّ ولكن بيني وبينَ اللهِ علامةٌ؛ إذا لَمْ يكنْ الطعام مرضياً

---

(١) الطبقات الصوفية، محمد بن حسين السلمي (٣٢٥هـ)، ت: أحمد الشرباصي، الشعب، القاهرة، ١٩٩٨: ص٢١.

(٢) الطبقات الكبرى، أحمد الشعراني، مصدر سابق: ج١، ص١٣٨. مصدر نفسه: ج١، ص٥٨٦.

(٣) ازدراءً: أقسى أنواع التأنيب للنفس. معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار، عالم الكتب، بيروت، ط١، ٢٠٠٨: ج٢، ص٩٨٣.

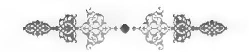
(٤) وَثبَ: شَبَّ وتحرَّك. المُنَجَّد في اللغة، علي بن الحسن الأزدي كراع النمل، عالم الكتب، القاهرة، ط٢، ١٩٨٨: ج١، ص٣٣٨.

(٥) الْفَاقَة: الْحَاجة، وَلاَ فِعْل لَهَا. تهذيب اللغة، محمد الهروي، مصدر سابق: ج٩، ص٢٥٥.

ارتفعَ إلى أنفي منهُ زَفْرَةٌ[1]؛ فلمْ تَقبلْهُ نفسي فقد رَميتُ بتلك اللُّقمةِ في دَهْاليزِكم[2]؛ فَقلت لهُ: أتدخلَ اليوم؟ قالَ: نَعْم؛ فقدّمتُ إليه كسَر خبزٍ يابس كانتْ لنا فأكلَها، وقالَ: إذا قدَّمتَ إلى فقيرٍ شيئًا فَقدِّم مِثل هذا[3].

إنَّ الورعَ والزهَد في عصر المُحَاسِبيّ كانَ منهجًا للمريدين، وكان في نظر المُترفين اتهامًا. كانتْ المعرفةُ بالأصولِ والحقيقة عزيزةُ المنالِ؛ لأن الجهلَ في النفوسِ وعِللِهَا مُتفشيًا، ولا يخفى إنَّ المرحلةَ التي كان يعيشُها الإمام المُحَاسِبيّ، وفكرَهُ في تأسيسِ مدرسةِ الكشف عن علل النفس وعلاجها في مدينة بغداد في القرن الثالث للهجرةِ.

كانت من أصعب مراحلِ التأسيس، بما يحتاج منه ثبات على المنهج، وقد كَشفَ المُحَاسِبيّ عن صعوبة ذلك في أغلب مصنَّفاته، وبأسلوب سهل سالكًا طريق الوعظ والنُصحِ؛ فقد أمسى لألوانِ الحقِّ مُشاهداً ومُراقبًا، ولآثّارِ الرَسُول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مساعداً ومصاحبًا[4].



(١) زَفْرَة: زَفَر، وسخ، درن. المصدر نفسه: ج١٣، ص١٣٣.
(٢) دَهَاليزكم: من دِهْليز: وهو مسلكٌ طويل ضيّق. معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار، مصدر سابق: ج١، ص٧٧.
(٣) طبقات الأولياء، ابن الملقن، مصدر سابق: ج١، ص١٧٦. تاريخ دار السلام، الخطيب البغدادي، مصدر سابق: ج٩، ص١٠٨.
(٤) الطبقات الكبرى، أحمد الشعراني، مصدر سابق: ج١، ص١٣٨.

كَلامُ بَعض العُلَماءِ في الإمام المُحَاسِبيّ والرَّدُّ عَلَى ذَلِكَ

قد جاءَت في بعض الروايات الغيرِ صحيحة أن فترة وجود الإمام المُحَاسِبيّ في بغداد كانت بصغرهِ وقيل عنه: في عدةِ كتبٍ[1] عَنْ أبي علي بن خيران البغدادي (٣٢٠هـ) [2]، إنَّه شاهد الحارث ببابِ الطاقِ[3] وسط الطريقِ متعلِّقًا بأبيهِ، والناسُ اجتمعوا عليهِ، ويقول لأبيهِ: أمي طلّقْهَا، أنت على دِّين وهي على دِّين، والرواية بعد إسنادها بالتسلسلُ الزمني ما بين الراوي للقصةِ لابن خيران البغدادي، وزمن مراحل الصبا للحارث المحاسبي لا يوجد فيها تطابق في الزمان والمكان[4]، وأيضـًا لا تطابق مسار تلقي المحاسبي للعلومِ والمعرفِة؛ فكانت البداية في مدينةِ البصرة وبعدها مدينة واسط[5]، وقد

(١) طبقات الشافعية، السبكي، مصدر سابق: ج٢، ص٢٧٧. حلية الأولياء وطبقات، الأصفهاني، مصدر سابق: ج١٠، ص٨١.

(٢) علي بن خيران هو الحسين بن صالح بن خيران القاضي الفقيه البغدادي توفي، سنة٣٢٠هـ.سير أعلام النبلاء الذهبي، مصدر سابق: ج ١٥، ص ٥٩. موسوعة خلفاء المسلمين، زهير الكبى، مصدر سابق: ج٢، ص٩٣.

(٣) باب الطاق: من المحلات المهمة في الجانب الشرقي من بغداد. معجم البلدان، ياقوت الحموي، مصدر سابق: ج١، ص٣٠٩.

(٤) موسوعة خلفاء المسلمين – الكبى، مصدر سابق: ج٢، ص٩٣.

(٥) تاريخ التراث العربي – فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج١، ص١١٣.

أوضحت المصادر عدم وجودِ أي تفاصيل لحياةِ والدتهِ أو عائلتهِ، وهذا حالُ معظم العلماءِ المسلمين؛ لكون أنَّ النساء بحكمِ الآداب الدينية والعُرفية لا يُذكرْن بشيءٍ[1].

وروي في بعضِ المراجع أن سبب خروج المُحَاسِبيّ من بغدادِ صدودِ المُريدين عنهُ، وعدم رغبتهم في عِلْم التصوِّف والزهد[2]. وهذهِ المعلومة ليسَتْ دَقيقة؛ لما جاء في مصنفاتِ الطبقات لعلماءِ الصوفية، والشافعية، وكتب السيرة للعلماء والوفيات في زمنهِ ومن بعد وفاتهِ فقد كان لهُ حلقات عِلْمٍ لكبارِ علماء التصوف، والشافعية. وسيتم ذكرهم بالتفصيلِ لاحقًا، وأما عن الخروج من بغداد؛ فكانت للخَلْوَةِ من الناس لربِّ الناس بما ضاق صدره للأسباب الأتية:

أولًا: خلافات المدارسِ الدينية، التي كانتْ ما بينَ المُحدِّثين، والمعتزلة[3]. وخلاف الفقهاء مع المحدثين. والمعتزلةِ مع الفقهاء، وانتقاد بعض المدارس لمنهج الزهد والتصوف؛ فقد أشارت بعض المصنفات أن بعض المحدِّثين هاجموهُ في منهجِ ردِّهِ على المعتزلةِ ولخوضهِ في عِلْمِ الكلام والجَّدَل[4].

(١) أستاذ السائرين، عبد الحليم محمود، دار البصائر، قاهرة،٢٠٠٥: ص٨.

(٢) طبقات الشافعية، السبكي، مصدر سابق: ج٢، ص٢٧٨. تاريخ الأدب العربي بروكلمان، مصدر سابق: ج٤، ص٨٥.

(٣) أستاذ السائرين، عبد الحليم محمود، مصدر سابق: ص٣.

(٤) الطبقات الكبرى، أحمد البصري الشعراني، مصدر سابق: ج١، ص١٣٩. الطبقات الصوفية، محمد السلمي، مصدر سابق: ص٢٢.

ثانياً: كان أسلوب تعاملِ الخليفةِ العباسي المتوكلِ لرجال الدّينِ بالتنكيل بهم على الأغلب، وحياة الترفِ التي كان يعيشها هو وأسلافه[1] الهدف الأسمى، ويبدو أن تقرب بعض العلماءِ للخليفةِ لنصرةِ مذهبِهِ في الحكم على حساب مفهوم الرسالة النبوية الشريفة، لمْ يَرُقْ للمحاسبي.

فخرجَ من بَغداد قاصداً الكوفة سنة مئتين واثنين وثلاثون هجرية[2] قاصداً العُزلة في طريقةِ الخَلْوَة فقد تركَ المُريدين، وتركَ الوعظ قاصداً الأُنسَ باللهِ، بَعد سنٍ تجاوزَ الخمسين، وهو كان اقتداءً اتّبعهُ أسلافُ علماءِ التصوّف مِنْ بَعدهِ في الخَلوات لرّبِ العباد[3].

وقد أنهى الخَلْوَة عندما رجع إلى بغداد لحضورِ جنازةِ الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١هـ) -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- والتي حضرها كبارُ العلماء[4]؛ فلمْ يتعرفْ عليهِ أحد من تلاميذِه ولا حتى المشايخ، ولا الذين في بغدادِ فالمدةُ كانت طويلة، وقد مرّتْ على بغداد أهوالٌ وأحوالٌ بغيابهِ؛ فكانَ الرحيلُ عَن بغداد للأُنسِ والخَلْوَة باللهِ وعادَ إليها لتأديةِ الواجبِ والصلاةِ على عَالمٍ جليل ويبدو أن هذه الآثار لمْ

(١) مروج الذهب، المسعودي، مصدر سابق: ج٤، ص٧٧. طبقات الفقهاء الشافعية، ابن صلاح، مصدر سابق: ج١، ص٤٣٨.

(٢) طبقات الشافعية، السبكي، مصدر سابق: ج٢، ص٢٧٦. طبقات الصوفية، السلمي، مصدر سابق: ص٢١.

(٣) التعرُّف لمذهب أهل التصوف – محمد البخاري، مصدر سابق: ص ١١٤. المُنقذ من الضلال، الغزالي، مصدر سابق ص٢٠.

(٤) مروج الذهب، المسعودي، مصدر سابق: ج٤، ص ٨٤. طبقات فقهاء الشافعية، ابن صلاح، مصدر سابق: ج١، ص ٤٣٩.

يتطرق لها لافي المراجع ولا في المصنَّفات عن سبب رحيلِ المُحَاسِبيّ من بغداد وسبب العودةِ إليها[1].

اتَّضح أنَّ المُحَاسِبيّ صاحب علْمٍ ومفهومٍ لعِلْمٍ تمَّ نسْجُهُ بعيداً عن المدارسِ الدينيةِ التقليديةِ وقالوا: ((إنَّ نهجَ اِتِّباع تقاليد المُحَاسِبيّ هي طريقةٌ للتطّهرِ الدائمِ ومجاهدةٌ للنفسِ ويجبُ الاقتداءُ بها، وقد تَمثّل هذا الفِكْرُ خيرَ تمثيلٍ عند بعضِ علماءِ التصوّفِ، ثَمْ جاءَ من بعدِهِم الأبدالِ))[2].

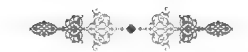
وتبرر المادة إن جاءَ تنكيلٌ بالعلماءِ، أو بالإمام المُحَاسِبيّ فهو داءٌ قديمٌ في البشرِ، يستظهرُ الإنسان برأي كبيرٍ مِنْ العلماءِ ليهدمَ عِلمَ آخر، ولكنْ شاء اللهُ تعالى إبطالَ حجةِ الهادم في مُجْمَلِ الأحداث التي ذُكرتْ فيما سبقَ بحججٍ بَائِنَةٍ، أجرتْ على قلمِهِ، ولسانِهِ، ولدليل خطئِهِ ولو بَعدَ حين، قال بعض العلماء: ((ولا يزالُ طالبُ العِلْم نبيلاً حتى يخوض فيما جرى بين الماضين وإياك ثم إياك أنْ تُصْغي إلى ما اُتُّفق، ولا يُقبل جَرحُ المُعَاصر على المعاصرِ، إذا كان بلا حُجَّة؛ لأنَّ المعاصَرَةَ تُفْضي غالبـًا إلى المُنافرةِ))[3].

---

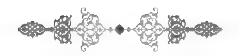
(١) طبقات الشافعية، السبكي، مصدر سابق: ج٢، ص٢٧٦.

(٢) الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف - آنا ماري، مصدر سابق: ص٧٠. أستاذ السائرين، عبد الحليم محمود مصدر سابق: ص٦، إحياء علوم الدين، أبي حامد الغزالي، مصدر سابق: ص٣٨. الموسوعة الصوفية - عبد المنعم الحنفي، دار الرشاد، القاهرة، ط١، ١٩٩٢: ص٣٠٥.

(٣) الرفع والتكميل في الجرح والتعديل، محمد عبد الحي الهندي (١٣٠٤هـ)، ت: الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، البشائر، بيروت، ط٤، ٢٠٠٤: ص٤١٤، ص٤٢٥.



صفةُ العبوديةِ أنْ لا ترى لنفسِك مُلكًا، وتعلمُ أنّكَ لا تملكُ لنفسكَ لا ضراً ولا نفعًا[1].



الْحَارِث بن أَسَد المُحَاسِبيّ

(1) طبقات الصوفية، السلمي، مصدر سابق: ص٢٢.

سيرته العلمية

إنَّ مسارَ نهجِ الوعظِ عند المُحَاسِبيّ في الأصول والتفسير، تؤكد خُطى آثاره في تلقِّي العلومِ من التفسير، والأحاديث، واللغةِ، وعِلْم الكلام؛ فنجدُه قد روى عن: هشيم بن الواسطي (١٨٣هـ)[١]. وقد اتَّبع نهجَه في عِلْمِ الفَقهِ عند العدّة، وتوبةِ الزاني، ومقاديرِ الزكاة، والصدقاتِ، وتمَّ تصنيف هذهِ المرحلة بالأولى مِنْ تلقي علومهُ[٢]. وأما عن سردِهِ الأحاديثِ والأثر؛فجاءَ المحاسبي ببعض الأحاديث عن عبد الله بن بكر السَّهمي (٢٠٨هـ) حديث ولغة العرب[٣]، وهاشم بن قاسم الليثي أبو النَضر (٢٠٧هـ) شيخ المحدثين[٤]. وبصيغة حدثنا، وهي تفيد بالروايةِ المباشرة في الأصول والأحاديثِ وتستند على أنَّها من أعلى مراتبِ الرواية في الأحاديثِ[٥].

ويبدو أنَّهُ روى عن هشيم الواسطي عندما تلقى العلم في واسطِ[٦]، وهي

(١) هشيم بن بشر: أبو معاوية هشيم بن بشير الواسطي الحافظ، أحد الأعلام، مات سنة ١٨٣هـ.. تاريخ دار السلام، الخطيب البغدادي، مصدر سابق: ج١٤، ص٩٠.

(٢) العقل وفهم القرآن، المُحَاسِبيّ، مصدر سابق: ص٧.

(٣) المصدر نفسه: ج٩، ص٤٥١.

(٤) المصدر نفسه: ج٩، ص٥٤٦.

(٥) المسائل في أعمال القلوب والجوارح، المحاسبي (٢٤٣هـ)، ت: محمد فوزي، المصدر سابق: ص١٨١.

(٦) واسط (الكوت)، وهي مدينة في العراق ما بين الكوفة والبصرة. معجم البلدان، الحموي، مصدر سابق: ج٥، ص٣٤٩.

المدينة الثانية بعد البصرةِ في تلقي عِلومِ المحاسبي،وهنالك علماء سَيُذكر تفاصيلهِم لاحقاً التقى بهم المحاسبي في بغداد بعد واسط والبصرة، يتضح أنَّ المُحَاسِبيّ بعد تجاوزه الثلاثين مِنْ عمره جاء إلى بغداد، وتدلُّ الآثار أنهُ جَالسَ الإمام الشافعي ما بين سنة ((١٩٥ - ١٩٧هـجرية))؛ فهو ممّن عاصَرهُ، ووعظ ببعض نهجَهُ في الفَقهِ والتفسير[١]، وقد روى أيضاً عن بعضِ علماءِ الشافعية في بغدادِ، وأشاد بمصنفاتهم ومنهُم:

مروان بن شجاع الجزري (١٨٤هـ)[٢] في العلومِ واللغة وكلمات في القرآن الكريم، وعبيد الله بن حصين (١٦٨هـ)[٣] في الفقه، عبد الله بن مبارك (١٨١هـ)[٤] في سَردِ الأحاديث النبوية الشريفة. إنَّ الاطلاعَ الواسعَ للمحاسبي على آراءِ العلماء جعلَهُ يَقفُ من جميع الآراءِ في عصرهِ موقفَ الناقدِ، مُعْبِر في وجوه مخالفيهِ لا يَقبلُ شيئاً إلا أنْ تظهَرَ حُجَّتُهُ[٥]، فَقدْ استطاعَ أنْ ينشئَ بِفِكْرهِ مَدرسةً في عِلمِ الكلام والجدَل عند المريدين وسطِ بيئة المحدِّثين والفقهاءِ.

---

(١) طبقات فقهاء الشافعية، ابن صلاح، مصدر سابق: ج١، ص٤٣٨. تاريخ التراث العربي، فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج٤، ص١١٤.

(٢) مروان بن شجاع: أبو عمر الجزري صاحب حديث وورع، نزل بغداد ودرَّس أولاد المهدي، مات سنة ١٨٤هـ. تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، مصدر سابق: ج٣، ص١٤٧.

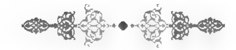
(٣) عبيد الله بن الحسن بن حصين العنبري بن عمرو بن تميم، ولِّي قضاء البصرة، وكان محموداً ثقةً عاقلاً من الرجال، كان فقيهاً، مات سنة ١٦٨ هـ. الأنساب، السمعاني، مصدر سابق: ج٤، ص٢٤٦.

(٤) سير أعلام النبلاء، الذهبي، مصدر سابق: ج٨، ص٣٧٩.

(٥) طبقات الشافعية، السبكي، مصدر سابق: ج٢، ص٢٧٥.



تَرَكُ الدنيا مع ذكرها صفة الزاهدين، وتركُهَا مع نسيانها صفة العارفين[1].



الْحَارِثُ بن أَسَد الْمُحَاسِبيّ

(١) الزهد الكبير، أحمد بن حسين البيهقي: ت: عامر أحمد، دار الجنان، لبنان، ١٩٨٧: ص١٤٩.

شُيُوخُهُ

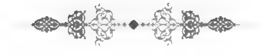
سفيان بن عُيَيْنة (١٩٦هـ)، عالِمُ تصنيف الأحاديث في المدينة المنورة[١]. وكِيعُ بن جرَّاح (١٩٧هـ) عالمُ أهل الحديث في العراق[٢]. رَوح بن عبادة (٢٠٥هـ) مِنْ كبار المحدِّثين في البصرةِ[٣]. يزيد بن هارون (٢٠٦هـ) مِنْ رواة الحديث وعلم التفسير[٤]. محمد بن كناسة (٢٠٧هـ) من رواة الحديث والأدب والشعر[٥]. هاشم بن قاسم الليثي أبو النَضر (٢٠٧هـ) شيخ المحدثين. مُطَرِّف بن عبد الله بن شخير(٢٠٧هـ)[٦]. عبد الله بن بكر السَّهمي (٢٠٨هـ) حديث ولغة العرب. محمد بن كثير الكوفي (٢١٦هـ) حديث ورواية[٧]. سليمان بن حَرب أبو أيوب البصري (٢٢٤هـ) عِلمُ الرجال وفقه وحديث[٨]. أبي عبيد القاسم سلام البغدادي (٢٢٤هـ)[٩]، سُنيد بن داوود (٢٢٦هـ)[١٠].

---

(١) المصدر نفسه: ج٨، ص٤٥٥.
(٢) المصدر نفسه: ج٩، ص١٤١.
(٣) المصدر نفسه: ج٩، ص٤٠٣.
(٤) المصدر نفسه: ج٩، ص٣٥٨.
(٥) المصدر نفسه: ج٩، ص ٥٠٩.
(٦) المصدر نفسه: ج٨، ص٤٤٥.
(٧) المصدر نفسه: ج١٠، ص٣٨١.
(٨) المصدر نفسه: ج١٠، ص٣٣١.
(٩) المصدر نفسه: ج١٠، ص٤٤١.
(١٠) المصدر نفسه: ج١٠، ص٦٢٨.

سُريح بن أبي يونس المروَزِي (٢٣٥هـ) رأس السُنَّة والحديث[١]. عبد الله بن سعيد البصري الكلابي (٢٣٨هـ) علمُ الجَّدل والنظرِ مِنْ المتكلمين السُنَّة[٢]. محمد بن بشار بن عثمان (٢٥٢هـ)[٣].

ويبدو مما سبق ذكره أنَّ التصنيفَ الذي جاءَت بهِ بعض المصادر، والمراجع كانت غيرَ دقيقةٍ في عدد شيوخٍ وتلاميذِ المُحَاسِبيّ؛ فقد وردت أن هناك أستاذ واحد فقط للمحاسبي وهو(يزيدُ بن هارون)[٤]، ويتضح أن المعلومةِ لا تطابق دلالةِ الأحاديث، والرواية، والتفسير للمُحاسبي في كتبهِ ولهذا السبب يتضح أنَّ تعاليمَ ونهج عِلْم المُحَاسِبيّ، وتلاميذهِ من بعدهِ لمْ يسلموا من الانتقاداتِ والتجريحِ في فكرهم ومنهجهم حتى بعد موتهِم[٥].



(١) المصدر نفسه: ج١١، ص١٤٦

(٢) المصدر نفسه: ج١١، ص١٧٤.

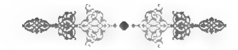
(٣) المصدر نفسه: ج١٢، ص١٤٥.

(٤) تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، المصدر سابق: ج٤، ص٥٨. طبقات الشافعية، السبكي، مصدر سابق: ج٢، ص٢٧٧.

(٥) تلبيس إبليس، عبد الرحمن الجوزي، مصدر سابق: ص ١٤٧، ص ١٥٨.



الشوقُ سراجُ نورٍ من نورِ المحبةِ، غير أنَّه يزيدُ عن نورِها[1].



الحَارِثُ بن أَسَد المُحَاسِبيّ

(١) الكواكب الدريَّة في طبقات الصوفية، زين الدين مناوي، مصدر سابق: ج٣، ص٥٨٧.

تَلامِيذُهُ

كان فكر المحاسبي أنموذجًا يُستخدم في عِلم الجدل والرَّدِ بالمسائلِ الكلامية، وبمفهوم إحساس القَلْبِ واستدلاله بالقرآنِ الكريم، والأحاديث الشريفة، ورواية في الآثار[1]، وقد حثَّ بعض تلاميذه في منهجِهِ باتِّباعِ طريقة إحساس القَلبِ في عِلْمِ الأصول والمعاملاتِ ومنهم:

محمد بن عبد الله ميمون (٢٦٢هـ)[2]. سَمنون بن حمزة المُحِب (٢٧٠هـ)[3]. إسماعيل بن إسحاق (٢٨٦هـ)[4]. أحمد بن قاسم بن نصر (٢٩٣هـ)[5]. أحمد محمد بن مَسرُوق (٢٩٨هـ)[6]. الجُنَيد البغدادي (٢٩٨هـ)[7]. أبو عبد الله بن إسماعيل المغربي (٢٩٩هـ)[8]. بِشر بن الحارث الحافي (٢٢٧هـ)[9]..

---

(١) العقل وفهم القرآن، المُحَاسِبيّ، مصدر سابق: ص٢٨٥.

(٢) سير أعلام النبلاء - الذهبي، مصدر سابق: ج١٢، ص٤٨٠.

(٣) الطبقات الكبرى - الشعراني، مصدر سابق: ج١، ص١٤٠.

(٤) سير أعلام النبلاء - الذهبي، مصدر سابق: ج١٣، ص٢٠.

(٥) تاريخ مدينة السلام، الخطيب البغدادي، مصدر سابق: ج٥، ص٥٧٦.

(٦) المصدر نفسه: ج٩، ص١٠٦.

(٧) طبقات الأولياء-ابن مُلقن، مصدر سابق: ج١، ص١٦١.

(٨) الرسالة القشيرية: - نور الدين القشيري، مصدر سابق: ص٩٤.

(٩) بشر بن الحارث الحافي أبو نصر جاءت التسمية؛ لأنه كان يمشي حافيًا، من أعلام التصوف كبير الشأن من أقران الجنيد البغدادي، وكان يصاحب الصوفية. مات في بغداد سنة٢٢٧هـ. المصدر نفسه: ص٥٤.

سِر السَّقطِي (٢٥٧هـ)[١]. محمد بن الورد (٢٦٢هـ)[٢]. أحمد حسن عبد الجبار الصوفي(٣٠٦هـ)[٣]. الحسين بن صالح بن خيران الفقيه (٣٢٠هـ)[٤]. محمد بن علي حكيم الترمذي (٣٢٠هـ)[٥]. أحمد بن حسن الأنصاري (٤١٢هـ)[٦]. محمد بن حمد هارون الزَنجَاني (٥٠٠هـ)[٧]. أبي حامد الغزالي (٥٠٥هـ)، سعيد بن حسن الأندلسي أبو مدين الغوث (٥٩٤هـ)[٨]. الفيلسوف رِينيه جينو (١٨٨٦م)[س].

---

(١) أبو الحسن سر السقطي خال الجنيد كان تلميذ المعروف الكرخي وصاحب الحارث المُحَاسِبيّ، مات ٢٥٨هـ.
المصدر نفسه: ص٥٢.

(٢) محمد بن أبي الورد وانتهت إليه مشيخة الصوفية في بغداد، حدَّث عن المُحَاسِبيّ مات سنة ٢٦٢هـ. الكواكب الدرية – المناوي، مصدر سابق: ج١، ص٦٩٦.

(٣) أحمد بن حسن بن عبد الجبار الصوفي، صاحب حديث، قد حدث عن المُحَاسِبيّ: وقال «قد شغل النبي شيء من أمر المشركين فلم يصل الظهر والعصر والمغرب والعشاء، فلما فرغ صلاهن الأول، الأول». وذلك قبل أن تنزل صلاة الخوف. تاريخ مدينة السلام بغداد – الخطيب البغدادي، مصدر سابق: ج٩، ص١٠٥.

(٤) سير أعلام النبلاء – الذهبي، مصدر سابق: ج ١٥، ص ٥٩.

(٥) تاريخ مدينة السلام بغداد – الخطيب البغدادي، مصدر سابق: ج١٣، ص٤٤٠.

(٦) أحمد بن محمد الهروي، الصوفي، الملقب بطاووس الفقراء. المصدر نفسه: ج١٧، ص٣٠٠.

(٧) محمد بن أحمد هارون كان فقيهـاً. روى للحارث المُحَاسِبيّ. مصدر نفسه: ج ١٩، ص ٢٣٧.

(٨) هو سعيد بن حسن الأندلسي شيخ مشايخ الصوفية في المغرب العربي، مات الأندلسي سنة (٥٢٤هـ). سيرة أبو مدين الغوث – عبد الحليم محمود، مصدر سابق: ص٥٢.



إنَّ العِلْمَ يورثُ المخافةَ، والزهد يورثُ الراحةَ، والمعرفةُ تورثُ الإنابةَ، وخيارُ هذه الأمةِ الذين لا تشغُلهم دنياهُم عن آخرتِهم، ومَنْ حَسُنتْ معاملتُه في ظاهرِهِ مع جُهْدِ باطِنِه ورّثهُ الله الهدايةَ إليهِ لقولهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].



الحَارِثُ بن أَسَد المُحَاسِبيّ

(١) حلية الأولياء – لأبي نعيم الأصفهاني، مصدر سابق: ج١٠، ص٨٨. طبقات الصوفية – السلمي، مصدر سابق: ص٢٣.

ثَناءُ أهل العلمِ عَلَيْهِ

اعتُبرَ مِنْ العلماءِ الأوائل الذين جمعوا الفقهَ، والكلامَ، واللغةَ، والتفسير بالوعظ في عِلْمِ القرآن الكريم.[1] وقد أشاد العلماءُ بعلمهِ في فقهِ الظاهر وفقهِ الباطن، وفي طرقِ التصوّفِ والمعاملاتِ[2]، وصُنِفَ أيضـاً من الأوائلِ في العقد الثالث في طبقاتِ الزّهدِ، حَسب إحصاءِ فَيمنْ توفي بعد المئتين إلى نهاية القرنِ الثَالث[3]، ولهُ الأثر في مناقبِ علَماء الصوفية حول أقوالهم وحكمهِم ونصائحِهم وإرشاداتهم الثمينة[4]، وكانَ لهُ أكثرُ من مئتين مُصنَّف لمْ يكشفْ إلا عَنْ القليلِ ومِنها ما قد تمْ تحقيقهُ.

قِيلَ للإمام أحمد بن حَنبل (٢٤١هـ)، إنَّ الحارث المُحَاسِبيّ يتكلّمُ في علومِ التصوّفِ ويحتجُ لها بالآية والحديثِ، فهلْ لكَ أنْ تَسمعَ كلامهُ من حيثُ لا يشعرُ؟ فحدّثَ إسماعيل بن إسحاق السَّرَّاج وقالَ لهُ: يبلُغني أنَّ الحارث

---

(١) التَّعرف لمذهب التصوف - محمد بن أسحاق البخاري، مصدر سابق: ص١٢. الكواكب الدرية في تراجم الصوفية- المناوي، مصدر سابق: ص٥٨٥.

(٢) شفاء السائل وتهذيب المسائل - ابن خلدون، ت: محمد مطيع، الفكر، بيروت، ١٩٩٦: ص٤٥. مرآة الجنان وعبرة اليقظان، اليافعي (٧٦٨هـ)، مصدر سابق: ج٢، ص١٠٦.

(٣) الكواكب الدرية في تراجم الصوفية - مناوي، مصدر سابق: ج١، ص٥٨٥

(٤) الطبقات الكبرى - أحمد الشعراني، مصدر سابق: ج١، ص١٣٨.

المُحَاسِبيّ (٢٤٣هـ)، يُكثرُ السكونَ عندكَ، فلو أحضَرتهُ مَنزلكَ وأجلَسْتنَي من حيثُ لا يَراني؛ فأسمع كلامَهُ؛ فقالَ إسماعيل: قصدتُ الحارثَ وسألتُهُ أنْ يحَضْرنا تلكَ الليلةِ وتَسْل أصحابَكَ أن يَحضُروا. فقالَ الحارثُ المُحَاسِبيّ لهُ: يا إسماعيل فيهم كثرةٌ فلا تَزِدْهُم على الكَسبِ والتَّمر، وانصرفتُ إلى الإمام أحمد بن حنبل؛ فأخبرتهُ؛ فَحضر، وصَعدَ إلى غُرْفةً في الدار فاجتهد في وِرْدِهِ.

وحَضَرَ الحارث وطلابُهُ؛ فأكلوا، ثمَّ قاموا لصلاةِ العتمةِ - الليلَ - وقَعَدوا بين يدي الحارث لا يَنطقون إلى قريبِ نُصف الليلِ، ثمَّ أبتدأ رجلٌ؛ فسألَ عن مسألةٍ؛ فأخذ الحارث في الكلامِ، وأصحابهُ يَستمعون؛ فَمِنْهُم من يبكي، ومِنْهُم مِنْ يحِنّ[1]، وهو في كلامهِ؛ فَصعْدتُ إلى الغُرفة لأتعرَّف حال الإمام أحمد؛ فوجدتُهُ قد بَكَى حتى غُشِيَ عليهِ؛ فانصرفتُ إليهم ولمْ تزلْ تلكَ حالهُم حتى أصبحوا فقاموا وتفرَّقوا، فصعدتُ إلى الإمام أحمد، وهو مُتغيّرٌ الحالِّ فقلتْ كيف رأيتهم؟

فقالَ: ما أعلم أنَّي رأيتُ مثلَ هؤلاءِ القومِ، ولا سمعتُ في عِلْمِ الحقائقِ مِثْلَ كلامِ هذا الرَّجل كُنْتُ أسمع خلافَ هذا، أستغفرُ الله العظيم[2]. واتَّضح فيما بعد قبولُ تعاليمَهِ مِنْ ضمن الشيوخِ الخمسة الذين تُقبلُ تعاليمهِم وتطبقُ

(١) يَحنّ: من حنَّ: نِزَاعُها بِصَوْت وَبِغير صَوت. وَالأَكْثَر أَن الحنين بالصوتِ. المحكم والمحيط الأعظم، علي المرسي، ت: عبد الحميد هنداوي، الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠: ج٢، ص٥٤٣.

(٢) الكواكب الدريَّة في تراجم الصوفية - مناوي، مصدر سابق: ج١، ص٥٨٨.

شرعـاً وأفعالاً، لأنَّه جمع بين العِلْمِ والحقائق[١].

وقد أظهرت تصانيف طَبقات العلماءِ منزلة الإمام المحاسبي من الطبقةِ الأولى في طبقاتِ الصوفيةِ من حيثُ الزهدِ، والورعِ، والمعاملاتِ، وحبِّ الله سبحانه[٢]؛ فجاءَ تصنيفه ولياً من الأولياءِ الصالحين من ورثةِ الأنبياءِ - صلواتِ الله عليهم - في الأقوالِ، والأفعال[٣].

إن العباراتِ اللغوية التي كان يستخدُمها المُحَاسِبيّ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- سواءً كانت في الروايةِ، أوفي عِلْمِ الكلامِ أو الفقهِ أو التفسيرِ إنها أصيلةٌ في الانتماء من حيث المعرفة اللغويَّة عند أهل الحديثِ والمتكلمين، وبيئة اللُّغويينِ، والفقهاءِ الذين أبْدَعوا في تفسير القرآن الكريم، وكانت عبارات المحاسبي في الكلامِ يُعطِّرُها بلذَّةِ الطاعةِ، والورعِ، والزُهدِ، وبمحاربةِ النفسِّ، فهو في الرَدِّ والمناظرةِ يُظهرها، ويُحللها، ويُعطي درجةَ غُرُورِهَا في القَلْبِ للمريدينَ، واتَّضح مِنْ البحثِ أنَّ المُحَاسِبيّ صاحبُ الفِكْر الأُوَلِ في مَعرفةِ النفسِّ وغَيِّها، لقولهِ: ((إنَّ ذكرَ اطلاعَ الله -عَزَّوَجَلَّ- في الضميرِ والجوارح يولِّدُ الحياء))[٤].

إن الأصول في البحث والمعرفةِ في منهج الإمام المُحَاسِبيّ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- لمْ تقفْ عنده بلْ جاءتْ بالتكميلِ عند الإمام أبي حامد الغزالي (٥٠٥هـ) من بعده في بحث التفصيلِ والشرحِ المُفصَّلِ لكلماتِ الوعظ ومحاربة النفسِّ، ويقال إن الإمام أبي حامد الغزالي اعتمد على مصنفاتٍ ورسائل عديدةٍ لفكرِ

---

(١) مصدر نفسه: ج١، ص٥٨٦.

(٢) طبقات الصوفية - للسلمي، مصدر سابق: ص٢١.

(٣) تذكرة الأولياء - فريد الدين العطار، مصدر سابق: ج١، ص٢٩٠.

(٤) المسائل في أعمال القلوب والجوارح - المُحَاسِبيّ، مصدر سابق: ص١٣٩.

المُحَاسِبيّ، فتمثّلتْ بعلْمهِ وعملهِ خير تمثيلٍ.

وجاء أسلوبُ الفكْرِ بالوعظ وكبح النفس أيضاً عند الفيلسوف (رينيه جيو) المسمى الشيخ عبد الواحد بن يحيى (١٨٨٦م)، في عبارات، وكلمات نابعة من تعبيرٍ صادقٍ لمصنفاتِ المُحَاسِبيّ للتخلُّص من آفاتِ النفسِّ؛ فقد اتخذ نهجَ الوعظِ لديه مجرىً آخر، فكان يُسرد بقصائدَ شعريةٍ وأصبحت مؤلفاتهِ ذات صدى كبير في نهاية القرن التاسع عشر[١] رغم أنه لمْ يصلْ إلينا منها إلا القليلُ عند قصائد أبي مَدْينَ الغوثِ، التي نظّمت كَلَمات الوعظ فيها على شكل قصائد شعرية تغنَّت بها الصوّفيةَ[٢].

ومن هذه القصائد:

الخَـوْفُ أولَـى بالمُسـيء إذا تألـه الحـزنُ
والحبُّ يحسنُ بالمُطيع وبالنَّقي من الـدَّرَن
والشوقُ للنجباءِ والأبدالِ وعند ذي الفِطن[٣].

---

(١) المصدر نفسه: ص٧.

(٢) يقول أبو مدين في شعره: (ما لذة العيش إلا بصحبة الفقراءُ). وكلمات وعظ المُحَاسِبيّ تقول: (من أراد التلذذ بصحبة أهل الجنة ونعيمها فليقتنع بصحبة أهل الفقر). وقصيدة الشعر أبو مدين الغوث: (قد طال شوقي للنبي محمد......هل لي إلى ذلك المقام وصول). تذكرة الأولياء – النيسابوري، مصدر سابق: ص٢٩٤. طبقات الأولياء – ابن ملقن، مصدر سابق: ج١، ص١٧٥. ديوان أبي مدين الغوث، سعيد بن حسن الأندلسي. ع: عبد القادر مسعود الفكر، بيروت، ٢٠١١: ص٤٠. أبو مدين الغوث – عبد الحليم محمود، مصدر سابق: ص٥٢.

(٣) تاريخ بغداد – الخطيب البغدادي، مصدر سابق: ج٩، ص١٠٦.

يـا عايـبَ الفقـرِ ألا تَزدَجِـر ... عيـبَ الغِنـى أكثـر لـو تَعتَـبر

تعصـي الإلـهَ لتنـال الغنـى ... ولا تطعـهُ لكـي تفتقـر[1]

ويجمعُ المالَ حرصاً لا يفارقُهُ ... وقـد علـمَ أنّـهُ للغيـرِ يجمَعـهُ

تراهُ يشـفقُ مـن درهـمٍ يضيعُ لهُ ... وليسَ يشـفقُ من زَري يُضيّعهُ[2]

وأمّا بيتُ الشّعرِ الذي كان قد تأثر بِهِ المُحَاسِبيّ، ويبكي فيه بحضور تلاميذه حتى يرحَمُهُ كل من كان قد حَضرَ درسَهُ، هو بيت للشعرِ لأحد مشايخ التصوف في بغداد يردِّده دائما[3]:

أنـا في الغُربـة أبكـي مـا بكـتْ عيـنُ غريـبٍ

لمْ أكن يومَ خُروجي من بلادي بمُصيبٍ[4].

بقي تأثير فكر المُحَاسِبيّ كبيراً في عصرهِ ومن بعدهِ، وتمَّ قبولُ تعاليمه، للبحثِ في الوعظِ والجدل باستقراءِ تأثير التَّضاد بين الرّوحِ والنّفسِ وبين تصديق القلوب وأعمال الجوارح، وقد وضع المقياس لهذا التَّضاد عند العمل الصالح، وأخرجَ المفهومَ الحقيقي للتصوّفِ مِنْ هذا العِلْم. فهو مؤسِّس

---

(١) مخطوطة النصائح – المُحَاسِبيّ، مصدر سابق: ص٥.

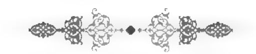
(٢) المصدر نفسه: ص١٠، ١١.

(٣) إن صاحب هذه الأبيات هو الصوفي سمنون بن حمزة المُحب (٢٧٠) هـ، والمادة تدل أنه كان في حلقةٍ لتلقي العِلم
عند الشيخ المُحَاسِبيّ، الذي ألقى عليه الشعر فبكى. الرسالة القشيرية- زين الدين القشيري، مصدر سابق: ص٨٩.

(٤) تذكرة الأولياء – فريد الدين العطار، مصدر سابق: ج١، ص٢٩٠.

المدرسةِ الصوفية التي تكشفُ العِلَلَ في عيوب النفس، وثم عِلاجها بالتلازمِ في طريق الخَلْوَة.

كانت منزلةُ الإمام المُحَاسِبيّ لا تقتصرُ على أنَّهُ كان جامعاً للعِلمِ عاملاً بِهِ، بَل صاحبُ فِكْرٍ لمدرسةٍ تصفُ بالتحليلِ والكشفِ عن عللِ الأمةِ الإسلامية في عصرَهِ، وكلِّ العصورِ من بعدهِ.[1] فقد تكشّفتْ لهُ الحُجُبُ، واستنارَ فيهِ فِكْرُ التصّوفِ والوعظِ، وَشرحَ آفاتِ النفسِّ البشرية وداءَ القلوبِ فيها[2]، وقد دافَع بجدارةٍ بنهجِ الإسلام عن فطرةِ الإسلام التي أوصى بها رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[3].



(١) تذكرة الأولياء – فريد الدين العطار، مصدر سابق: ص٢٩٠.

(٢) الرسالة القشيرية. زين الدين القشيري، مصدر سابق: ص٥٧.

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء – لأبي نعيم الأصفهاني، مصدر سابق: ج١٠، ص٧٤. البرهان في القرآن – بدر الدين الزركشي (٧٤٩هـ)، ت: محمد إبراهيم، دار التراث، بيروت، ٢٠٠٨: ج١، ص٢٣٨.



فقدنا ثلاثةَ أشياءٍ: حُسنَ الوَجهِ مع الصِّيانةِ، وحُسن القولِ مع الدِّيانةِ، وحُسنَ الإخَاء مع الأمانَةِ[1].



الْحَارِثُ بْنِ أَسَد المُحَاسِبيّ

(١) الكواكب الدرية للطبقات الصوفية - زين الدين مناوي، مصدر سابق: ج٣، ٥٨٧ص.



ما قيل عنهُ في عِلْمِهِ وورعه

- قال جنيد البغدادي (٢٩٨هـ): تَفقْهتُ على أصحاب مذهبِ الحديثِ، صَحبتُ الحارث المُحَاسِبيّ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- وذلكَ كانَ سبب فلاحي إذْ عَلَّمَنَا هذا مضبوطاً بالكتابِ والسُنَّة(١).
- قال عبد الرحمن السلمي (٣٢٥هـ): المحاسبي عالمُ مشايخ القومِ بعلْمِ الظاهرِ وعلوم المعاملات والإشارات، أستاذُ أكثر البغداديين(٢).
- محمد بن إسحاق البخاري (٣٨٩هـ): المُحَاسِبيّ صَنّفَ بالمعاملاتِ، وَجمعَ الفقه والكلامَ، واللغة، وعلمَ القرآن(٣).
- قال الخطيب البغدادي (٣٩٢هـ): هو أحد من اجتمع لهُ الزّهد والمعرفةِ بعلْمِ الظَّاهر والباطنِ(٤).
- قال أبو نعيم الأصفهاني (٤٣٠هـ): المحاسبي كان لألوانِ الحَقِّ مشاهداً ومراقباً، ولآثار النَّبِيِّ -صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مساعداً ومصاحباً.، وفي عِلمِ الأصول راسخاً وراجحاً وللمريدين قابلاً ناصحاً(٥).

---

(١) طبقات الشافعية - السبكي، مصدر سابق: ج٢، ص٢٧٤.
(٢) طبقات الصوفية - محمد السلمي، مصدر سابق: ص٢١.
(٣) التعرف لمذهب أهل التصوف - محمد بن إسحاق البخاري، مصدر سابق: ص١٢
(٤) تاريخ مدينة السلام - الخطيب البغدادي، مصدر سابق: ج٨، ص٢١٤
(٥) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - لأبي نعيم الأصفهاني، مصدر سابق: ج١٠، ص٧٤.

- قال عبد الكريم القشيري (٤٦٥هـ): المحاسبي عديمُ النظير في زمانهِ علماً وورعاً، معاملةً وحالاً[١].

- قال الإمام الغزالي (٥٠٥هـ): المحاسبي خيرُ الأمةِ في عِلْمِ المعاملةِ، ولهُ السبقُ على جميعِ الباحثين عن عيوبِ النفسِّ، وآفات الأعمال، وأغوَارِ العباداتِ، وكلامه جدير بأن يُحكى[٢].

- قال فريد الدين العطار(٥٤٠هـ): المحاسبي عالمٌ من علماءِ الطريقةِ، مَرجعُ أولياءِ زمانهِ في المعاملاتِ والإشارات، وكان العلماءُ في عصرهِ يرجعون إليهِ في كلِّ فَنٍ مختصٍ بالتجريدِ، والتوحيدِ والمُجاهَدةِ، والمشاهدةِ[٣].

- قال ابن خير الشبلي (٥٧٥هـ): كان المُحَاسِبيّ من الزّهادِ المتكلمين عن العبادةِ، والزُهد في الدُّنيا، والمواعظِ، كانَ فَقيهاً مُتكلِّماً وعرفَ مذاهبَ النسَّاكِ[٤].

- قال تقي الدين ابن صلاح (٦٤٣هـ): المحاسبي هو إمامٌ في التصوّف وفي الفقهِ، والحديثِ والكلامِ[٥].

---

(١) الرسالة القشيرية – أبي قاسم القشيري، مصدر سابق: ج١، ص٥٧

(٢) إحياء علوم الدين – أبي حامد الغزالي، مصدر سابق: ص٥٨.

(٣) تذكرة الأولياء – فريد الدين العطار، مصدر سابق: ص٢٢٥.

(٤) الفهرست، محمد بن خير الإشبيلي، ت: بشار عواد وآخرون، الغرب الإسلامي، تونس،٢٠٠٩: ص٢٦١.

(٥) طبقات فقهاء الشافعية – ابن صلاح، مصدر سابق: ج١، ص٤٣٩

- قال عبد الله بن أسعد اليافعي (٧٦٨هـ): إمام الطريقةِ المحاسبي، ولسانُ الحقيقة العارفُ معدنَ الأسرارِ، والحكمِ اجتمعَ لهُ عِلمُ الظاهرِ والباطن، لهُ تصانيفٌ في السلوكِ والمواعظِ والأصولِ[1].

- قال ابن خلدون الأشبيلي (٨٠٨هـ):جمعَ المحاسبي فقهَ الباطنِ وفقهَ الظاهرِ، وعِلمَ الوْرعِ، وعملَ القلْوب[2].

- قال عبد الوهاب الشعراني (٩٧٣هـ): كان المحاسبي من علماءِ القومِ بعلومِ الظاهرِ، وعلوم الأصولِ، وعلوم المعاملاتِ، عديمُ النَظر في زمانهِ[3].

- قال زين الدين المناوي (١٠٣١هـ): الحارث المحاسبي عَلَمٌ وأستاذٌ صوفيٌ، برعَ في عِدةِ فنونٍ، واعظٌ وإمامُ المسلمين في الفِقهِ والتصوّفِ والكلامِ. أحيا القلوبَ بوعظهِ وشَفتْ الأسماع بِدُرِّ لَفْظِهِ[4].

- قال ابن عماد الحنبلي (١٠٣٢هـ): كان المحاسبي الزَّاهدُ الناطقُ بالحكمةِ[5].

- قالَ الإمام المُحَاسِبيّ: ((إنَّ العلمَ يورِثُ المخافةَ، والزهد يورثُ الراحةَ،

---

(١) مرآة الجنان وعبرة اليقظان – عبد الله اليافعي، مصدر سابق: ج٢، ص٦١.

(٢) شفاء السائل في تهذيب المسائل – ابن خلدون، مصدر سابق: ص٣٥.

(٣) الطبقات الكبرى – للشعراني، مصدر سابق: ج١، ص١٣٩

(٤) الكواكب الدُّرّيةِ في طبقات الصوفية – المناوي، مصدر سابق: ج٢، ص٥٨٥.

(٥) شذرات الذهب – لابن العماد، مصدر سابق: ج٣، ص١٩٧.

والمعرفة تورثُ الإنابةَ. وخيارُ هذه الأمةِ الذين لا تشغُـلهم دنياهُم عن آخرتِهم، ومَنْ حَسُنتْ معاملتُه في ظاهرهِ مع جُهْـدِ باطِنِه ورّثهُ الله الهداية إليهِ،لقولهِ(جَلَّجَلَالُهُ) ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[1]))[2]. وكان المحاسبي - رَحِمَهُٱللَّهُ - يستندُ على تأويلِ النّص في ضَوءِ مَفْهومِ المُريدين، وعندَ ضوءِ فِكْرةِ القَلْبِ الذي يزيدُه بالعِلمَ وقوةِ الإيمانِ، والصَبْرِ؛ فعنْدَ القَلْبِ قد تتجاوز تصوراتِ العْقلِ؛ فلذلكَ استطاعَ أنْ يحافظَ على فِكْرِ الجَدَلِ بالعقلِ، ومُحَاربةِ النفسِ بالصبرِ.

سُئِلَ المُحَاسِبيّ مِنْ أحدِ تلاميذه: ماهي محبةّ الله للعبدِ؟

قالَ المحاسبي: ما الذي كَشَف لكَ عن طلبِ هذا العلِم؟

فقالَ المريدُ، لقَولهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[3]؛ فعلمتُ أنَّ علاقةَ مَحْبةِ العبد للهِ اتباعُ رسول اللهِ - صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ -، ثمَّ قالَ سبحانهُ: ﴿يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾.

أجابَهُ المُحَاسِبيّ: سألتَ عن شيءٍ غابَ عَنْ أكثرِ القلوبِ، إنَّ علامة مَحْبةِ الله للعبدِ، أنْ يتولى اللهُ سياسةِ همومهِ؛ فيكون في جميعِ أمورهِ هو المختار لها؛ فأخلاقهُ على السماحةِ، وجوارحهُ على الموافقةِ.

---

(١) العنكبوت: ٦٩، الآية.

(٢) حلية الأولياء - لأبي نعيم الأصفهاني، مصدر سابق: ج١٠، ص٨٨. طبقات الصوفية - للسلمي، مصدر سابق: ص٢٣.

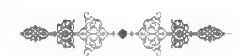
(٣) آل عمران: ٣١، الآية.

فقالَ المريدُ: وما الدليلُ على ذلك؟

قالَ المُحَاسِبيّ: خَبر النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إذا أحبَّ الله عبداً جَعَلَ لهُ واعظًا من نفسهِ وزاجراً من قلبهِ يأمره وينهاه»[1].

فقالَ المريد: زِدْني من علاماتِ المحّبةِ للعبدِ.

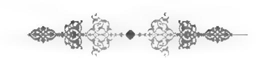
قالَ المُحَاسِبيّ: أحبُّ شيءٍ إلى الله أداءُ الفرائضِ بمسارعةٍ من القلبِ والجوارحِ، والمحافظة عليها ثُـمَّ من بَعدِها كثرة النَّوافل[2]. وهذا الأمرُ اِستندَ عليهِ أسلافُ العلماءِ في عِلمِ الكلام، والزُّهد، وعلم المعاملات، وعلم الظَّاهر وعلم الأصول، وكان هذا سبب تطوّرِ عِلمهم وعَملهم، وسبب الفَلاح لديهم[3].



(١) الزهد الكبير- أحمد البيهقي، مصدر سابق: ص٣٠٧. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - لأبي نعيم الأصفهاني مصدر سابق: ج١٠، ص٩٩.

(٢) المصدر نفسه: ج١٠، ص٩٩.

(٣) الطبقات الكبرى - أحمد الشعراني، مصدر سابق: ج١، ص١٣٨. علم الكلام والمجتمع - جوزف فان أس، تر: سالمة صلاح، الجمل، بيروت،١٩٩٠: ج١، ص٤٠.



من أراد أن يذوق لذَّةَ طعم معاشرة أهل الجنة، فليَصحب الفقراء الصادقين[1].



الْحَارِثُ بن أَسَد المُحَاسِبيّ

(١) طبقات الأولياء - ابن مُلقن، مصدر سابق: ج١ ص١٧٥.

وَفَاتُهُ

اجتمع الإمام المُحَاسِبيّ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- بالعلماءِ وتلاميذه من المريدين بعد غيابٍ طويلٍ عنهم، ولمْ يَطول اللقاء بهم؛ فقبلَ موتهِ بمدةٍ قصيرةٍ، قال لهُم: عندما يأتني الموت إنّ رأيت ما أحبُّ تبسمتُ إليكم وإنّ رأيتُ غيرَ ذلك تَنسَّمتم[1] ذلك في وجهي[2]؛ فقال أبي ثور[3]عن هذا الأمرِ: ((حضرتُ وفاةَ المُحَاسِبيّ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- فتبسَّم ثمَّ ماتَ، وقولهِ تَنسَّمتم في وجهي بفتح التاء المثناة منْ فوق، بعدها نون وسين ضبطناه لكيلا يتَصَحَّفَ[4]))[5] .

:: توفي المُحَاسِبيّ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- سنة مئتين وثلاثة وأربعين هجرية[6]::،

---

(١) تَنسَّم: هبوبُ الرّيح وجَد لَهَا خَفّاً التي تجيء منها بِنَفَسٍ ضعيفٍ. تهذيب اللغة – محمد الهروي، مصدر سابق: ج١٣، ص١٥.

(٢) طبقات الشافعية – السبكي، مصدر سابق: ج٢، ص٢٧٨.

(٣) أبي ثور: هو إبراهيم بن خالد، الإمام الحافظ الحجة المجتهد، مفتي العراق أبو ثور، الكلبي البغدادي الفقيه، ويكنى أيضاً أبا عبد الله وسمع من: سفيان بن عيينة، وعبيدة بن حميد، ويزيد بن هارون، ثقة مأمون، أحد الفقهاء مات سنة ٢٤٣هـ. سيرة أعلام النبلاء – الذهبي، مصدر سابق: ج١٢، ص٧٤.

(٤) والتَّصْحِيفُ: الخَطَأُ في الصَّحيفةِ. القاموس المحيط، مجد الدين آبادي، الرسالة، بيروت، ٢٠٠٥: ١، ص٨٢٦.

(٥) أستاذ السائرين – عبد الحليم محمود، مصدر سابق: ص٣٢٣.

(٦) وردت وفاة المُحَاسِبيّ في بعض المخطوطات (٢٤٢) هـ مخطوطة النصائح – =

ودُفِنَ في مقبرةِ الكرخِ ببغداد وصلَّى عليهِ أربعةٌ من تلاميذهِ[1]، وكانَ زاهداً حتى في الموتِ اكتفى بأربعةِ علماءٍ من التصوّف على حشودِ النّاس[2]، ليفارقَ الخلقَ إلى الخالق، ويلقى ربَّ النّاسِ بَعدَ أَن أستوحش مِنْ النَّاس لقد عاشَ المُحَاسِبيّ تسعُ وسبعون عام، وتبيَّنَ أَنَّ وصيتهِ قد جاءت لإثبات استحسان عِلْمهِ وَعملِه من الله عَزَّوَجَلَّ، وليمهد طريق العِلْم للمريدين من بعده؛ فقد كان حريصاً بتلقي إشاراتِ قبولِ نهجِهِ من ربِّ العالمين في نقطة اللقاءِ بين العاشق والمعشوق، وجاءت كلمة تَنسَّمتم ذلك في وجهي؛ لكونها بشرى، وتصديقاً لنَهجهِ الذي سار عليه بالاستحسان والإيمان.

يبدو أنّ المحاسبي حثَّ المريدين بالسعي الدائمِ لمقامِ ذكرِ الموتِ كعارفين لا مستأنفين، لكونهِ قد شددَّ القولَ في مقامِ ذِكرِ الموت، لقولهِ: ((**المُستأنفُ**: هو المبتدئُ الذي يغلبُ على قلبهِ ذِكْرٌ فيترك الزَّلَلَ مخافةَ العقابِ؛ فكلَّما هاجَ ذِكرُ الموتِ من قلبهِ ماتتْ الشهواتُ عَندهُ.

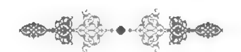
= المُحَاسِبيّ: ص١، ولكن الأغلبية كانت تشير إلى (٢٤٣) هـ.

موسوعة الخلفاء المسلمين، زهير الكبى، مصدر سابق: ج٢، ص٥٥. طبقات الشافعية – السبكي، مصدر سابق: ج٢، ص٢٧٨. الرسالة القشيرية – عبد الكريم القشيري، مصدر سابق: ص٥٩ .سيرة أعلام النبلاء – الذهبي، مصدر سابق: ج١٢، ص١١٠.

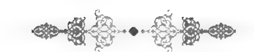
(١) تاريخ مدينة السلام – الخطيب البغدادي، مصدر سابق: ج١، ص٤٤٤. أنباء أبناء الزمان – ابن خلكان، مصدر سابق:٦١.

(٢) الكامل في التاريخ – علي الجزري ابن الأثير، مصدر سابق: ج٦، ص ١٢٨. طبقات الشافعية – السبكي، مصدر سابق: ج٢، ص٢٧٣.

وأمَّا **العارفُ**: فذِكْرُه للموتِ محَبةً لهُ اخَتياراً على الحياةِ، وتَبرُّماً بالدنيا التي قد سَلَا قلبهُ عنها شوقاً إلى اللهِ ولقائهِ، رجاءَ أملِ النَظر إلى وجههِ والنزولِ في جوارهِ، لِمَا غلبَ على قلبهِ مِنْ حُسْنِ الظنِّ بربِّهِ)) [1].



(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - لأبي نعيم، مصدر سابق: ج١٠، ص٩١.



مكثتُ ثلاثينَ سنةً لا يسمعُ لساني إلَّا من سِّري، ثمَ ثلاثين لا يسمعُ سريَّ إلاَّ من ربي[1].



الحَارِثُ بن أَسَد المُحَاسِبيّ

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - لأبي نعيم الأصفهاني، مصدر سابق: ج١٠، ص٩١.



أحاديثُ ومواعظُ الإمام المُحَاسِبيّ

- حسنُ الخُلقِ: احتمالُ الأذى، وقِلةُ الغَضْبِ، وَبسْطُ الرَحمةِ، وطيبُ الكلامِ[1].
- خيرُ الرزقِ ما يكفي، هو قوتُ يوم بيومٍ، ولا تهتمَّ لرزقِ غداً[2].
- الشوقُ سراجُ نورٍ من نورِ المحبَّةِ، غير أنَّه يزيدُ عن نورِها[3].
- الكونُ توهمٌ في الحقيقةِ، ولا تَصُحُ العبارةُ عمّا لا حقيقة لهُ[4].
- تفاوتُ الناس في الزُهّدِ على قَدْرِ صِحَةِ العقولِ، وَطهَارةِ القلوبِ، فأفضلهم أعقلهم[5].
- الظالمُ نادمٌ وإنْ مَدحهُ النّاسُ، والمظلومُ سالمٌ وإنْ ذمَّهُ النّاسُ، والقانعُ غنيٌ وإنْ جَاعَ ومَنْ لمْ يشكرُ الله تعالى على النعمةِ؛ فقد استدعى زَوَالها[6].
- صفةُ العبوديةِ أنْ لا ترى لنفسِك مُلكـاً، وتعلمُ أنّكَ لا تملكُ لنفسكَ لا ضراً ولا نفعـاً[7].

---

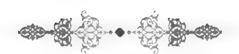
(١) طبقات الشافعية - السبكي، مصدر سابق: ج٢، ص٢٨٤.
(٢) الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية - المناوي، مصدر سابق: ج١، ص٥٨٥.
(٣) المصدر نفسه: ج١، ص٥٨٧.
(٤) التعرف لمظهرِ أهل التصوف - محمد بن أسحاق، مصدر سابق: ص١١٤.
(٥) الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، المناوي، مصدر سابق: ج١، ص٥٨٨.
(٦) طبقات الشافعية الكبرى - السبكي، مصدر سابق: ج٢، ص٢٨٣.
(٧) طبقات الصوفية - محمد السلمي، مصدر سابق: ص٢٢.

- التسليمُ هو الثبوتُ عند نزولِ البلاءِ، مِنْ غيرِ تَغيُّرٍ منهُ في الظَّاهر والباطن[1].
- مَنْ أرادَ أنْ يذوقَ لذّةَ طعم معاشرةِ أهل الجنّة؛ فليصحبْ الفقراءَ الصادقين[2].
- وَمنْ استغنى بشيء دون الله جَهِل، فكيفَ يُجيبُ دُعاءه[3].
- أصلُ الطاعةِ الوَرَعُ، وأصلُ الوَرَعِ التَّقوى، وأصلُ التَّقوى مُحاسبةُ النفّسِ، وأصلُ محاسَبتِها الخوفُ والرَّجاءُ، وأصلُهما معرفةُ الوَعدِ والوعيدِ، وأصلُ معرفةِ الوَعدِ والوعيد داءٌ عظيمُ الجزاءِ، وأصلُ ذلكَ الفكرَةُ والعبرَةُ[4].
- وقال: أصدق بيتٍ قالتهُ العربِ قول حسان بن ثابت الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

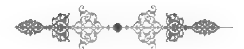
وما حَملتْ من ناقةٍ فوقَ كُورِها
أعزّ وأوفى ذمَّة من محمدِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)[5]



(١) المصدر نفسه: ص٢٢.
(٢) طبقات الأولياء – ابن ملقن، مصدر سابق: ج١ ص١٧٥ .تذكرة الأولياء – العطار، مصدر سابق: ٢٤٩.
(٣) طبقات الشافعية الكبرى – السبكي، مصدر سابق: ج٢، ص٢٨٣.
(٤) الإصابة في تميز الصحابةِ – أحمد بن علي بن حجر (٨٥٢هـ)، ت: عادل معوض، دار الكتب، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ:ج٧،ص١١. طبقات الصوفية – السلمي، مصدر سابق: ص٢٢.
(٥) طبقات الشافعية الكبرى – السبكي، مصدر سابق: ج٢، ص٢٨٣.



التَّصوَّفُ الأخذُ بالأصولِ، وتركُ الفضولِ، واختيارُ ما اختارهُ الرَّسولُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [1].



الحَارِثُ بن أَسَد المُحَاسِبيّ

(١) الكواكب الدرية في طبقات الصوفية- المناوي، مصدر سابق: ج١، ص٥٨٥. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء – لأبي نعيم الأصفهاني، مصدر سابق: ج١٠، ص٧٤.

مُصَنَّفَاتُهُ

بَلَغْت عدد مخطوطاتِ الإمام المُحَاسِبيّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مئتا مصنفٍ حسبَ ما ورَدَ في المصادرِ ويبدو أَنَّ ما حُقِقَ مِنْها شَملَ الجزء البسيط الذي وُجدَ في المكتبات: الألمانية، التركية، والمصرية والهندية، والبريطانية[1]، واتضح أنَّ المخطوطاتِ والرسائل بَقِيَتْ قرونـًا حبيسةَ خزائنِ المكتبات والبعض منها كانت محفوظة في الصدورِ المُخلصةِ.

كان المستشرقون أصحاب المبادرة الأولى في نشر المخطوطات، ويتضح أنَّ جميعَ الموسوعاتِ والدراساتِ التي نُقلت من المخطوطات في مناهج التصّوفِ، وعِلْم النفس وأحوالها قد تمت ترجمتها إلى الإنكليزيةِ للانتفاع منها، وبعدها تُرجِمتْ إلى لُغَاتٍ أخرى، وكانتْ أغلب الكتب المترجمة عبارةً عن شَرْحٍ وتَوْسُّعٍ وَسْردٍ لرسائلِ وَوعظ، وتفسير لكلامِ الإمام المُحَاسِبيّ[2].

---

(١) تاريخ الأدب العربي - كارل بروكلمان، مصدر سابق: ج٤، ص٥٧. التاريخ التراث العربي - فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج٤ ص١١٣.كشف الظنون، حاج خليفة جلبي، مصدر سابق: ج٢، ص١٤٩٠. الفهرست المخطوطات العربية - الشنطي، مصدر سابق: ص١٤٣.

(٢) مخطوطة الرعاية لحقوق الله - الحارث المُحَاسِبيّ: رقم المخطوطة: ١٥٣٤، الجامع الكبير، بورصة، ص١. الرعاية لحقوق الله المُحَاسِبيّ، مصدر سابق: ص٢٥.

واتضح أيضـاً أنَّ جميعَ ما حُقّقَ بالعربيةِ في نهاية القرنِ التاسع عشر كان عبارة عن نَسْخٍ وترجمةٍ لكُتبِ المستشرقين في الأصلِ، مع تغيرَاتٍ طفيفةٍ للمقدّمات إن وجدت، أو تفاوت بسيط في سيرةِ حياة المُصنف، وتأتي آراء للناسخِ أو المُحَقق حَسْبَ مُتطلبات النشر أو حسب النهجِ الفكري والديني والسياسي في عصرِ المؤلف أو المُحقِّق، وهذهِ الآراءُ كانتْ تُكتبُ إمّا داخل النصوصِ أو الفصولِ[1].

وربما تأتي في بعضِ الكتب المحققةِ بتغّير جذري في الأسماء، والأبواب، والمسائلِ، مِنْ المُحققّ وَقد تكون بسببِ أن النُسخةِ غير واضحة أو عدم مقابلتها بنسخٍ أخرى للخروجِ بالمفهومِ الصحيح للكلمات والمتن، ويَتبيَّنُ ذلكَ في بعضِ الكتبِ المُحقَّقة بالعربية[2]، وللأسباب التي تمَّ ذكرها فيما سبق واتَّضح أن تَقسيم الكتبِ المُحقَقةِ كانت بينَ المستشرقينِ والعربِ بالتساوي؛ فقد جاء التصنيفُ للمصنَّفاتِ كما يلي:



(١) المكاسب والورع، المُحَاسِبيّ، ت: سعد كريم الفقهي، دار ابن خلدون، الإسكندرية، د.ت: ص٤٠. الخَلْوَة والتبتل في العبادة المُحَاسِبيّ، مصدر سابق: ص٢٩.

(٢) الإنابة إلى الله – المُحَاسِبيّ، ت: مجدي فتحي السيد، دار السلام، القاهرة، ط١، ١٩٩١: ص١٦. الوصايا – المُحَاسِبيّ، مصدر سابق: ص٣٢٩.

المصنفاتُ المُحقَّقةُ من المستشرقين

كتاب الإنَابَة إلى الله.

قام بالتحقيق لأول مرة المستشرق الفرنسي ريتير، (Halmon Ritter، French orientalist)، سنة (١٩٣٥م)[1]، ولمْ يشر إلى منهجِ الكتاب في التحقيق، وحُقِّق من بعده أيضاً باللّغةِ العربيةِ وجاء بعنوانِ: (العودةُ والإنَابة إلى الله) سنة (١٩٧٧م)[2]، وطُبعَ مَرةً أُخرى سنة (١٩٨٦م) ضمنَ مجموعة كتب أخرى تحت عنوان (الوصايا)، وقد أشار المحقِّق إلى منهجِ تَحقيقِ الوصايا، وذَكَر أنّ المخطوطة كانت بمكتبةِ الجزَّارِ بعكا، وكانت من ضمن كتبٍ أخرى للمحُاسِبي[3].

حُقِّقت للمرةِ الرابعة (١٩٩١م)، وذُكِر فيها منهجَ التحقيقِ، وكانتْ نسخة المخطوطةِ المُعتمدةِ مِنْ مكتبةِ السليمانية[4]، والمخطوطة عبارة عن مجموعةٍ من الرسائلِ أَلْقَاهَا المُحَاسِبيّ على أبي جعفر محمد بن موسى الرضا (٢٠٣هـ)، وتتحدث المخطوطة عن بيانِ البلوى، والاختبار.

---

(١) تاريخ التراث العربي، فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج٤، ص١١٦. الفهرست – ابن الخير الإشبيلي، مصدر سابق: ج٢، ص ٣٣٧. فهرست المخطوطات – الشطي، مصدر سابق: ص١٧٦.

(٢) الوصايا – المُحَاسِبيّ، مصدر سابق: ص٣٢٩.

(٣) المصدر نفسهُ: ص٣٣٠.

(٤) الإنابة إلى الله – المُحَاسِبيّ، مصدر سابق: ص١٦.

واتضح مّما سَبقَ ذكره أنَّ التحقيقَ المتَّبعَ للمخطوطةِ للمرة الرابعة جاءَ بمنهجِ تغير أسماء الأبواب وتقطيع المسائلِ، وهذا نهجُ أغلبِ الكتبِ المحقّقةِ عند العربِ للمحاسبيّ[1].

كتاب التَّوهم.

تمَ تحقيق المخطوطة من المستشرقِ: آربَري (London: A.J. Arberry) orientalist، عام (١٩٣٧م) وتُرجمَ إلى العربية في نفسِ العام، ولمْ يذكْر في النسخةِ المُترجمة على أيِّ مخطوطةٍ تمَّ الاعتمادِ وأثنى على النسخة المحققةِ أحمد أمين الأديب المصري[2]، وحُقِّقتْ أيضـًا سنة (١٩٨٦م)[3]، وأُعيد نسخُ الكتابِ مرةً أُخرى سنة (١٩٩١م)، وتمتْ الإشارة إلى نسخة المُستشرق البريطاني المشار إليهِ فيما سبقَ من المحقق[4]، وأخيراً تُرجمَ إلى التركيةِ بتسميةِ ((اِفترض أَنَّك مَيّت، عام (٢٠٠٦م)[5].

كتاب الخَلْوَة والتَّنقُل في العبادةِ ودرجات العابدين.

عُرضَتْ المخطوطةِ على شَكلِ مواضيع في عِلْمِ الكلام والعبادةِ للمستشرقين، وحقّقهُ الراهبُ أغناطيوس عَبدة عام (١٩٥٢)، ولا توجد سوى

---

(١) الإنابة إلى الله المُحَاسِبيّ، مصدر سابق: ١٩ص.

(٢) التوهم، المُحَاسِبيّ، مصدر سابق: ص٨.

(٣) الوصايا – للمحاسبي، مصدر سابق: ص ٣٨٥.

(٤) آداب النفوس، المُحَاسِبيّ، ت: عبد القادر أحمد عطا، مؤسسة الكتب، بيروت، ط٢، ١٩٩١: ص١٤٩.

(٥) افترض أنك ميت، عبد العزيز الخطيب، المطبعة التركية، إسطنبول، ٢٠٠٦.

نسخةٍ واحدةٍ تمْ الاعتماد عليها في التحقيق، والمنهج كان على شكل مواضيع تمْ نشرها في مجلة الشرق في بيروت[1]، وفيها كلمات كثيرة محذوفة.

كتاب الصّبر والرّضا.

حقق المخطوطةِ المستشرق الألماني (German Orientalist: Josef Vin As)، عام (١٩٣٤م) وذَكْرَ في المنهج تفاصيل التحقيقُ، كانت النسخةِ من المكتبةِ الهندية[2]. ورَدَ اسم مخطوطة الصبرِ والرّضا من المصنف في مخطوطة المسائل في أعمال القلوب والجوارح[3].

كتاب الرعاية لحقوق الله عَزَّوَجَلَّ.

كان أول تحقيقٍ للمخطوطة عام (١٩٣٦م) (London orientalist:) Margaret Smith اعتمدَ المحققُ على ثلاثةِ نسخٍ من المخطوطاتِ في التحقيقِ، ويتَّضحُ أَنَّهُ تميزَ في النهجِ[4]. وقد حُققّتَ بعدها مَنْ شيخِ الأزهر الشريف عام (١٩٨٥م) ولمْ يذكرْ النُسخَ المعتمدة في التحقيق[5].

---

(١) تاريخ التراث العربي – فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج٤، ص١١٨.

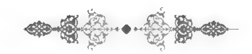
(٢) تاريخ الأدب العربي، بروكلمان، مصدر سابق: ج٤، ص٦٠. تاريخ التراث العربي – فؤاد سيزكين، المصدر سابق: ج٤، ص١١٨.

(٣) المسائل في أعمال القلوب والجوارح – المُحَاسِبيّ، ت: محمد فوزي: ص١٣٨.

(٤) الرعاية لحقوق الله، المُحَاسِبيّ: ت: مارغريت سميث، مصدر سابق: ص١٥.

(٥) الرعاية لحقوق الله، المُحَاسِبيّ، ت: عبد الحليم محمود، وعبد الباقي سرور، دار المعارف، القاهرة، ط٣ ١٩٦٤: ص٤.

وحُقِّقت للمرة الثالثة (د. ت) وَلمْ يذكْر أيضاً النُسخ المُعتمدة في التحقيقِ سوى الإشارة لكُتبِ المستشرقين والثناء عليها.



المصنفاتُ المُحقَّقةُ من العرب

- كتاب آدابُ النفوس.

حُقق الكتاب عام (١٩٩١م) أُدرجَ فيه منهجُ التحقيق، وهو عَنْ مخطوطة جار الله دون ذِكْرِ اسم الناسخ[1]، وقد تُرجِم إلى التركي وبنفسِ العنوان اعلاه عام (١٩٩٨م)[2].

- كتاب المسائل في أعمالِ القلوب والجوارح.

تم تحقيق المخطوطة لسنة (١٩٦٩م)، وجاءتْ الطبعةُ الثانية فيه لسنة (١٩٨٥م)[3]، وطُبعَ الكتاب في السعودية لسنة (١٩٨٦م)، والكتاب هو نسخةٌ مطابقةٌ عن كتابِ طبعةِ مصر لسنة (١٩٨٥م) المفقود من المكتباتِ، وبعدَ الاطلاع عليهِ تَبيَّنَ أَنَّهُ عن نسخةِ مخطوطةِ الأزهر أيضـاً ويتشابهُ بالمضمونِ، واتضح أنَّ النُسخَ المعتمدةَ في التحقيق كانتْ من المكتبةِ الأزهرِية، وتَمتْ

(١) تاريخ التراث العربي – فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج٤، ١١٦. آداب النفوس، للمحاسبي، مصدر سابق: ص٢٢.

(٢) النفوس، المُحَاسِبيّ، تر: شاهين فليز، هويلا وجك، مطبعة التركية، إسطنبول، ١٩٩٨.

(٣) المسائل في أعمال القلوب والجوارح والعقل – للمحاسبي، عبد القادر عطا، مصدر سابق: ص ٤٩. معاتبة النفس – المُحَاسِبيّ، ت: محمد عبد القادر عطا الله، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٦: ص٢٢.

الإشارة إليها من المُحققِّ على أنَّها نُسخ مكتبةِ عكا[1].

طُبع الكتاب المرة الثانية لسنة (٢٠١٨م)، وهو تحقيقٌ ضمَّ مقابلةً لمخطوطتين، وهما مخطوطة مكتبة الأزهر في القاهرة، ومخطوطة جامع السليمانية في إسطنبول، والتحقيق كان ضمن منهج أكاديمي، وعلمي، وتمَّ ذكر جميع تفاصيل المخطوطاتِ[2].

- كتاب العِلْمِ.

حُقِقَ وبصورةٍ علمية جيدةٍ مع ضبطٍ للمصادرِ الأجنبية لسنة (١٩٧٥م)، وقد ذُكِرَ منهج التحقيقِ وكانتْ المخطوطة عن نسخةِ مكتبة ميلانَو[3].

- كتاب المُستَرشِد.

تم تحقيق الكتاب سنة (١٩٦٤م) وطُبع تحت اسم رسالة المسترشدين، وقد أشارَ المُحقِّقُ في الكتاب لمنهجِ التحقيق، واستندَ على مخطوطتين،

---

(١) وهي تحت اسم: تصوف، رقم التسلسل/ ١٣٦٧، عدد صفحات ٧٩، من (ص٩١-١٧٠)، وهي عن مكتبة الأحمدية أحمد باشا الجزار - عكا، التوثيق عن المكون البغدادي. تاريخ الأدب العربي - بروكلمان، مصدر سابق: ج٤، ص٥٥. المخطوطات العربية - الشنطي، مصدر سابق: ص١٩٢..

(٢) المسائل في أعمال القلوب والجوارح - المُحَاسِبيّ، ت: محمد فوزي، مصدر سابق: ص٢٦.

(٣) تاريخ التراث - فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج٤، ص ١١٧. مخطوطة العلم - المُحَاسِبيّ، ت: محمد عابد المزالي، دار النشر الجزائرية، الجزائر، ط١، ١٩٧٥: ص١٦.

واتَّضح أنَّ الأولى الأصل من مكتبة المُحقِّق[١] وأما الثانية كانتْ من مكتبةِ الإسكندرية[٢]. وقَدْ تُرجمَ الكتاب إلى اللغةِ التركية باسم ((رسالة المسترشدين))[٣] لسنة (١٩٧٨م)، وطُبعَ الكتابُ في اللغة التركية للمرةِ الثانية لسنة (٢٠١٠م) تحت عنوان: ((الأخلاقُ والفشلُ))[٤].

- كتاب الزهد.

حُقق سنة (١٩٦٩م)، وأُعيدَ طبعةُ مرةٍ ثانية لسنة (١٩٨٥م)، ويتَضحُ من المادةِ أنَّه طُبعَ مرةً ثالثةً لسنة (٢٠٠٥م)، مع تغير اسم الكتابِ واستبدالِ بعض محتوى الكتابِ ببعض كُتبٍ أخرى[٥]، تُرجِم إلى اللغةِ التركية عام (٢٠٠٦م) تحت اسم دير الزُهد[٦].

---

(١) يتضح أن نسخته الشخصية للشيخ بعد مقابلتها مع مخطوطة المسترشد، هي نسخة مكتبة السلمانية – إسطنبول/ شهيد علي باشا رقم (١٣٤٥)، عدد صفحات سبعة فقط، نُسخت سنة ٨٠٠هـ. تاريخ الأدب العربي – بروكلمان، مصدر سابق: ج٤، ص٦٠. رسالة المسترشدين – فتاح أبو غدة، مصدر سابق: ص٩.

(٢) إن المخطوطة التي أشار إليها الشيخ فتاح أبو غدة بنسخة الإسكندرية تحمل رقم (٣٠٢٤). تاريخ التراث العربي – سيزكين، مصدر سابق: ج٤، ص١١٤.

(٣) رسالة المسترشدين – المُحَاسِبيّ، تر: علي أرسلان، المطبعة التركية، إسطنبول ١٩٧٨.

(٤) المسترشد (الأخلاق والفشل) – المُحَاسِبيّ: تر: رقية كراكوسا، المطبعة التركية، إسطنبول، د.ت .

(٥) التراث العربي – فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج٤، ص١١٧.

(٦) (دير الزهد حسب تسمية المترجم) – المُحَاسِبيّ، تر: عبد الرقيب أرسلان، المطبعة التركية، إسطنبول، د.ت.

- **كتاب المَكَاسب.**

حُققتْ المخطوطة لسنة (١٩٨٠م) لم يذكر النُسخَ المعتمدة في التحقيق ولا المصادر[١].

- **كتاب الوصايا.**

جاءَت المخطوطةُ تحتَ اسم الوصايا بخطٍ مغربي، وجاءتْ مختلفة في الاسم، ومتشابهة بالمتنِ مع مخطوطة النصائح في مكتبةِ السليمانية، تَمَّ تحقيقها سنة (١٩٨٦م)، وقد شكّلَ محتوى الكتابِ معَ كتبٍ وأبوابٍ أخرى من مصنفات الإمام المحاسبي[٢].

- **كتاب شرح المعرفة وبذل النصيحة.**

حُققَ الكتاب سنة (١٩٩٣م)، وتَمَّ فيهِ وصف منهجِ التحقيق، والمخطوطة كانتْ عن المكتبة الأزهرية[٣]، ولكن المفاجئ في الموضوع أن المُحَاسِبيّ

---

(١) تاريخ الأدب العربي - بروكلمان، مصدر سابق: ج٤، ص٥٩. كتاب المكاسب والورع، المُحَاسِبيّ، ت: سعد كريم الفقهي، سابق: ص٧.

(٢) الاختلاف واضح عند المقارنة بين مخطوطة مكتبة السليمانية في إسطنبول بختم وهبي، كتبها الحاج حسن محمد الخروب تحت رقم / بغداد ٦١٤ تحت مسمى النصائح. والمخطوطة الأخرى المعتمدة في التحقيق فهي بخط مغربي ونقوش في الصفحة المعتمدة في نسخة كتاب الوصايا حسب الصورة المرفقة مع الكتاب وهي مطابقة. الوصايا، المُحَاسِبيّ، ت: عبد القادر عطا: ص٥. مخطوطة النصائح - المُحَاسِبيّ، مصدر سابق، ص٢. تاريخ التراث العربي - فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج٤، ص١١٥.

(٣) مخطوطة شرح المعرفة وبذل النصيحة - المُحَاسِبيّ، مصدر سابق: ص٣٧.=

قال: ((عملتُ كتاباً في المعرفةِ وأُعجِبْتُ بهِ، فبينما أنا أنظرَهُ مُستحسناً إذ دخل عليَّ شابٌ وسَلَّم، وقال: يا أبا عبد الله هل المعرفةُ حقٌ للحقِّ على الخَلْق؟ قلت: حقٌّ للحقِّ على الخَلْق. قالَ: هي أولَى أنْ يكشَفها لمُستحقِها، قلتُ: بل حقٌّ للخَلْقِ على الحقِّ. قالَ: هو أعدَلُ من أن يظلمَهُم، ثمَّ سلَّمَ وخرجَ؛ فَغسلتَهُ[1]، وقلتُ: لا أتكلَّمُ في المعرفةِ بعدها أبداً))[2]. ربما هنالك خطأ في عنوان الكتاب أو الكتاب قد نُسخ من تلاميذهِ في المحاضرة؟

- كتاب فهم القرآن.

حُقِّقت المخطوطة عام (١٩٧١م)، وكان من ضمنهُ كتابِ مائية العقل[3]، وقد ذَكرَ المُحققِّ تفاصيلَ المخطوطةِ، وتُرجمَ إلى اللغة التركيةِ سنة (١٩٦٦م)، (٢٠٠٤م)، وبنفس العنوان[4]، وموضوع الكتاب قد جاءَ بهِ المصنف في الرّد على المُعتزلةِ[5].

=تاريخ التراث العربي – فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج٤، ص١١٧.

(١) غَسلُ: هي غَسلُ الشيء إزالةُ الوسخ. التعريفات الفقهية- محمد الجرجاني، ت: محمد صديق منشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، ٢٠٠٤: ج١، ص١٥٧.

(٢) الكواكب الدرية في تراجم الصوفية، محمد المناوي (٩٢٩هـ)، المصدر سابق: ج١، ص٥٨٥. الطبقات الكبرى – أحمد الشعراني، مصدر سابق: ج١، ص١٣٨.

(٣) تاريخ التراث العربي – فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج٤، ص١١٩. العقل وفهم القرآن – المُحَاسِبيّ، مصدر سابق: ص٤.

(٤) العقل وفهم القرآن، المُحَاسِبيّ: تر: فيسر أكد دوغان، المطبعة التركية، إسطنبول، ٢٠٠٤. فهم القرآن، المُحَاسِبيّ، ت: أحمد أتاش، مطبعة أنقره، تركيا، ١٩٦٦.

(٥) أستاذ السائرين – عبد الحليم محمود، مصدر سابق: ص٢٢.

- **كتاب مُعاتبة النفس.**

حُقِّق سنة (٢٠٠٣م)، وذُكِرَ فيهِ منهج التحقيقِ، وكانتْ نسخة المخطوطة من المكتبة الأزهرية[١]. واتضح أنَّ هنالك تشابهٌ بين مسألة معرفةُ النفّسِ في مخطوطة أعمال القلوبِ والجوارحِ، وكتابِ مُعاتبةِ النفّس في بعض الأبواب عند المطابقة[٢].

- **كتاب مَائيَّة العقل ومعناها واختلاف الناس فيهِ.**

حُقِّق سنة (١٩٦٩م)، ويذكرُ فيهِ أن نسخة المخطوطة كانت من مكتبةِ الجزار في عكا[٣] وكانَ الكتاب يحتوي على كتابِ أعمال القلوبِ والجوارحِ أيضاً. وطُبعَ وحُقِّقَ مرة أخرى من ضمن كتاب العقل وفَهْم القرآن سنة (١٩٧١م)[٤].

- **كتاب القصدُ الرجوع إلى الله.**

حُقِّقَ سنة (١٩٨٢م) وجاءَ من ضمن كتاب الوصايا، وقد أشار المُحقِّقُ في التحقيق وقالَ: إنَّها نُسخةٌ فريدةٌ في مكتبةِ الشهيد علي[٥]، وعند الاطلاع في

(١) معاتبة النفس – المُحَاسِبيّ: ت: محمد عبد القادر عطا، مصدر سابق: ص٢٤.
(٢) المصدر نفسه: ص٢٤، ص٢٢.
(٣) مخطوطة الزهد (باب مائية العقل) – المُحَاسِبيّ، رقم المخطوطة ١١٠١. مكتبة جار الله: ص١٠٤. معهد المخطوطات العربية – الشنطي مصدر سابق: ص١٩٢. تاريخ التراث العربي – فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج٤، ص١١٦.
(٤) العقل وفهم القرآن – المُحَاسِبيّ، مصدر سابق: ص٣. تاريخ التراث العربي – فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج٤ ص١١٩.
(٥) كتاب الوصايا (باب القصد الرجوع إلى الله) – المُحَاسِبيّ، المصدر سابق: ص٣٢٠.

مصادر المخطوطات التركية، اتَّضح أنها من مكتبةِ جار الله وتَحت رقم (١٧٨٢)، ويوجد نسختين بتواريخ نسخ مختلفة في المكتباتِ التركية تحت نفسِ العنوان[١]، وتُرجم إلى اللغة التركية سنة (٢٠٠١م)، تحت مُسمَّى البحث عن الله[٢].

۞ جاءتْ بعضُ الأبواب والرسائلِ لمصنفاتِ الإمام المُحَاسِبيّ على أنَّها كتبٌ في بعض المصادر العربية[٣] وَبعدَ الاطلاعِ والتدقيقِ. اتضح أنَّها أبوابٌ لمسائلِ سابقة، ولكتبٍ تمَّ تحقيقها، والبعض الآخر لم يُحقَّق، وليسَتْ كتبٌ منفصلة كما قيل عنها، وهي كما يلي:

- رسائل أحكام التوبة.

حُقِّقَ سنة (١٩٧٢م)، ضمن مجموعة كتاب الإنَابة لله، ولمْ يشرح المنهجَ في التَّحقيق[٤].

- رسائل دواءُ داء القلوب.

جاءتْ في بعضِ المصادر أنَّ النسخة ومكان وجودها غير معروف[٥]،

---

(١) تاريخ التراث العربي – فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج١، ص١١٨.
(٢) البحث عن الله – المُحَاسِبيّ، تر: عثمان آرب، المطبعة التركية، إسطنبول، ١٩٨٧.
(٣) تاريخ التراث العربي – فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج١، ص١١٨. تاريخ الأدب العربي – بروكلمان، مصدر سابق: ج٤، ص٦٠. معهد المخطوطات العربية – الشنطي، مصدر سابق: ص١٩٢.
(٤) مخطوطة الزهد – المُحَاسِبيّ، مصدر سابق: ص٥٢. تاريخ التراث العربي، مصدر سابق: ج١، ص.١١٨. الوصايا – المُحَاسِبيّ، مصدر سابق ص٣٥٥.
(٥) تاريخ التراث العربي – فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج١، ص١١٩.

واتضح أنها حُقِّقت ضمنَ كتاب آداب النفوس لسنة (١٩٩١م)، وهي من مخطوطةِ آداب النفوس[1].

- رسائل فهمُ الصلاة.

حُقِّق ضمن مجموعة رسائل من كتاب الوصايا، وكتاب النصائح، وقد أشار المحقق إلى منهج التحقيق، وكانت من نسخةٍ مصورةٍ في مكتبةِ جار الله سنة (١٩٨٢م)[2].

- رسائل فهمُ السنن.

وجدت العنوان في فهرست مجموعة رسائل التصوف التي وجدت فيها مخطوطة كتاب الخَلْوَة والتنقلِ في العباداتِ ودرجاتِ العابدين، وكان العنوان مدرج ضمن مواضيع كتب المجموعةِ[3].

- رسائل في مختصر المعاني.

هي مجموعةُ أبوابٍ وردَتْ ضمنَ كتب المُحَاسِبيّ، وليس كتابٌ منفصلٌ كما أشارت بعضُ المصادر[4] وقد جاءتْ تَسمية الأبواب في الخوفِ، واليقينِ،

---

(١) مخطوطة الزهد، (باب آداب النفوس) - للمحاسبي، مصدر سابق: ص٥٩، ص٦٤. آداب النفوس - المُحَاسِبيّ: مصدر سابق: ص٤٠.

(٢) مصدر نفسه: ص٥٢. تاريخ التراث العربي - فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج١، ص١١٨.

(٣) مخطوطة الخَلْوَة ودرجات العبادة، المُحَاسِبيّ، مصدر سابق: ص١.

(٤) تاريخ التراث العربي - فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج١، ص١١٩.

والمعرفةِ، والرجاءِ، وقد حُقِّقتْ بعض الأبواب من ضمنِ كتاب الرعاية لحقوق الله سنة (١٩٣٦م)[١].

مما ورد في المادة وبعدَ المعاينة والمراجعة والاستدلال، ورَبط المخطوطاتِ اتضح وجود مخطوطات لم تُكتَشف لحد الآن في الدول الأوربية، والأمريكية، وهي المخطوطات التي يطلق عليها تسمية (المفقودة)، وقد يصل عددها إلى (١٥٠) مخطوط، ويمكن تقسيمها حسب المصنفات في قسمين وكما هو مُدرَجٌ أدناه:

كتب جاءَ فيها التباسٌ[٢] في التحقيق.

- **مخطوطة البعث والنشور.**

وَجدتُ هذهِ النسخة في مكتبة السليمانية، متأثرةً جداً بالرطوبةِ، والكلماتُ فيها غير مفهومة. ويبدو أنَّ نَسخَ المخطوطة جاءَ بخطِ اليدِ وليس تصويراً عن الأصلِ، وتتكون المسألة من خمس عشرةَ صفحةً مع غلافٍ كُتِبَ عليهِ لسنةِ

(١) مخطوطة آداب النفوس، المُحَاسِبيّ، مصدر سابق: ص٦٧. كتاب آداب النفوس - المُحَاسِبيّ، مصدر سابق: ص٥٢، ص٧٦، ص٨٩، ص١٢٠. الرعاية لحقوق الله - المُحَاسِبيّ، ت: مارغريت سميث، مصدر سابق: ص ٣٨٩. تاريخ التراث العربي - فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج٤، ص١١٧. تاريخ الأدب العربي - كارل بروكلمان، مصدر سابق: ج٤، ص٦٠.

(٢) التباس: شكّ «أمر تقع عليه بعض الشُّبُهات». معجم اللغة العربية المعاصرة - أحمد مختار، مصدر سابق: ج٢، ص١١٦٢.

(١١٠٤هـ)، وقد جاءتْ في بعض المصادر مفقودةً[١]، واتضح أنَّ الإمامَ الغزالي أفَادَ منها في (الدرّةِ الفاخرةِ)[٢].

- **باب التنبيه على أعمال القلوب في دلالة الوحدانية.**

اتضح أنَّها موجودةٌ في مجموعة كتاب الزُهدِ، وقد جاءَ في نهايةِ بابِ العظمةِ[٣].

- **بابُ العظمةِ.**

لم يتمْ تحقيقُ هذه المخطوطة من ضمن كتاب الزُهدِ، رغمَ تحقيق الكتابِ لأكثر من مرّةٍ، ويبدو أَنَّ نسخةَ المخطوطة يتمُّ تجاوَزَهُا عند التَحقيق، أو لمْ ترِدْ ضمنَ نُسخ المُحققينِ. والسببُ أَنَّ جميع الكتبِ المحقّقةِ تمَّ الاعتمادُ عليها من مخطوطاتِ المكتبة الأزهرية[٤]، وبعدَ الاطلاع عليها يتَّضحُ أنَّ مواضيعها في رَدِّ فلاسفة الغرب بطريقة عِلمِ الكلامِ، وهي من نسخةِ مكتبة السليمانية - تركيا[٥].

---

(١) تاريخ التراث العربي، فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج٤، ص١١٧. تاريخ الأدب العربي - كارل بروكلمان، مصدر سابق: ج٤، ص٦٠.

(٢) الدرة الفاخرة، أبي حامد الغزالي، ت: لوسيان غوتيسيه، المكتبة الثقافية، بيروت، ط١، ١٩٩٧: ص٣١. معهد المخطوطات العربية، الشطي، مصدر سابق: ص١١٩.

(٣) مخطوطة الزهد، المُحَاسِبيّ، مصدر سابق: ص٢٨. تاريخ التراث العربي - فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج٤ ص١١٦. معهد المخطوطات العربية، الشنطي، مصدر سابق: ص١٥٣.

(٤) تاريخ التراث العربي - فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ص١١٦.

(٥) مخطوطة الزهد - المُحَاسِبيّ، مصدر سابق: ص٢٥. معهد المخطوطات العربية، =

- **رسائل المراقبة والمحاسبة.**

وَجدتُ نسخةً مصورةً عن مخطوطةِ الأصلِ في مكتبةِ السليمانية تَحت اسم (OZEL-٦٣٢)، وهي من مكتبةِ دِبلنْ، والنسخةُ مكتوبةٌ بخط اليد، والصحفُ الأولى تعرَّضت للتلَفِ، عددها ست وأربعون صفحة[1]، ويشير في نهايةِ المخطوطةِ إلى «كتاب التفكر»[2].

- **رسائل النصيحة للطالبين.**

ويبدو أن اسم الكتابِ متشابِهٌ مع أسماء كُتبٍ أخرى، مِثل: كتابُ الوصايا، ومخطوطة النصائح وكتاب شرح المعرفة وبذل النصيحة، التي وردت فيما سبق، ولكن يبقى الحّد الفَاصلُ في البتِّ بالعنوان هو ملاحظة المخطوطات الموجودة في جامعة أنقرة، ومقارنتها مع الكتابِ المُحقَّق[3].

= الشنطي، مصدر سابق: ص١٨٢.

(١) مخطوطة المراقبة والمحاسبة - المُحَاسِبيّ: رقم المخطوطة: ٤٨٩٣، مكتبة دبلن - إيرلندا، إسطنبول: ص٥، ص٦، ص٧.

(٢) نسخة: A، توجد في (Dublin. Chester Beatle Library)، الجمهورية الأيرلندية، تحت رقم٤٨٩٣، نسخة: B، توجد في مصر، مكتبة سوهاج، تحت اسم تصوف، رقم / ١٣٦، عدد صفحات ٢٠، نسخت سنة ١٠٢٣. نسخة: C، مكتبة برلين، ألمانيا، تحت رقم ١٤٣٥، من (ص١ - ص٧) عن مكتبة دبلن. تاريخ التراث العربي - فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج٤، ص١١٨. تاريخ الأدب العربي - كارل بروكلمان، مصدر سابق: ج٤، ص٦٠.

(٣) نسخة: A: توجد في (Ankara University Saab Ankara Turkey) تحت رقم / ٣٣٩١. من (ص٢٣ - ٣٦)، نسخت سنة ٧٣١هـ. نسخة: B، توجد في (Ankara University Saab Ankara Turkey) تحت رقم٥٢٨١. من (ص١ - ص٨). نسخت سنة ٩٠٠هـ. تاريخ التراث العربي - سيزكين، مصدر سابق: ج٤، ص١١٨.

- **مخطوطة بلا عنوان.**

توجد النسخة في المكتبات التركية (الجامع الكبير / بورصة) نُسِخت سنة (٨٠٠هـ)[١].

- **مخطوطة في التصوف.**

ذُكِرتْ في بعض المصادر، وقيلَ فيها كلماتُ التقشفِ لله تعالى، عددُها اثنان وعشرون صفحةً[٢].

- **مخطوطة محاسبة النفوس.**

جاءَ اسم الكتاب متشابهٌ مع أسماء كتبٍ أخرى، مِثل: مُعاتبة النفوسِ وآداب النفوسِ، لكن يبقى الحد الفاصل في البتِّ بالعنوان هو مَلاحظة المخطوطاتِ ومقارنتها مع الكتاب المُحققِّ[٣].

---

(١) انظر: مصدر نفسه::ج٤، ص١١٨. مخطوطة تصوف، رقم المخطوط: ١٤٢٨، مكتبة الجامع الكبير، بورصة: (ص٣٤ - ص٤٠).

(٢) كشف الظنون - خليفة جلبي، مصدر سابق: ج١، ص٩٠٨. تاريخ الأدب العربي - بروكلمان، مصدر سابق: ج٤ ص٦١. تاريخ التراث العربي، فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج٤، ص١١٩. معهد المخطوطات العربية، الشنطي مصدر سابق: ص١٥٣.

(٣) توجد المخطوطة نسخة A: في المتحف البريطاني، تحت رقم ملحق ١٢٤٢، مخطوطات شرقية ٣/ ٤٠٢٦، من صفحة (٤ - ٢٦)، سنة ١٠٢٤هـ. أما نسخةB: توجد في مكتبة برلين تحت رقم ٢٨١٤، من (ص٨٠ـ ص٨١). نسخة C : من (ص١ - ص٧) كتبت بتاريخ ٨١٣هـ. انظر: المصدر سابق، تاريخ التراث العربي - فؤاد سيزكين: ج٤، ص١١٧.

مخطوطاتٌ مفقودةٌ.

المخطوطات المفقودةِ تُشكِّل الأهمية الأوسع والأشمل في الوقت الحالي؛ فهي تحتاجُ إلى بحثٍ وجهدٍ عالٍ من الباحثين للبحثِ والتحرّي عنْها في المكتباتِ الأوربية والأمريكية وَمِنْها:

- **كتابُ كَفُّ الشجار ما بين الصحابةِ - كتابُ الدماءِ[١].**
- **كتابُ أخلاقُ الحكيمُ[٢].**
- **كتابُ الغيبةُ[٣].**
- **كتابُ التنبيه[٤].**
- **كتابُ حبُّ اللهِ[٥].**
- **كتابُ التفكُّرُ والاعتبار[٦].**

---

(١) تهذيب التهذيب - شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ)، دار الكتب، القاهرة، ط١، ١٩٩٣: ج٢، ص١٣٥

(٢) تاريخ التراث العربي، فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج٤، ص١١٩. طبقات الشافعية، تقي الدين ابن صلاح (٦٤٣هـ)، مصدر سابق: ج١، ص٤٤٠.

(٣) الفهرست - ابن الخير الإشبيلي (٥٧٥هـ)، مصدر سابق: ج٢، ص٢٧٣.

(٤) المصدر نفسه: ج٢، ص٢٧٣.

(٥) المصدر نفسه: ج٢، ص٢٧٣.

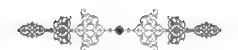
(٦) مخطوطة المحاسبة والمراقبة - المُحَاسِبيّ، مصدر سابق: ص٤٣.

واتَّضح مما سبق ذكره أنّ سبب اختفاء المخطوطات على الأغلب كان لتعرّض منهج وفَكْرِ الإمام المُحَاسِبيّ ومن اتبعَ نَهجهُ إلى التنكيل، من الكثير مِنْ المدارسِ الدينية في عهدهِ ومن جاء من بعده وتدهور حال البلاد العربية في معظمِ السنون.

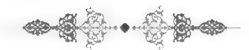
ويبدو أن التأثيراتِ السياسية وتداخُلها في نَهْجِ العلماءِ قَدْ بانَتْ واضحةً في مدينةِ الخلافةِ بغداد في العصر العباسي، وفي المُحَاسِبيّ خصوصاً عند منهجهِ الرافض والمُستمر في انتماء المدراسِ الدينية لعطَفِ ومساندةِ الخلفاء وسياستهم في الحُكْمِ، والتي جاءت في هدم فكْر أي مدرسة كانت تُعارض سياسة الخلفاء في الدولةِ[1]، وينبغيَ الإشارة إلى صدقِ حَدسِ المُحَاسِبيّ في أغلب كتبهِ حين قال: **إنَّ النزاع سيستمرُ ما بَينَ الفِرق الإسلامية لحين قيام الساعةِ بعصا السياسة**:[2].

كان الإمام المُحَاسِبيّ - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - من البصرةِ وقد سكنَ ومات في بغدَادَ، ولمْ تشهدْ كُتبهِ أيَّ تحقيقٍ أو بحثٍ مِنْ أي باحث في بغداد أو البصرة طيلة الأعوام الماضية. رغم أن الحركة الثقافية والانفتاح في فكر منهج التصوف مستمر في بغداد وعند المراحل السابقة والحالية، وقد يمكن أنْ الأمرَ يرجع لعدمِ وجود المخطوطاتِ في العراق، أو ربما أنَّ مَنهجَ التصّوفِ، وعلم الحقيقة لا يطابقُ منهج أهل بغدادَ - مديني الحبيبة -؛ لكونهِ عِلْم لا يجني المريد فيهِ الشهرةِ، ولا ينالُ فيهِ المناصب السياسيةِ المرموقة.

(١) مروج الذهب - علي المسعودي (٣٩٦هـ)، مصدر سابق: ج٤، ص٤٤.
(٢) مخطوطة النصائح - المُحَاسِبيّ، مصدر سابق: ص٢.



كلُّ زاهدٍ زُهدُه على قَدْرِ معرفتِهُ، ومعرفتُهُ على قَدْرِ عقلِهِ، وعقلُه على قَدْرِ قُوّةِ إيمانِهِ[1].



الحَارِثُ بن أَسَد المُحَاسِبيّ

(١) الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، محمد عبد الرؤوف المناوي (٩٢٠هـ)، مصدر سابق: ١، ص٥٨٧.

وصف المخطوطة

تشير المادة في الموضوع أنَّ مخطوطة الخَلْوَة كُتبت في الحقبةِ الأخيرة من حياةِ الإمام المحاسبي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-، وقد جاءت في عدَّة مواضيعٍ ومن أهمها أصول الخَلْوَة، ويبدو أنّ المدةَ الزمنيةِ لكتابةِ الخلوة قد تلازم في الوقت مع كتاب المسائل في أعمال القلوب والجوارح[1]. ويمكن تعليل السبب لكون أن المُحَاسِبيّ غادرَ بغداد في خَلوةٍ دامت عشر سنين لرَبِّ العباد مستوحشاً من العبادِ، كما تمَّ ذكره في المراجع والمصنفات، ولمْ يرجع لمدينةِ بغداد إلا قبل وفاتهِ بمدةٍ قليلة جداً[2].

وأما عن تفاصيل المخطوطة فقد كانت تحت عنوان: الخَلْوَة والتَّنقل في العبادة ودرجات العابدين تأليف الإمام العارف أبي عبد الله الحارثُ بن أسَد المُحَاسِبيّ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-، وقد جاءت التسمية كما هي في كتبِ الأعلام، والمراجع، والفهارس، والمصنَّفات[3].

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصفهاني (٤٣٠هـ)، مصدر سابق: ج١٠، ص٧٤، طبقات الشافعية الكبرى، السبكي (٧٣٧هـ)، مصدر سابق: ج٢، ص٢٧٩.

(٢) المصدر السابق، الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، محمد المناوي (٩٢٠هـ)، مصدر سابق: ج١، ص٥٨٧.

(٣) تاريخ التراث العربي، فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج٤، ص١١٨.

كانت المخطوطة ضمنَ مجموعة مخطوطات أخرى في مُغلَّفٍ واحد لكتبِ أخرى من علماء في التصوف؛ ولذلك أُطلق عليها تسمية (المجموعة) وهي كما يلي:

(كتاب الخَلْوَة، للمُحَاسِبيّ). (كتاب عِلْم الإشارات، الخراز). (كتاب الضيَاء، سلمة بن مسلم العتيبي). (كتاب الكشف والتَّبين، إسماعيل الأنصاري). (معرفة الأسرار، الشيخ عبد القادر الكيلاني)، (كتاب المنفعة، كتاب الصفاتِ، كتاب معرفة السنن شرع التصوف).(شفاءُ القلوب، كتاب السماء، آداب المريدين). وكان الفهرس لكتبِ المجموعة مكتوباً باللّغةِ التركية وعلى الغلاف يوجد ختم (T.C).

اتَّضحَ أن المخطوطة هي نسخةٌ مصورةٌ عن مكتبةِ / كستمونه - في شرق تركيا، وهي الوحيدة في المكتبات التركية، وتحمل التسلسل: (٢٧١٣)، وقياس المخطوط فيها (١٣٥ـ ١٧٠). (٩٥ × ١٢٥) وتصوير المخطوطةِ كان سنة (١٩٦١م)، في شهر مايس[1]، والمخطوطة تبدأ من الصفحةِ رقم (٢) وتنتهي عند الصفحةِ رقم (٥٧)، والترقيم واضحٌ، وتحتوي كل صفحة في المخطوطةِ على عدة أسطر مُنسَّقة تتراوح بين (١٧ - ١٨)، سطر.

وتبين أن هنالك تشابهٌ في اسم المكتبة التركية التي احتفظت بمخطوطةِ الخَلْوَة مع اسم المكتبة التي احتفظت بمخطوطةِ المسائل في أعمال القلوب

---

(١) تاريخ التراث العربي - فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج٤، ص١١٨. تاريخ الأدب العربي - بروكلمان، مصدر سابق: ج٤، ص٦٠.

والجوارح للمحاسبي[1] من حيث مطابقة اسم أمين المكتبة، حيث كُتبَ على الغلاف: هي مِنْ كُتبِ أبي محمد بن رستم لعبدِ محمود السَّرفلي[2] وجاء على غلاف الصفحة الأولى: لمخطوطةِ الخَلْوَة بخطٍ جانبي اسم محمد بن رستم:[3].

وأما في وصف المخطوطةِ فقد جاء عند منتصف مجموعة الكتبِ اسم الناسخ لها (يونس بن عبد الله) بتاريخِ: ٢٤/ شعبان / ٦١٥هـ، وتبرر المادة في الموضوع تهالك نسخ المخطوطة بالمقارنةِ مع تاريخ المخطوطات الأخرى للمحاسبي في النسخ.

جاء في الصفحة الأولى قول: بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله والسلام على عباده الذين اصطفى عنه، اِعلم رحمك الله. وأمَّا في الصفحة الأخيرة أنهى الكلام بعبارةِ: فإنك إذا فعلتَ ذلك أدخلك في أصنافِ الخير، والحمد لله وحده وهو حسبي ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله أجمعين.

اِتضحَ تفاوت خط الناسخ في بعضِ الأوراق، من حيث الحبر والخط، والنوع في الورق المُستخدم ويأتي ذلك بعد نصف الكتاب تقريباً، ويبدو تأثر الصفحات بالرطوبةِ، لكن الخط لايزال واضحاً من حيث المفهوم، ويبدو أن

---

(١) المسائل في أعمال القلوب والجوارح – المُحَاسِبيّ: ت: محمد فوزي، مصدر سابق: ص٧٨.

(٢) مخطوطة الزهد – المُحَاسِبيّ، مصدر سابق: ص١.

(٣) مخطوطة الخَلْوَة، المُحَاسِبيّ: رقم المخطوط: ٢٧١٣، كستمونه، تركيا: ص١.

كتب الإمام المُحَاسِبيّ في تركيا قد تفرقت على الولايات، نحو: (مخطوطة الزهد ومخطوطة النصائح في مكتبة/ جار الله[1]، إسطنبول)، (مخطوطة الخَلْوَة في مكتبة/ كستمونه) (مخطوطة الرعاية لحقوق الله، ومخطوطة الإنابة لله مكتبة/ الجامع الكبير بورصة)[2]. وربما قد يكون بسبب التنسيق بفحوى المواضيع هو سبب تفريقها، وقد أوضح الدكتور أحمد نجيب فرات/ جامعة إسطنبول عند لقائنا بهِ في سنة (٢٠١٦م) جزاه الله خيراً، أن دار التعليم والسياحة والآثار في الجمهورية التركية جمعت المخطوطات التي تمَّ ذكرها فيما سبق للحارثِ بن أسد المُحَاسِبيّ في مكتبةِ جامع السليمانية في إسطنبول، وتم حفظها بمكانٍ واحد.



(١) إن مكتبة جار الله هي مكتبة لأحد رجال تصنيف الكتب في إسطنبول الذين عملوا على التصنيف والبحث عن المخطوطات في عاصمة الدولة العثمانية، إسطنبول، وقد ورد اسم جار الله ولي الدين أفندي بكتابِ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون فقد كتب على ظهر نسخة المسودة المذكورة، وكانت موجودة في مكتبتهِ أيضاً حيث قال: ((واعلم إن هذا الكتاب المسمى بكشفِ الظنون عن أسامي الكتب والفنون هو لأستاذ أستاذي لحاجي خليفة المشهور كاتب جلبي الإسطنبولي الذي توفي سنة ١٠٦٧ رَحِمَهُ ٱللَّهُ))..وقد سعى جار الله أفندي مع السيد النبهاني في تبيض مسودة كتاب كشف الظنون والفنون للحاج الجلبي بعد وفاته. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، كاتب جلبي، مصدر سابق: ج١، ص٨.

(٢) تاريخ التراث العربي – فؤاد سيزكين، مصدر سابق: ج٤، ص١١٦.



أصلُ الطاعةِ الوَرَعُ، وأصلُ الوَرَعِ التَّقوى، وأصلُ التَّقوى مُحاسبةُ النفّسِ، وأصلُ محاسَبتِها الخوفُ والرَّجاءُ، وأصلُهما معرفةُ الوَعدِ والوعيدِ، وأصلُ معرفةِ الوَعدِ والوعيد داءٌ عظيمُ الجزاءِ، وأصلُ ذلكَ الفكرَةُ والعبرَةُ[1].



الحَارِثُ بن أَسَد المُحَاسِبيّ

(١) الإصابة في تميز الصحابةِ، ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ)، مصدر سابق: ج٧، ص١١.طبقات الصوفية، محمد بن الحسين السلمي (٤١٢هـ)، مصدر سابق: ص٢٢.

منهج التحقيق والدراسةِ

قد تم نسخ وتحقيق المخطوطةَ وفق الخطوات الآتية:

- قراءة المخطوطة.
- تخريج الآيات القرآنية.
- تخريجُ الأحاديث والروايات والأثر.
- التعريف بالأعلام.
- إعطاءُ معانٍ للكلمات.
- قراءةُ كلام المُحَاسِبيّ وفكره بمؤلفاتهِ الأخرى.
- تحقيقُ النص على نسخته الوحيدة.
- أُتخِذَ منهج النقلِ المباشرِ من مخطوطةِ الأصل للحفاظ على النص بدون أيَّ إضافات.
- تمَّ العملُ على ضبطِ مفهومِ الكلماتِ، وضبط النصوص في داخلِ المَتْنِ.
- وردتْ بعضُ النصوصِ والكلماتِ خارج المَتْنِ على جوانبِ صفحاتِ المخطوطةِ، مع وجودِ إشارةٍ لها داخل المَتْنِ تشيرُ إلى مكانِ النصِ والكلماتِ. وقد تَمَّ إدخال الكلماتِ والنصوصِ حسبَ الإشاراتِ، وبما يناسبُ المعنى في المَتْنِ، وقد تمَّ التحقُّق والتأكد من صحةِ النصوص.

- تم ضبطُ الكلماتِ بالمعاني عند تخريجها من النصوصِ، وَتبيَّن أنَّها جاءتْ ببلاغة القرآن الكريم، وهذا أسلوبٌ ينفردُ بهِ المُحَاسِبيّ في انتقاء الكلماتِ والنصوصِ في مصنفاتهِ.

ومما يجب الإشارة إليه أن تحقيق مخطوطة الخَلْوَة والتنقل في العبادة ودرجات العابدين للمُحَاسِبيّ[1]، قد حُقِّق كموضوعٍ نشر في مجلةِ الشرق / بيروت، ولكن رغم سعي المُحقِّق وجهده في وضع تحقيق المخطوطةِ بالصورةِ الجيدة التي تحافظ على تَسلسُلِ المسائل في الكتابِ ومحاولاته الضائعة لأن يطابق الكلمات بالمعاني، تبيَّنَ سقوط الكثير من الكلمات، وقد جاء بكلمات أخرى لها معانٍ مختلفة تماماً عن مضمون المتن في المخطوطةِ لكي يسد النقص.

ويبدو أنه لمْ يكن موفَّق الاختيار في كتابة متن مخطوطة الخَلْوَة، ولم يكن موفق في تطابق مفهوم كتاب الرعاية لحقوق الله مع كتاب الخلوة لكونها جاءت بمفهومٍ لمسائل أخرى فلمْ يصح تطابقها رغم تشابه العناوين فيهما، والمُحقِّق قد أشار بالمقارنةِ: ((وإليك بعض النصوص المَحكي عنها وقد يطول ذكرها إذا أحببنا أن نذكرها))[2].

وجاءت لديهِ بعض الكلمات في المخطوطة لم يتم إضافتها في متنِ كتاب الخَلْوَة، واكتفى المُحقِّق بوضع علامة (xxx)، وجاء ببعض الكلمات الخطأ في

(١) الخَلْوَة والتنقل في العبادة، المُحَاسِبيّ، ت: أغناطيوس عبده، مصدر سابق: ص٥.
(٢) المصدر نفسه: ص٦١.

الكتاب وتمَّ تصحيحُها حسب متن المخطوطة، وتمَّ إضافة جملٍ وكلماتٍ موجودةٍ في المخطوطة ولمْ تكن موجودة في كتابِ الخَلْوَة، ونُدرج أدناه بعض الكلمات الخطأ التي وردت في جريدة الشرق الأوسط من كتاب الخَلْوَة للمُحقِّقِ الأب أغناطيوس عبده، وحسب الأبواب كما يلي:

باب الاجتهاد وقصر الأمل.

الكلمة الخطأ	يفرقهم	اشتغل	عروض	مدخولين	عضاية	الأخوان	ولا تهزه	يزيده
الكلمة الصحيحة	يفر منهم	استثقال	عزوف	مذهولين	أعضائه	الأحزان	ولا تهذي	يرده

باب الاستدراج.

الكلمة الخطأ	التحيز	جب	اسرك	يبقى له	يركب	الخلابه	يهجم	رجلك	جنت
الكلمة الصحيحة	التحير	حب	أمرك	يتوله	يكب	الغلبة	يحكم	رجالك	حنت

باب معرفة الأصل.

الكلمة الخطأ	فرغت	استحيت	جهراً
الكلمة الصحيحة	فزعت	استحسنت	جهداً

باب المحاسن.

الكلمة الخطأ	ان يؤتى	تقتل	تعبر	كلمها	يؤيد	خالفه	يحفرها	إشارة
الكلمة الصحيحة	إنَّا موتى	تقبل	تغير	عالمها	يؤنب	حالفه	يحفزها	إمارة

باب الصمت ومخالفة الهوى.

الكلمة الخطأ	الولدان	عدوك	إسرائيل
الكلمة الصحيحة	الهوى	عدول	إسماعيل

باب الرجاء والخوف.

الكلمة الخطأ	غالها	سادوها	أصدر	نفس	الرغايب
الكلمة الصحيحة	فعالها	جاهدوها	اصبر	اليقين	الرعاية

باب الزجر والقنوت.

الكلمة الخطأ	السيئة	ربك	شرفكم
الكلمة الصحيحة	السببية	به	سرفكم

باب فضل ترك المعاصي.

الكلمة الخطأ	السيئة	أية حجة	استهلاك	عواقبها
الكلمة الصحيحة	السببية	مئة حجة	استحلال	عواملها

باب الصدق.

الكلمة الخطأ	همة	صحافة	نيتك	ابطش	مستصغر
الكلمة الصحيحة	نعمه	مخافة	نفسك	أبطن	مستغفر

باب المرأى.

الكلمة الخطأ	شهرتها	الإساءة
الكلمة الصحيحة	شهوتها	الاشتباه

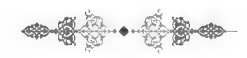
- **الجملُ والكلمات التي وردت في المخطوطة، ولم ترد في نشر جريدة المشرق عند التحقيق.**

(فلا تلقاها وإن كان نال فيها إلا مستشعر خوفاً زايل منها)[1].

(عمل)، (مجمل)، (ونقلها)، (الدنيا)، (الخاصة)، (فأقصاه)، (عين)، (أقلعت)[2].

(أمْن)، (سلك)، (المأكل في بطنك)، (معتبرهُ)، (زوال)، (فلهُ)، (يتسع)، (أهم بنفسك)[3].

(لهُ). (ذو). (من ما). (أنها)[4].، وأشير لها بشكل (xxx)في نشرة جريدة المشرق عند تحقيق.



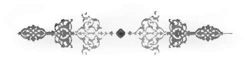
(١) المصدر سابق، الخَلْوَة والتنقل بين العبادات - المُحَاسِبيّ، ت: الأب أغناطيوس: ص٥١، ص٥٢.

(٢) المصدر نفسه: ص٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٨.

(٣) المصدر نفسه: ص٦٦، ص٧٠، ٨٠ص، ٥٥ص.

(٤) المصدر سابق: ص٢٨، ٣١، ٣٣، ٣٤، ٥٨.





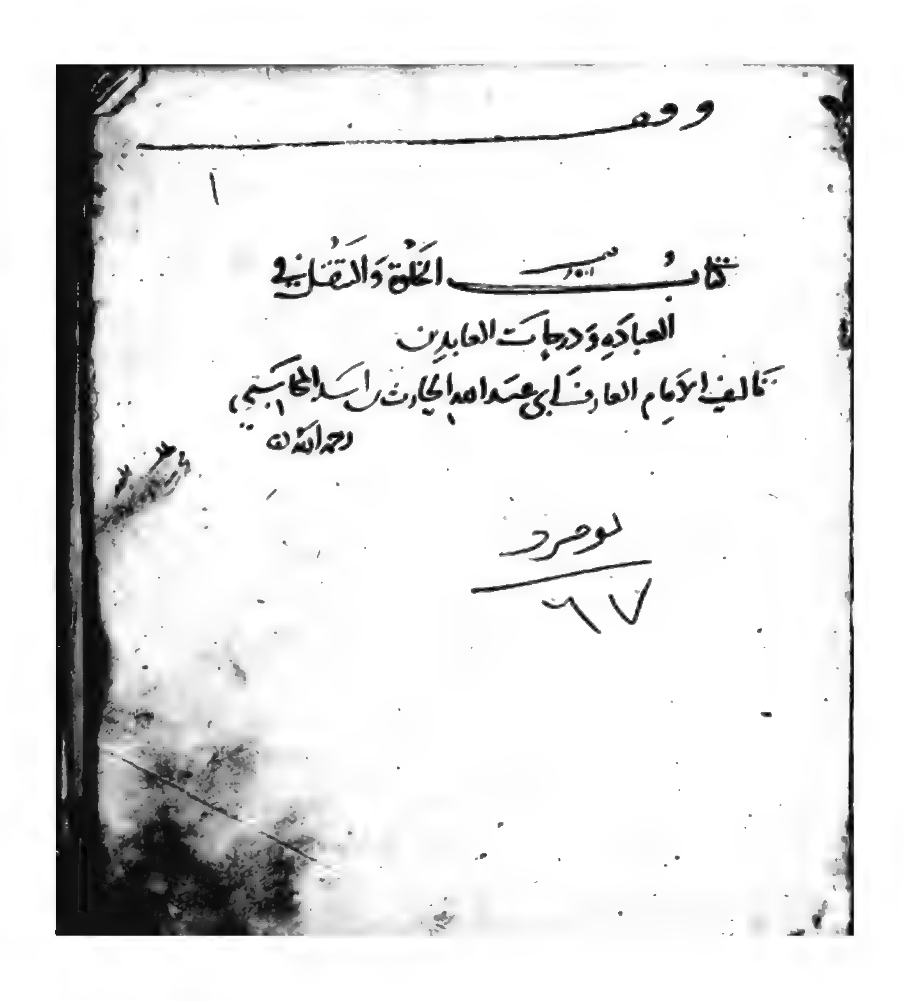
مَنْ أرادَ أنْ يذوقَ لذَّةَ طعم معاشرةِ أهل الجنّة فليصحبْ الفقراءَ الصادقين[1].



الحَارِثُ بن أَسَد المُحَاسِبيّ

(١) طبقات الأولياء – عمر بن علي الأندلسي ابن ملقن (٨٠٤هـ)، مصدر سابق: ج١ ص١٧٥. تذكرة الأولياء – فريد الدين العطار (٦٢٧هـ): ص٢٤٩.

صفحةُ الغلافِ في المخطوطة مع التحقيق

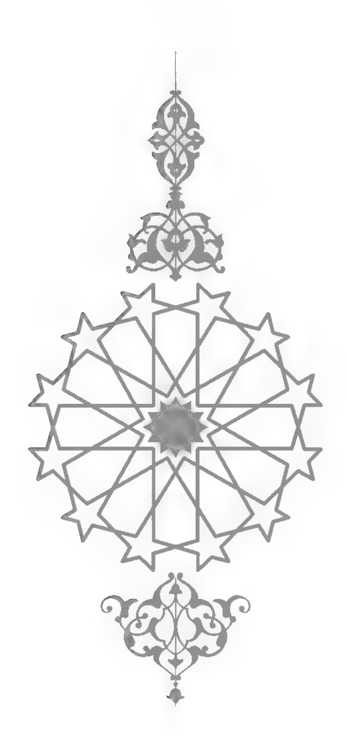


كتاب الخلوة والتنقل في العبادة ودرجات العابدين
تأليف الإمام العارف أبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي
رحمه الله

كتاب الخَلْوَة والتَّنقلُ في العبادةِ ودرجات العَابدين

تأليف الإمام العارفُ أبي عبد الله الحارث بن أسد المُحَاسِبيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الحمد لله والسلام على عباده الذين اصطفى-------



باب الاجتهاد والخَلْوَة وقصْرُ الأملِ وغير ذلك:

قالَ: الإمام أبي عبد الله الحارث بن أسد المُحَاسِبيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

اِعلم -رحمك الله- أن أهل طاعة الله قدَّموا بين يدي الأعمال لَطيف معرفة الأسباب التي بها يُستدعى صالح الأعمال، ويسهلُ عليهم مأخذهُ توطيناً مِنهم لأنفسهم على استصحابه إلى انقضاء أجلهم؛ فيصير مالهم في الدنيا يوماً واحد أو ليلة. كلما مضت استأنفوا النية، وطلبوا مِن أنفسهم حُسنَ الصحة ليومهم وليلتهم؛ فكل ما مضى عنهم يَومٌ يُحسن منهم الصحبة لهُ، أو ليلةٌ راقبوا أنفسهم فيها على جميل الطاعة، كان عندهم غنماً، وذكروا اليوم الماضي، فسروا به، وَصبَّروا أنفسهم عن المستقبل لانقضاء الأجل فيه أو في ليلهِ.

وطرحوا شُغل القَلْبِ بذكرِ غدٍ، وَاعْمَلُوْا بأبدانهم، وجوارحهم فيهِ، وتفرَّغوا لهُ؛ فقصُرت عنهم الآمال وقرُبت منهم الآجال[1]،وتباعدت أسباب وسوَاس الدنيا عن قلْوبهم، وعظم شُغل الآخرة في صدورهم، فنظروا إلى الآخرة بعين صحيحةٍ بصيرةٍ،وتقربوا إلى الله بأعمالٍ زاكيةٍ، فاستقامت لهم السيرة حين وجدوا حلاوة الطاعة؛فأحبوا البقاء في الدُّنيا. عمروا الدُّنيا حِينَ ساعدتهم الزيادة من التقوى، فَقَرَّت بالخوفِ أعينهم، وتعمُّوا بالحزنِ في

(١) الآجال: طول الأمل. أساس البلاغة - محمود الزمخشري (٥٣٨هـ)، ت: محمد باسل، كتب علمية، بيروت، ١٩٩٨: ج١، ص٢٢

عباداتِهم حتى نَحلتْ أجسادهم، وقلّ مع المخلوقين كلامهم، وتَلَذَّذَوا بمناجاةِ سيدهم؛ فقلوبهم بملكوتِ السماوات متعلِّقة، وفكرهم بأهوال[1] القيامة مقبلةٌ مُدبرة، وأبدانهم بين المخلوقين عاريةٌ؛ فعمُّوا عن الدنيا وصَمُّوا[2] عنها، وعن أهلها وما فيها. وَوَضحَ لهم أمر الآخرة حتى كأنهم ينظرون إليها؛ فخلص قومٌ إلى ذلك من طريق الاجتهاد؛ فاجتهدوا في الصوم لهدوا[3] الجوارح عنهم، ولتذل الأنفسُ لهم، وتخضع الجوارح.

واجتهد قومٌ في الصلاةِ لدوامِ الخشوع عليهم، واجتهد قومٌ في الورعِ ليطيبِ لهم المَطعم وفطنوا أنه لا يزكو لهم عملٌ من أعمالِ البرّ إلا بطيبِ مَطعمهم، واجتهد قومٌ في ترك الشهوات وطلبِ القوت[4] وَما أشبه ذلك مِن رياضةِ النفس حتى أفضوا بالأنفسِ إلى الجوع ونُحول الجسم(*).

---

(١) الأهوال: هي جمع هول وهو الخوف والأمر الشديد، فهو هائل ومهول. لسان العرب، ابن منظور مصدر سابق: ج١١، ص٧١١.

(٢) وصموا: وهي عن (صم) صمًّا وصمما ذهب سَمعه، وَيُقَال وَفِي التَّنْزِيل الْعَزِيز: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾. المائدة: الآية ٧١. معجم اللغة العربية المعاصرة – أحمد المختار، مصدر سابق: ج٢، ص١٣٢٠.

(٣) لهدوا: وهي من الهُدى، بضمِ الهاءِ وفتحِ الدالِ: الرَّشَادُ، والدَّلالةُ ويُذَكَّرُ، هَداهُ هُدًى وهَدْياً وهِدَايَةً وهِدْيَةً، بكسرهما: أرْشَدَهُ، فَهَدَى واهْتَدَى، وهَداهُ اللهُ الطَّرِيقَ. القاموس المحيط – مجد الدين أبادي، مصدر سابق: ج١، ص١٣٤٥.

(٤) قوت: أي قوت الفقيرَ ما يَسُدُّ الرَمَقَ من الطعام. معجم اللغة العربية المعاصرة – أحمد المختار، مصدر سابق: ج٣، ص١٨٦٨.

فنظرتُ في ذلك فلمْ أرى شيئاً أقرب في مصلحةِ النفس، والعيش من حِميةِ النفس عن أُلفِها وقطعها عن مُزَاولة المخلوقين بمنعِ الحواس عن الأخبار التي فيها تَهيج القلوب بالحركاتِ واضطراب الجوارح، وتهيجها على العَملِ.

وإنما أعني بالحواسِ السمع، والبصر، والشم الذي يمكن يُحسن الشيء: فإذا فَقَدَ القَلْب ما تجتلب له الحواس سكَنَ عن الحركةِ؛ فأجابته الجوارح بالهُدوء[1] فعند ذلك يتفرَّغ القَلْب لأعمال البرّ ويصغُر فيه كيد إبليس. لأن سلاحه قد تعطَّل عند تَطلُّع ما تجلبُ الحواس عنهُ، ورهن سلطان الهوى فيه، وَقويت دلالات سلطان العقل بالفكْرِ، واشتغل وغلبَ على القَلْب إذا ضعف ضدَّه.

فعند ذلك يغلي قَلْب العبد بالفكْرِ؛ فيهيج مِن ذلك الخوف، وتسوَّرت[2]عليه طوارق الأحزان وفُسخَت[3] بالبحثِ عن أمرِ الآخرة، ويترك الدنيا وما فيها؛ فيورثه ذلك حبُّ الخَلْوَةِ؛ فيحبّها، ويلزمها ويأنسُ بها، ويستوحش مِن المخلوقين ويفَرُّ منهم، وذلك حين جرتْ عذوبة حلاوته في أعضائه، كما يجري الماء في أصلِ الشجرة؛ فأورقت أغصانها، وأثمرت عيدانُها، ولصقَ جوف ما يَحِي بها قيامه.

---

(١) المسائل في أعمال القلوب والجوارح، المحاسبي (٢٤٢هـ)، مصدر سابق: ص٢٤.

(٢) تسورتُ، أيْ ارتفعتُ. وفي القرآنِ: ﴿إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾. التَّلخِيص في مَعرفَةِ أسماء الأشياء – حسن بن عبد الله العسكري، ت: عزة حسن، دار طلاس، دمشق، ط٢، ١٩٩٦: ج١، ص١٦٠

(٣) فسخت: فسخت الشّيء: فرَّقته. المخصص، علي بن إسماعيل المرسي (٤٨٥هـ)، ت: خليل إبراهيم، دار الإحياء، بيروت، ١٩٩٦: ج٤، ص١٠١

ما يُحي بِهِ قلبَه خالط سويداء قَلْبِه؛ فيهيج من الخَلْوَة فنونٌ مِن أصول الزهد في الدنيا، لو اجتهد العبد في فنٍّ منها لنْ يستحكم لهُ مِن غير هذا الطريق. عظُمت عليه وفيه المؤن واشتد عليه، وفيه العلاج؛ فإما عازمٌ على الصّبْر، وإما عائدٌ إلى طباعِه في التخليطِ؛ فإذا رَقَى العبد إلى درجة الخَلْوَة بالكُرهِ لِذلك. مُنّ[1] لهُ بالصّبْرِ عليه، وَداوم على ذلك، واستحلاه نَقلهُ ذلكَ إلى حبِّ الخَلْوَة؛ فأول ما يهيج مِن حبِّ الخَلْوَة طلب العبد للإخلاصِ، والصّدق في جميعِ قوله، وفعله؛ فيما بينه وبين رَبِّه ومخرجها مِن الصّدقِ؛ فورثهُ حبُّ الخَلْوَة راحة القَلْب من عمومِ الدنيا، وترك معاملة المخلوقين في الأخذِ والإعطاءِ، ومخرج ذلك مِن صحةِ العقل، وأسقطَ عنه حبّ الخَلْوَة وجوب الأمر بالمعروفِ والنّهي عن المنكر، ومداهنةِ[2] الناس فيما فيهِ تلفُ دينه من تركِه لذلكَ، ويخلو بتتبُّع أمر نفسهِ.

ويهيج من حبِّ الخَلْوَة خمول النفس والإغماض[3] في الناس، وهو أول طريق الصّدق ومنه الإخلاص -------- ويهيج من حبِّ الخَلْوَة الزهد في معرفةِ الناس، والأُنس بالله، واستثقال مُجالسة غير (ﷺ) أهل ذِكْر الله، ويورث

(١) المنّ: مَا يَمُن الله بِهِ ممّا لاَ تَعب فِيهِ وَلاَ نَصَب. تهذيب اللغة، الهروي، مصدر سابق: ج١٥،ص٣٣٨.

(٢) المداهنة، وهي المصانعة داهنت الرجل، إذا واريتهُ وأظهرت له خلاف ما تضمر. مجمل اللغة - أحمد بن فارس (٣٩٥هـ)، ت: زهير عبد المحسن، دار الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٨٦: ج١، ص٢٣٨.

(٣) الإغماض: أي غَمَّض تجاوز. شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم - نشوان بن سعيد ت: حسين لعمري، الفكر، بيروت،١٩٩٩: ج٨، ص٥٠١٠.

حبّ الخَلْوَة طول الصمت من غير تكلُّف، إذا كان غير مجيب له مكلَّماً[١].
وغلبةُ الهوى، والصّبر منهما يظهر الحِلْمَ والأناة[٢]، ويهيج مِن حبِّ الخَلْوَة شُغل العبد بعيوبِ نفسه وقلةُ شغله بذكْرِ غيرهِ، وطلب السلامة مما فيهِ الناس، ويهيج مِن حبِّ الخَلْوَة كثرة الهُموم والأحزان، ومنها يهيج الفكْر، وهي أفضل العبادة ومخرجها من خالصِ الفكْر.

ويهيج مِن حبّ الخَلْوَة الأعمالُ التي تغيب في أعْينِ الناس، وتظهر لرَبِّ العالمين، وقليل ذلكَ كثير ومخرجه من الصّدقِ، ويهيج من حبِّ الخَلْوَة التَيقُّظ من غفلةِ أهل الدنيا، وفَقْد أخبار ما يذكر منها الخاص، والعام. ويورث حبُّ الخَلْوَة الأمن من الرياءِ[٣]، وترك التَّزين للمخلوقِين، وكل ذلك من دواعي الإخلاص، وهو محضُ الصّدق. ويورث حبَّ الخَلْوَة قلة المِراء[٤]، وترك الخصومة، والجدال وبهما ينفيان طلب الرياسة، ويُسلِّمان إلى الصّدق.

---

(١) مكلماً: من الكلام. كلّمه بكلام، قال الله تعالى (وَكَلَّمَ اللاَّهُ مُوسى تَكْلِيماً). المصدر نفسه.

(٢) الأناة: من الله أي تأن في الأمر وترفق. العين - الخليل الفراهيدي، مصدر سابق: ج٣، ٢٤٦.

(٣) الرياءُ: يرائي بعمله غير مخلص فيه لله، وهو في معنى المنافق والمخادع. الإبانة في اللغة العربية - سَلَمة بن مُسْلِم، ت: عبد الكريم خليفة التراث، عمان، ١٩٩٩: ج٤، ص٣٥٢.

(٤) المِراءُ: مِمَّا يَتَمَارَى فِيهِ الرَّجُلاَنِ مِنْ هَذَا، لأَنَّهُ كَلاَمٌ فِيهِ بَعْضُ الشِّدَّةِ. معجم مقاييس اللغة - أحمد بن فارس (٣٩٥هـ)، ت: عبد السلام محمد، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩::ج٥، ص٣١٤.

ويهيج من حبِّ الخَلْوَة إماتة الطمع، ودواعي الحرص، والرغبة في الدنيا،وفيه قوة العقل.

ويورث حبُّ الخَلْوَة قلة الْخلف من المواعيدِ، والتوق من الحنث[1] في الإيمان، ومخرجه من الصّدقِ. ويورث من حبِّ الخَلْوَة قلةُ الغضب والقوةِ على كَظْمِ[2] الغيظِ، وتركُ الحقد، والشحن، والغّل للأمةِ بسلامةِ الصدور، ورِقَّة القَلْب عن طريقِ الرحمة وهما ينفيان الغِلظة، والقسوة وهما من دواعي الخوف. ويهيج من حبِّ الخَلْوَة تذكُّرُ النِّعم، وطلبٌ للإلهام بالشكرِ، والزيادة مِن الطاعةِ.ويهيج من حبِّ الخَلْوَة وجود حلاوة العمل،والنشاط في البكاءِ بحزنٍ من القَلْبِ مع تضرُّعٍ واستكانةٍ[3].ويهيجُ من حبِّ الخَلْوَة القنوعُ،والترحُّلُ، والرّضا بالكفافِ، والعفافِ، والاستغناء عن الناس.

ويهيج من حبِّ الخَلْوَة عزوف النفس عن الدنيا واشتياقها إلى لقاءِ الله تعالى وهو من طريق حسن الظنّ بالله تعالى وخوف النقص في الدّينِ. ويهيج من حبِّ الخَلْوَة حياءُ القَلْب، وضياء نوره

---

(١) الحنث: والحنث: الذنب العظيم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴾. الآية. التقفية في اللغة – اليمان بن أبي اليمان البند يجي، مصدر سابق: ج١، ص٢٢٦.

(٢) كظم: أي حبسه ورده، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾، الآية. الإبانة في اللغة العربية – سَلَمة بن مُسْلِم العَوْتبي، مصدر سابق: ج٤، ص١١٩.

(٣) استكانة: جاءت من استكان أي ذل. خضع. كتاب الأفعال – علي بن جعفر السعدي (٥١٥)، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣:: ج٢، ص١٧٦.

ونفاذُ بصره في عيوبِ الدنيا،ومعرفة النفس، ومعرفته بالنقصِ، والزيادة في دينه. ويهيج من حبِّ الخَلْوَة الإنصاف للناسِ، والإقرارُ بالحقِ، وإذلال النفس بالتواضعِ وقلةِ الاعتداء. ويهيج(ﷺ) من حبِّ الخَلْوَة خوفُ ورودِ الفتن التي فيها ذهاب الدّين، والشوقُ إلى الموت قبل وقوعهِ خوفاً من سلب الإيمان، ويهيج من حبِّ الخَلْوَة الوحشةُ من الناسِ، واستثقال كلامهم والأُنس بكلامِ رَبِّ العالمين الذي جعله الله نوراً وشفاءً للعالمين، وحجةً ووَبَالاً على الظالمين؛ فاجعل الكتاب مَفزَعك الذي إليه تلجأ، وعصمتك الذي بهِ تستعصم، وحصنك الذي إليهِ تأوي ودليلك الذي بهِ تهتدي، وشعارُك ودِثَارُك[1]، ومنهجك، وسبيلك؛ فإذا التبَسَتْ عليك الطرق واشتبهت عليك الأمور وصرتَ في حيرةٍ من أمورك تضيق بها نفسك؛ فعليك بالرجوعِ إلى عجائب الكتاب الذي لا حيرة فيه، وقف على دلالتِهَا من الترغيبِ،والترهيب، والوعد، والوعيد، وإلى ما نَدبَ[2] الله تعالى إليهِ المؤمن من طاعةٍ، وتركٍ للمعصيةِ؛ فإنك تصيرُ بصيراً من حيرتِك، وعارفاً من جَهَالتك، ومستئنساً من بعدِ وحشتك، وقوياً بعد ضعفك؛ فليكن ولِيّك من دونِ المخلوقين نفر مع الفائزين، ولا تهذِي[3] كَهذي الشعر، ولا تنثره نثراً كثير الدَّمل. قف عند عجائبه

---

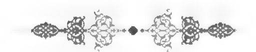
(١) دثر: وهو المال الكثير. العين، الخليل الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٨، ص١٨.

(٢) والنَّدْبُ: أن تندُبُ إنساناً أو قوماً إلى أمر في حَرْبٍ تدعوهم إليه وإلى غيره فيَنْتَدبون أي يَتَسارَعون. مصدر نفسه: ج٨، ص٥١.

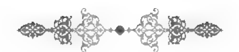
(٣) هذي: الهَذَيانُ كلام غير معقول. مثل كلام المبرسم والمعتوه. العين، الخليل الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٤، ص٦١.

وحدودهِ. وما أشكل عليك فَكِله إلى عَالمه ولا قوة إلا بالله، وأعمَل بالمُحكمِ، وآمن بالمشابهِ، وَكِلْ عِلْمَه إلى اللهِ تعالى، واذكر للعلماءِ ما حملته من الحدودِ والسنن. وَخذ بما أجمعوا عليهِ، واختلفوا فيه؛ فخذ لنفسِك بالحزمِ، ولا تَحمل خَلق الله تعالى عليه، ولا تلوهم نصحاً، وحسن نَظر.

واعلم أنَّ الأقاويل محفوظة والسرائر مملؤة، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[1]،وقد أصبح الناس منقوصين مذهولين إلا من عَصَمَ الله؛ فقائِلهُم باغٍ[2] وسامعهم عَايبٌ، وسائلهم معيبٌ، ومُجيبهم متكلفٌ. يكاد أفضلهم رأياً يردهُ عن أفضلِ رأيه أدنى الغضبِ، ويكاد أصلبهم عوداً تُنْكِّلُهُ[3] اللحظة وتَسْتَجِيرَه الكلمةُ؛ فلا فقرَ أشدَّ من الجهلِ، ولا مالَ أعز من العقلِ، ولا وحشةَ أوحشَ من العُجْبِ، ولا مظاهرةَ أوفق من المشورةِ، ولا عقلَ كالتدبيرِ، ولا ورعَ كالكفِّ، ولا حسبَ كحسنِ الخلقِ، ولا عبادةَ كالفكُّرِ.



(١) المدثر: ٣٨، الآية.
(٢) باغ. والبَغْيُ: الظُّلْمُ. والباغي: الظالم. المصدر نفسه: ج٤، ص٤٥٣.
(٣) تنكل: من نكَّلْتُ، نكَّلْتُ بفلانٍ إِذا عَاقَبْتَه فِي جُرْمٍ. تهذيب اللغة - محمد الهروي (٣٧٠هـ) مصدر سابق: ج١٠، ص١٣٨.



تفاوَتَ النَّاسُ في الزَّهدِ على قَدرِ صحةِ العقولِ وطهارةِ القُلوب، فأفضلُهُم أعقلُهُم وأفهَمُهم عنِ اللهِ[1].



الحَارِثُ بن أَسَد المُحَاسِبيّ

(١) الكواكب الدرية في تراجم الصوفية - محمد رؤوف المناوي (٩٠٣هـ)، مصدر سابق: ج١، ص٥٨٧.

باب معرفة الأصل الذي يتفرَّعُ منهُ جِماعُ الخير.

سأل سائلٌ: عن بابِ معرفة الأصل الذي يتفرَّع منهُ جِماع الخير.

قَالَ: أخبرني عن الأشياءِ التي يتفرَّع من معرفتها جِمَاعُ الخير(ﷺ) وتجري بها المنافع، ويصلح بها الأعمال مِنْ بعدَ اليقين باللهِ تعالى.

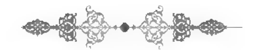
فقالَ - المحاسبي -: اِعلم أنَّ أصول الأشياء التي منها يتفرَّع جِماعُ الخير، وتجري بها المنافع، وتصحُّ عليها الأعمال مِنْ بعدِ اليقين مُعرفة النِّعم، والعَمل بأداءِ الشكرِ، وأنْ يصح عندك.

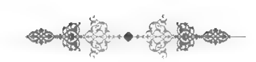
إن جماع الخير مواهب مِنْ الله تعالى، وَهو تأسيس العَفو، وهو مِنْ طريقِ الرّضا، وإنَّ جميع الشَرِّ مِنْ المعاصي عقوبة، وهو مِنْ طريقِ الخذلان، وهو علامةُ السُّخطِ[1]؛ فإذا عرفتْ ذلكَ كثُرت حسناتك، وقلَّتْ سياتك إنْ شاء الله؛ لأنك إذا عرفتْ أنَّ الإحسان نِعْمةٌ ومواهبٌ مِنْهُ بادرتَ في الشُكر، واستعملت أكثر شكركَ عند أصغر نعمةٍ عندكَ؛ فجريتْ في ميدانِ الزيادةِ من الخيرِ وطمِعتَ في العفوِ والرِّضا.

وإذا عرفتْ أنَّ الإساءة منك خذلان مِنهُ أليك، وإنهُ من طريقِ السخطِ فرغت إلى التضرُّع والاسْتكَانَة؛ فبادرتَ بالتوبةِ، واستحيت مما تعرف من كثيرِ

(١) السخط: السُّخْط والسِّخَطُ: نقيض الرضا. العين، الخليل الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٤، ص١٩٢.

إحسانهِ. أنْ تتضرَّع لهُ بقَلْبِك اسْتكانةً فزادك الإحسانُ جُهداً ثمَّ التمست لطيف الشكرِ على انتقالِك عن الإساءة ثمَّ الشكر على تحويلك إلى الإحسان؛ فإذا أنت في جميعِ أحوالك زايدٌ شاكرٌ لمْ يعجزكَ معرفة الإحسان مِنْ أين فشَكرتَ ولا معرفةُ الإساءة من أين؛ فاستغفرتَ فهذا أصلٌ يتفرَّع منهُ فنون الخير وتعلق بهِ جماعُ أبواب الشرِ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلا بِاللهِ العليِّ العَظيم.





العارفون يغوصون في بحرِ الرّضا، ويسبحون في لجَّةِ الصفا، ويُخرجون جواهر الوفا، لا جرم يصلون إلى الحقِّ في السرِّ والخفاء[1].



الحَارِثُ بن أَسَد المُحَاسِبيّ

(١) تذكرة الأولياء - فريد الدين العطار (٦٢٧هـ)، مصدر سابق: ص٢٩٣.

باب اسْتِدراج[1].

سأل سائل، فَقَالَ: متى يكون العبد كثير الإساءة غير راجعٍ عنها، وهو لا يعَلْم؟

قالَ - المُحَاسِبيّ -: إذا كان عميًّا[2] عَنْ عيوبِ نفسهِ كان كما وصفت وهو لا يعلْم.

فقالَ: ومتى يكون مبصِراً عليها وهو يعلم؟

قالَ - المحاسبي -: إذا عرف عيوبَ نفسه؛ فعرفها وهو لا يَنتزِع عنها. كان مبصِرًا على الذنوب وهو يعلم.

فقال: فمتى يكون مفتونـًا تائبـًا وهو يعلْم؟(*)

قال - المحاسبي -: حين عرف عيوب نفسهِ؛ فعرفها فلمْ يرضى بها، ونازعتهُ نفسهُ إليها؛فجاهدها فغلبها وغلبته كان كذلك وهو يعلْم.

فقال: فمتى يكون محسنـًا وهو لا يعلْم؟

---

(١) اسْتِدراج: يُسارِعُ لهم في الخيرات، قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾، المؤمنون:٥٥-٥٦، الآية. تهذيب اللغة - محمد الهروي (٣٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٢، ص٥٥.

(٢) عميـًا: من عُمَيّ: أي غشاشـًا. العين، الخليل الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٢، ص٢٦٦.

قالَ - المحاسبي -: فإنهُ إذا اشتدَّ خوفه مما قدَّمَ من الإساءة ظنَّ إنَّهُ لا يُقبلُ منهُ معها إحسان وخاف على إحسانهِ أنْ يكون إساءة؛ فإنَّهُ يكون حينئذ محسناً تائباً وهو لا يعلْم لغلبةِ الخوف عليهِ.

فقال: فمتى يكون تائباً وهو يعلْم؟

قال - المحاسبي -: فإنَّهُ إذا كانَ لا يعرف عيوب نفسهِ؛فعرفها فانتقل عنها. كان تائباً وهو يعلْم.

فقال: فمتى يكون مُستدرَجاً وهو لا يعلْم؟

قالَ - المحاسبي -: إذا عرفَ عيوب نفسهِ؛ فعرفها ولمْ ينتقل عنها؛ فيزيد في بصيرتهِ وفي إلحاحهِ[1] الظاهر وأُعجب بعِلْمهِ وقويَ على عبادتهِ فهو مُستدرجٌ وهو لا يعلْم.

فقال: فمتى يكون مُستدرَجٌ وهو يعلَم؟

قالَ - المحاسبي -: هذا محالٌ. لأنَّ المُستدرجُ مالم يَتبينَ لهُ ما هو فيه لا يعِلْم من أين أُستُدرج؛ فإذا عرفَ وعِلْم فقد أُريدَ بهِ خيراً. لأنَّهُ استبان عيباً كان عندهُ حسناً؛ فلما عرفَ وعَرفَ، فراجعَ وخضع، وتضرَّعَ؛ فقبل واستُنفِذ من طريقِ الاستدراج، وَهو العابد المُضيّع للشكْرِ.

والاستدراج اسم لمعنيَيْن:

فمعنى الاستدراج: عقوبةٌ يُرجى منهُ الإنابةِ، واستدراجُ سخطٍ لا إنابةِ فيهِ

(١) ألحَّ: ألحَّ الشَّخصُ في الشَّيء: واظب عليه. معجم اللغة العربية المعاصرة - أحمد مختار، مصدر سابق: ج٣، ص١٩٩٦.

ولا رجوع عنهُ. واستدراج كل عبدٍ على مقدارِ بغيته، فَمِنهُم من يُستدرَج في الدنو مِنْ الملكِ والحظوةِ عندهُ، وَمِنهُم التاجر يُستدرَج في التوسُّع في تجارته، ومنهم العامة تُستدرَج في الأهل، والولد، والغَاشِيَة[1] والتَّتَبُّعِ[2] في الدُّنيا، ويُوطَأُ[3] عقبهُ. ومنهُم من يستدرجُ بعِلمهِ إذا طلبَ أنْ يُكرمَ عليهِ، ويعَظم ويُسمع قولهُ، وذلك خطأٌ مِنْ عِلْمِه وفيهِ استدراجه، والعابد يُستَدرج بالزيادةِ في بصيرتهِ.

وجميع مَنْ ذَكْرنا مِنْ المُستَدرجِين لا يَخلون من العُجبِ والرِياء، كلٌ مزيَّنٌ[4] لهُ ما هو فيهِ، لا يرى إلا أنَّه مقبولٌ منهُ إحسانه، وقد عُمِيَ عن فتنةِ الاستدراج، ومنهُم مَنْ يُنبَّه فينتبهِ فَيراجع الإنابةِ ويتفرغ للاستكانةِ، ومنهُم من مهل على ذلك إلى حضور الأجل بقولِ الله -عَزَّوَجَلَّ- للنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِ﴾[5]، فهذهِ فتنةُ الاستدراج.

---

(١) الغاشيةِ: من الغِشَاءُ لكلِّ شيءٍ مَا تَغَشَّاه كغِشاءِ القَلْب. لسان العرب – ابن منظور (٦٣٠هـ)، مصدر سابق: ج١٥، ص١٢٦.

(٢) التَّتَبُّعُ: فعلك شيئاً بعد شيء. العين – الخليل الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٢، ص٧٨.

(٣) يوطأ: من لغة الوَطاء وهو من المواطأة، وهي الموافقة: أي تواطؤوا السمع والبصر والقلب. شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم – نشوان بن سعيد الحميري (٥٧٣هـ)، مصدر سابق: ج١١، ص٧٢٠٦.

(٤) مزيَّن: الزِّينَةُ مِنْ وَشْيٍ أَو جَوْهَرٍ مُكلَّل بجواهِرَ بعضه عَلَى بَعْضٍ. لسان العرب – ابن منظور (٦٣٠هـ)، مصدر سابق: ج٣، ص٤١٦.

(٥) طه:١٣١، الآية.

وقالَ: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴾[1]، ﴿ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾[2]،وهذهِ فتنةِ الاستدراج. وقالَ - (جَلَّجَلَالُهُ) -: ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴾[3]، ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾[4]، وهذهِ فتنةِ الاستدراج وقالَ: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾[5]، والمُستدرَجُ مفتونٌ لا يشعر بفتنتهِ مُزيَنٌ لهُ ذلكَ مُستحسِنٌ ما فيهِ وهو طالبٌ للزيادةِ منهُ وهو لا يَعلْم؛ فاحذَروا فتنةَ الاستدراج أعاذنا[6] الله وإياكم مِنْها؛ فإن الاستِدراج عقوبةٌ للمضيعين شكر النِعْمِ.

وَسألت: متى(ﷺ) يكون الرجل غير مُوقِن[7]وهو لا يعلم؟

قال: إذا كان فيه أعمالٌ ظاهرها أعمال الموقنين، وباطنها أعمالُ أهل الشَّكِ، فهو يَعمل في الظاهرِ بأعمالِ المُوقنين، وباطنهُ مشتملٌ على تكذيبِ ظاهرهِ وهو لا يعلم أنَّه كذلك.

فهو حينئذٍ غير مُوقن ولا يشك أنَّهُ مُوقِن، وذلك لأنَّ أعمال باطنهِ أولى

---

(١) المؤمنون:٥٥، الآية.

(٢) المؤمنون: ٥٦، الآية.

(٣) المدثر:١٢، الآية.

(٤) المدثر:١٣، الآيةِ.

(٥) الأنفال:٢٨، الآية.

(٦) أعاذَ: حصَّنه به، ودعا اللهَ أن يحفظه. معجم اللغة العربية المعاصرة - أحمد مختار، مصدر سابق: ج٢، ص١٥٣٧.

(٧) الموقِن: هو من اليقين هو سكون النفس وثلج الصدر بما علم، بعد الحيرة والشك، وأنهم يجعلونه ضد الشك. الفروق اللغوية - الحسن بن عبد الله العسكري (٣٩٥هـ)، ت: محمد إبراهيم، دار العلم، القاهرة، د. ت: ج١، ص٨١.

مِنْ أعمالِ ظاهره ويحققُ ذلك قولُ الْحَسَن البصري: ((إنَّ لك سريرة وعلانية، فسريرتكَ أولى بكَ مِنْ علانيتك))[1].

فسألت: متى يكون الرجلُ غير مُوقِنٍ وهو يعلم؟

قالَ - المحاسبي -: إذا عَرفَ فنونَ اليقين وأشكاله، وأعمال أهل الشكِ وأشكاله، فرأى أنَّ باطنهُ مُشتملٌ على أعمالِ أهل الشكِ ألزمَ نفسهُ أنَّها غير موقنةٍ، ولمْ يلْتفت[2] إلى ظاهر أعمالِها، يحقق ذلك قولُ الحَسن: ((لَقد وارَتْ الأرضِ أقواماً لو رأوكم، قالوا: ما يؤمن هؤلاء بيومِ الحساب))[3].

فسألت: متى يألفُ اليقين وهو لا يعلم؟

قَالَ - المحاسبي -: إذا عرفَ أضْدَاد[4] اليقين فنَفَرْ[5] مِنْها، وَعرفَ باطنَ أعمالِ المُوقَنين فَسكنَ إليها وهو مستوحشٌ مِنْ جميعِ أعمالهِ، لما دَخلهُ مِنْ

(١) الحسن البصري إمام الزاهدين، أحمد فريد مزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٠: ص٣٣١.

(٢) يلتفت: أَي التفتْ أبصر إِليَّ. لسان العرب - ابن منظور (٦٣٠هـ)، مصدر سابق: ج٤، ص٦٦.

(٣) القول للْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: ((لَوْ خَرَجَ عَلَيْكُمْ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَا عَرَفُوا مِنْكُمْ إِلَّا قِبْلَتَكُمْ)). جامع بيان العلم وفضله - يوسف بن عبد القرطبي (٤٦٣هـ)، ت: الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، السعودية، ط١، ١٩٩٤: ج٢، ص١٢٢١، رقم الحديث: (٢٣٩٩).

(٤) أضْدَاد: ضِدُّ الشيء وضَديدُهُ وضددته خِلافُه الأخيرة. المحكم والمحيط الأعظم - علي بن إسماعيل، المصدر سابق: ج٨، ص١٤٧.

(٥) نَفر: النَّفْر، بِالْفَتْح: التَّفَرُّق. تاج العروس من جواهر القاموس - محمد الزبيدي (١٢٠٥هـ)، الأحياء، بيروت، ١٩٨٥: ج١٤، ص٢٦٥.

رعبٍ مِنْ أعمالِ أهل التكذيبِ فهو مشغولٌ بما قَد رَاعَه[1] مِنْ إقامتهِ على أعمالِ أضداد اليقين، ولا يعد هذا مما يثبت فيهِ اليقينُ وهو لا يَعلْم.

قلت: فمتى يكون موقنـاً وهو يعلم؟

قال – المحاسبي: إذا عرفَ باطن أعمال أضْدَاد اليقين وظاهرها؛ فجانبها سراً، وجهراً؛ فبلغَ معرفته كأنه موقنـاً هو يعلم؛ فإذا فُتن[2] أو زلَّ[3] أو حَادَ[4] عن الطريقِ رَاجعَ من قريب؛ فعاود طريق اليقين بالتوبةِ والندم.

فقلت: فما بالُ[5] الموقنين يدينون؟

قال – المحاسبي –: ليُعرِّفهم الله بفضلهِ عليهم، وإحسانهِ إليهم عند إساءتهم إلى أنفسهم؛ فيحدد عندهم النِّعم، ويعلوا،ويستثقلوا بالشكرِ؛ فيرقبوا بذلك إلى أعلى درجاتهم.

واعلم أن للموقنين علامةً واضحةً يعرفها، وذلك أن المُوقِن تعظمُ عندهُ

---

(١) راعه: أي أفزعه. شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم – نشوان بن سعيد الحميري (٥٧٣هـ)، مصدر سابق: ج٤، ص٢٦٨١.

(٢) فتن: الْفَاءُ وَالتَّاءُ وَالنُّونُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى ابْتِلَاءٍ وَاخْتِبَارٍ. العين، الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٨، ص١٢٧.

(٣) زل: وَزَل الرجل زلَّة قبيحة إِذا وَقع فِي أَمر مَكْرُوه أَو أَخطَأ خطأ فاحشـاً. جمهرة اللغة ـ محمد الأزدي، مصدر سابق: ج١، ص١٣٠.

(٤) حاد: حدود الله: هِيَ الْأَشْيَاء الَّتِي بَيّن تَحْرِيمهَا وتحليلها، وَأمر أَلا يُتعدّى شَيْء مِنْهَا، فيُجاوَز إِلَى غير مَا أَمر فِيهَا أَو نهى عَنهُ مِنْهَا. تهذيب اللغة – محمد الهروي (٣٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٣، ص٢٧٠.

(٥) بال: وَالْبِلَى مَصْدَرُهُ، إِخْلَاقُ الشَّيْءِ، وَالثَّانِي نَوْعٌ مِنَ الِاخْتِبَارِ، وَيُحْمَلُ عَلَيْهِ الْإِخْبَار أَيْضًا. مقاييس اللغة ـ أحمد بن فارس، مصدر سابق: ج١، ص٢٩٢.

الذنوب والخطأ والزَّلل وإن كانت مغفورةً لهُ لغفلتهِ عنها وهجوم إبليس عليه فيها وطمعُ النفس فيها هو أعظم منها. وأصغر ذنوب العبد عند الموقن كبيرةٌ يظن أن الله -عَزَّوَجَلَّ- مقتهُ[1] عليها وساخط عليه فيها، وأنّه مسلوبٌ بها. ما أنعم الله عليهِ من نعمةٍ لعظمِ خطرٍ صغير العهد عنده؛ فإذا كان العبد كذلك كان موقنًا وهو يعلْم.

فقلت: فمتى يكون الرجل معجباً وهو يعلم؟(ﷺ)

قال - المحاسبي -: هذه مسألةٌ تلحق بجميعِ المُستدرَجين فيها وصفنا؛ فالملوك يعجبون بملكِهم والتُّبَع يعجبون بحَظوتِهم ودونهم من ملكِهم، والتجار يعجبون بما بُسِطَ[2] لهم من الدُّنيا، والعامة[3] يُعجبون بما أوتوا من الأموالِ والأولاد، والعلماء يعجبون بما بُسطَ لهم وأُعطوا من عِلْمِهم والقرَّاء يعجبون بما نالوا من تسليمِهم وسَمتَهُم، والعُبَّاد بما قووا[4] عليه من عبادتِهم؛ فَليسَ من هذه الأصناف صنف إلا وَمِنه العجب عند تضيعُ الشكْر، وليس منهم صنفٌ إلا والرِّياء فيه ثابتٌ وليس منهم صنفٌ إلا وهو يحبّ التعظيمَ،

(١) ماقتهُ: من المقت، المَقْتُ بغض من أمر قبيح ركبه. العين - الخليل بن الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٥، ص١٣٢.

(٢) بسط: البَسْطُ: نَقِيضُ القَبْض. تهذيب اللغة - محمد الهروي (٣٧٥هـ)، مصدر سابق: ج١٢، ص٢٤١.

(٣) العامة: العَشِيرَةُ الْعَامَّةُ. لسان العرب - ابن منظور (٦٣٠هـ)، المصدر سابق: ج٤، ص٥٧٤.

(٤) قووا: استجمعَ القومُ، وأعصو صَبُوا، واستحصدُوا. التَّلخِيص في مَعرفَةِ أسماء الأشياء - الحسن بن عبد الله العسكري (٣٩٥)، مصدر سابق: ج١، ص١٠٣.

والمَحمَدة[1] عند من هو دُونهِ، ومَخَرجُ ذلك كلهُ من التَّحَيُّر[2] فهذا فنونه.

فإذا ثبت التحيُّر في القَلْب ثبتَتْ فنونهِ جميعها؛ فالتحيُّر أصلٌ يتفرَّع منه جِماعُ الشر من الغضب، والطمع، والعجب، وحبُّ التعظيم، وَالرياسةِ ومنه: السفَهُ، والنَّزَقُ[3]، والطيش، والعجلة والحرص، والشرهِ، والمكر، والخديعةِ، والجريرة[4]، والغش، والغلبةِ، والتكبر، والكذب، والغيبة والقسوة، والْغِلْظَة[5]، والشحّ[6]، والجفاء، وقلة الحياء[7] مع جميعِ فنون الشر.

فإذا أثبتَّ التواضعَ في القَلْبِ، ثبتَ معه جماعُ الخير: من الرقةِ، والرّأفة[8]، والرحمة والاستكانة، والقنوع، والرّضا، والتوكل، وحسن الظن، وشدة

---

(١) المحمدة: الحَمْدُ: نقيض الذَّمّ، يقال: بَلَوته فأحْمَدْتُ' أيْ وجَدْتُه حَميداً محمودَ الفِعَال. العين – الخليل الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٣، ص١٨٨.

(٢) التحير: قِلَّةُ احْتمالِ النِّعْمَة. المحكم والمحيط الأعظم – علي المرسي (٤٥٨هـ)، مصدر سابق: ج٩، ص١٦٠.

(٣) النزق: خفة في كل أمر. العين – خليل الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٥، ص٩٢.

(٤) الجريرة: الجُرْمُ والجنايَةُ. معجم ديوان الأدب – إسحاق بن إبراهيم بن الحسين (٣٥٠هـ)، ت: أحمد مختار، إبراهيم أنيس، دار الشعب، القاهرة، ٢٠٠٣: ج٣، ص٨١.

(٥) الْغِلْظَة: يُوَلِّي أَعْدَاءَه شدَّتَه وبَأْسَه. تهذيب اللغة – محمد الهروي (٣٧٥هـ)، مصدر سابق: ج١١، ص٢٠٧.

(٦) والشح: الْبُخْل، وَهُوَ الْحِرْص. مصدر نفسه: ج٣، ص٢٥٥.

(٧) الحياء: الاستحياء. مجمل اللغة، أحمد فارس، مصدر سابق: ج١، ص٢٥٨.

(٨) الرّأفة: الرَّحْمَةُ. العين – خليل الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٨، ص٢٨٨.

الحياء، وأنَفِ الطمع، وإخماد النفس، وسلامة الصدر، وبذل المعروف، والتشاغُل بالنفسِ، والمبادرة بالخيرِ، والانتقال عن الشرِ. كل أمرئ على قدر ما فيهِ من التركيبِ يكون فعله على قدر ذلك، وجزاؤه على قدرِ ذلك.

وإن كنت تسأل عن العُجبِ الذي يلحق بأصحاب الأعمال من العُبَّادِ؛ فسأخبرك بعظيمِ فِتنهم وبليتهِم؛فتوقَّهَا واحذرها واستعن بالله تعالى؛ فإنهُ ليس شي أعجب إلى عدو الله تعالى من فتنةِ العابد، لأن فتن أهل الدنيا مكشوفة بطلبِهم الدنيا؛ فالناس قد عرفوها منهم؛ فمنهم من يحتملها وهو يعلم، وهو مفتون بها؛ فأما فتنة العابد؛ فأعظمها فتنةً وأشدها صرعةً، لأنه قد ترك عمارة الدنيا وجدَّ في طلبِ الآخرة، وكَابد[1] المَفاوِز[2]، والعِقَاب، وجاهد نفسه على ترك الدنيا لمعرفةٍ وأقبل على طلب الآخرة إيثاراً[3] لها بالتصديقِ وحسن الإرادة.

غير أن الله تعالى ممتحن هذا الخلق في كلِ أحوالهم في تمسكِهم بالدُّنيا وفي(*) تركهم لها وفي طلبهم الآخرةِ وجعل في كلِ فرع من ذلك مؤونة من الصّبرِ، ووعد إبليس وعداً فهو مُنجزه له إلى يومِ القيامة بأن أسكنه وذريته صدورَ بني آدم يجرون منهم مَجرَى الدم؛ فذلك للمطيعِ، والعاصي، وأنبيائه

---

(١) كابد: قَاسَاهُ، شدَّة ومشقة. لسان العرب - ابن منظور (٦٣٠هـ)، مصدر سابق: ج٣، ص٣٧٧.

(٢) المفاوِز: الفَوْزُ الظَّفَرُ بِالْخَيْرِ والنَّجاةُ مِنَ الشَّرِّ، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفازَةٍ مِنَ الْعَذابِ.
انظر: المصدر نفسه: ج٥، ص٣٩٢.

(٣) إيثار: اتِّجاه اهتمام الإنسان وميول الحبّ فيه نحو غيره وقبل ذاته. معجم اللغة العربية المعاصرة - أحمد مختار، مصدر سابق: ج١، ص٦١.

وأوليائه وذلك في حديث النبي (صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)حين قال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلا ولهُ شَيْطَانٌ قَالُوا: وَإِيَّاكَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: وَإِيَّايَ، إِلَّا أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ»[1] .

فليتبين للعابدِ في عبادتِه أن ينفي الشيطان من قلْبه؛ فإنه يزعجه من المسكنِ الذي مُكِّن فيه غير أنه إذا كان متيقظَ القَلْب يئس؛ فيخلَسُ[2] فليس لهُ سبيلٌ إلا مع الغفلة من العبادِ، وطبعَ الخَلق جميعـًا على الغفلةِ والتيقظ، وأيَّد العبد بالمعونةِ لمكابدتِه؛ فليس أحد أحوج إلى صحةِ التركيب من هذا العبد الذي قصدَ فصدَّ خلافه. وقوي على ترك الأسباب التي يصل بها ولد آدم من فنونِ الشهوات؛ فحذف ذلك أجمع وخلقها منه، ثم قَرب من العقبة[3] التي إن نجا منها.

وصل إلى الجنة بإذن الله، فتجرَّد له إبليس وعلم أنه لم يتولَّه إلا لهذهِ الدرجة، إن سلم منها نجا وعَلم أنه إن أضلَّه فيها أضلَّ خلقـًا كثيراً؛ فلا يسلم منه إلا بإذن الله إن شاء الله، وإلا أعطبه[4]. أو يستعيذهُ الله تعالى برحمتِه.

سَعيُ العبد يَمنح لهُ مرتبة، ويجمع لهُ قَلْبه،وذهنه، ويمدد عِلمه بما يأتي،

(١) مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل (٢٤١هـ)، مصدر سابق: ج٦، ص٣٢٠، رقم الحديث: (٣٧٨٠).

(٢) يُخْلَسُ: خَلَسْتُ الشَّيْءَ خَلْسَةً مِنْ بَابِ ضَرَبَ اخْتَطَفْتُهُ بِسُرْعَةٍ عَلَى غَفْلَةٍ وَاخْتَلَسَهُ. معجم اللغة العربية المعاصرة - أحمد مختار، مصدر سابق: ج١، ص٦٧٧.

(٣) العقبة: العَقَبة: الْجَبَل الطَّوِيل يَعرِض للطَّريق فيأخُذُ فِيهِ. تهذيب اللغة - محمد الهروي (٣٧٥هـ)، مصدر سابق ج١، ص١٨٠.

(٤) أعطبه: هلكه. . شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، الحميري (٥٧٣هـ)، مصدر سابق: ج٧، ص٤٦١١.

وبما يكثر من عبادتِه وَينفذ معرفتِه لمكابدةِ عدوه بمَلّةٍ[1]، يُؤَيِّس نفسه من عَملِها؛ لطلبِ الثواب، ويلزمها أيضا لو أنها تقطَّعت في عبادتِها. أنها لَمْ تبلغ درجة العفو العظيم مما جنتْ نفسه من الإساءةِ. ولو أن تلك العبادة والإحسان كانت لذنبٍ واحدٍ من جميعِ ذنوبه لا سْتَأْهِل[2]. ولو إنه تعرَّض للعفو عنه بمثلِ جميع إحسانه، مثل لو يقطع عمر الدُّنيا عبادةً؛فوردَ يوم القيامة الموقف، وكان جميع عبادةِ أهل ذلك الموقف في ميزانِه، ثم ذهب من ذلك ذنب من جميعِ ذنوبه، وشفعوا فيه.

كان قد أُعطي، وأُعطوا عظيماً؛ فإلى الله أشكو غفلتها وقلةِ معرفتها بما نحن إليهِ سائرون، ولا قوة إلا بالله؛ فكيف يجمع إساءاته وعظيم ذنوبهِ مع قلةِ ما ستُقبل إجهاراً للتوبةِ والمراجعة، ثم يُحمِّل نفسه ما استطاع؛ فإن عارض إبليس أو رفعت نفسه رأسها ليذكر إحسانها (*) بما قد عرفهُ الله تعالى من قديمِ إساءتها،وحديث عيوبها؛ فانقمَعت وزجرَ عدوه عندما أراد من خديعتِه ليوقَعه في العُجبِ والباطل؛ فلو كان عُجب من حقيقةِ احتمال نفسه لطاعةِ الله بإطْراحٍ[3] لها، ومقت؟

---

(١) مَلّة: جَمْرَة يخالط الرماد. جمهرة اللغة، الأزدي (٣٢١هـ)، مصدر سابق: ج٢، ص٩٨٨.

(٢) يَسْتَأْهِل: يستحق. وستأهل أَن يُكرَم، بِمَعْنى يَستحقّ الْكَرَامَة. تهذيب اللغة – محمد الهروي (٣٧٥هـ)، مصدر سابق: ج٦، ص٢٢١.

(٣) اطِراح: رميت الشّيء رمياً ورميت بِهِ. المخصص – علي المرسي (٤٨٥هـ)، مصدر سابق: ج٤، ص١٠١.

كان أولى ألا يشاء بهِ مع صدقِ نفسٍ في الطاعةِ والرجوع إلى الشكْرِ، فكيف به إذ عُرض لهُ بعُجبٍ باطلٍ ليس فيه مؤونةٌ ولا احتمالٌ؛ فَالْآن حين أُعرِّفك باطل ما قد عُوضت بهِ، وأزجرك بعونِ الله صاغراً[1] أردُّك على عقبيك[2] ناكصاً[3] محسوراً، وأُلزمها الذنب والريبة قديماً وحديثاً، وارجع إلى الذي أمكنني من أمرك وعرَّفني عداوتك، وقوَّاني على خلاف نفسي، وعرفني عيوبها بالشكْرِ لهُ معترفاً لهُ بالتقصير بالنِّعم مُقراً لهُ بالتَّفضُّلِ، مستجيراً بهِ راغباً إليهِ في العصمةِ منك، عائذاً من شرِّكَ، وشرِ حزبك، وخيلكَ، ورجالكَ، ومن شر أتباعك.

فإذا رقَى العبد إلى هذه الدرجة، وأُعطي هذه المعرفة؛ فلا يكون لهُ همٌ،ولا مسألة، ولا إرادة إلا النقلة عن ضيق الدنيا وغمِّها مخافة أن تُعارضه فتنةٌ من فتنها تحول بينه وبين معرفته إلى راحة الآخرة ورَوْحِها، ليأمن فيها من نزعاتِ إبليس وخلاف نفسه.

قالَ بعضهم أخاف أن يهجم عليَّ ما يحول بيني وبين الإسلام وهو من الصفوةِ التي اختارها الله تعالى لصحبةِ نبيّه في زمانٍ لمْ تَهج فيهِ الفتن، ولمْ

---

(١) صَاغِرٍ: غير باعد كن قريباً. معجم مقاييس اللغة – أحمد بن فارس، مصدر سابق: ج١، ٢٦٨.

(٢) (عتّب: عتبة، أي: اتَّخذ عَتَبات: أي: والعتَب ما دخل في أمرٍ يُفْسِدُهُ ويُغَيِّرُهُ عن الخلوص). العين – الخليل الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٢، ص٧٥.

(٣) النُّكُوصُ: الرُّجوع إِلَى وَراء. تاج العروس من جواهر القاموس – محمّد الزيدي، مصدر سابق: ج١٨، ص١٩١.

تختلف فيه القُلوب خَاف مع سابقته وجهادهِ مع رسولِ الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أن يحكم عليه، أقل مما أنتَ فيهِ فيحول بينهُ وبين ما كان يعرف من حلاوةِ الإسلام؛ فكيف بكَ بلا سَابقةٍ منها إلا في الشر، ولا حلاوةٍ عرفتها قديماً من الإسلام إلا حلاوة المعاصي، وأنت نازلٌ في دولةِ الفتنة، وزمانِ الشر تُحب البقاء طمعاً في زيادةٍ فهذهِ خدعةٌ من النفسِ تحبها للبقاءِ لتجني عليك الذنوب وتزيدك ثقلاً على ثقلك فهي تطمع في البقاءِ للزيادةِ، وهي تتعجل منك النقص فيه، ولمْ تنعم أنتَ عليها حباً قصيراً للبقاءِ؛فخدعتك فيها وأنتَ لا تعلم أحوالك.

وأما إبليس فهو يخوِّفك مع تعجيلك حُبّ الخروج مِن الدنيا، وطمَعَك في البقاءِ، فتخويفه إياك دفعٌ عن خيرٍ تناله بقلْبِك، وطاعةٍ تستجوبها إلى قَلبك من غير أن يمنعك ذلك من خيرٍ تدفعه أو شرٍ تدفع عنه إلى بلوغ أجلك، وليس حبّك للموتِ بالذي ينقص عمرك يوماً واحداً ولا ساعةً (۞) واحدةً حتى تستوفي في أقصى مدتك فيها، وتبلغ أقصى عمرك منها، غير أنه خوَّفَكَ شراً هو خيرٌ فصدّقته وطمِعتَ، وكانت عقوبة مثلك أن يُحال بينك وبين ذلك الخير الذي به تُجْتَلَبُ فنون الخير؛ فلم تنله ولمْ تصل إليه، وأنت تعرف أن ذلك لا تستطيع بلوغه حتى تتوب مما صدّقته من كذبه، وما خوَّفكَ من الشرِ الذي هو خيرٌ تحكم عليه إن أحببت الموت، إلا أن تستبدل بهِ حُسن الظنّ بالله تعالى.

ولو وردَ عليك الموتُ الساعة رضيت، وتنصرفُ عن طَمَعه إياك الزيادة في البقاءِ، إلا أن تحب مفارقته الساعة، معرفةً منك أنهُ لا يَسلم لك معه نوعٌ من الخيرِ تطمع بأن لا يعارضك فيه نفاذٌ فهل سمعت أو رأيت بعدوٍ يحبُّ أن

يلازم عدوه وهو جاهدٌ في عَطبِه[1]، وهو متيقن أنهُ عدو ويكره مع ذلك مفارقته؟

أو هل سمعت؟ أو هل رأيت من يدَّعي أنه مسجونٌ يكره أن يُراح[2]، ويُفرج عنه من سجنِهِ؟ لعمري: إنه من أحبَّ مفارقة صاحب يكرهُ فراقه إنه لنعْمَ الصاحب، وإنّ دعواه لهُ عدو باطل. لعمري: إنه أحبَّ المقام في السجنِ وهو يكرهُ الخروج منهُ. إنه لفي غبطةٍ وسرورٍ، وإن دعواه أنه في سجنٍ لباطلٍ، ولكن العقول تتفاضَل، وتتغَاير، والتقصير في شُكْرِ النِّعَم[3] للعقولِ ظاهر.

فإذا كان المُطيع غير عالمٍ بما يكره من الطاعةِ في عبادته، ولا عارف بمكايد عدوه؛ فيستصغر المخلوقين، وتكون نفسه عنده أنه لاعدل لها في الأنفسِ زكاةً وطيباً، ولعلها أخبثُ الأنفس، وأنتنها رائحةً وأسقطها من عينِ بارِيها[4].

محل ما سوَّلت لهُ نفسه من عَملٍ، فاحتملت لصاحبها مع مساعدته إياها وشدة رضاه عنها مع نحول الجسم، وطول السهر، والصّبر على ظاهر العبادة ما فنى به التولِّي واستمالت به المموهين من العقلاءِ،والطالبين دَرج الطاعات فامتد لها الذكْرُ؛ فامتنعَت؛ فاحتجتْ، وتعظَّمت وتكبَّرت؛فلم يوصل إليها إلا في الحيرةِ، لمْ تبدِّل نفسها إلا للخواص.

---

(١) عطبه: العَطب: الهَلاك. العين - أحمد الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٢، ص٢٠.

(٢) أن يَرَاحَ الإنسانُ إلى الشّيء كأنّه ينشط إليه. المصدر نفسه، ج٣، ص٢٩٣.

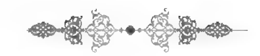
(٣) نِعم: نَعِمَ يَنْعَمُ نَعْمةً فهو نَعِمٌ. المصدر نفسه: ج٢، ص١٦١.

(٤) باريها: أَيْ: كِل الأَمْرَ إِلَى صَاحِبِهِ. معجم مقاييس اللغة - أحمد الفارس، مصدر سابق: ج١، ص٢٣٣.

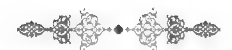
فإذا وصلت إلى هذه المرتبة وحَلَتْ الدنيا بصنوفِ زهرتها لأهلها، وطوَّق عظيم العبادة استدراج وقته، استصغرتْ أعمال من كان قبلها من الصالحين، وطغت عليهم من جهة التقصير، وهي عند نفسها أزهد وأقوى على ماهي فيه من كثيرٍ منهم، فأُتِيَ من ما منه وهو لا يشعر، وصرعه(ﷺ) عدوه من حيث لا يعلم؛ فيا ويحها من نفسٍ ما شؤمها، وأعطبها لمن لا يعرفها. إنه ليُخيلُ إلي أنه لا يسلم منها من يعرفها؛ فكيف من لا يعرفها، وصاحب هذه الصفة التي وصفنا أنه أُتِي من قلةِ معرفتهِ بها؛ فحَادَ عن طريق الشُكْر؛ فليس العجب ممن لم يؤت معرفتها كيف يُكَبب[1]، ولكن العجبُ ممن لمْ يؤت معرفتها،كيف يَسلم.



(١) يُكَبب: يقصر. تهذيب اللغة، الهروي (٣٧٥هـ)، مصدر سابق: ج٣، ص٢٧.



من زيَّن باطنه بالمراقبة والإخلاص لله تعالى، يتحلّى ظاهرهُ بالمجاهدةِ واتِّباعِ السنة[1].



الحَارِثُ بن أَسَد المُحَاسِبيّ

(١) تذكرة الأولياء، فريد الدين العطار (٦٢٧هـ)، مصدر سابق: ٢٩٤ص.

باب الصمت ومخالفة الهوى وغير ذلك

قال بعض الحكماء أني أعُدّ كلامي فيما لا بد لي منه مُصيبةٌ واقعةٌ أستعين باللهِ على السلامة منها، وأني لأعُدّ صمتي عمَّا لا يعينني غمَّا، وحادث نعمةٍ ألتمس الشُكْر عليها إذا علمتُ أن من وراء كل كلمة رقيباً عتيداً؛ فأُنزل ما اضطررت إليهِ من القولِ مُصيبةً نازلةً، وإنَّ ما كُفيتُ من الكلامِ غنيمةً باردةً.

اِعلم أنك في زمانٍ غَلَبَ الهوى فيهِ على الأحمر والأسود، وعلى الجاهل والعالمِ بأمورِ الدنيا والآخرة، فلتعرف نفسك منك أنك لا تثبت لها عملاً بساعديك على أحمال المرونة فيهِ إلا وهواها فيهِ سابقٌ، واعرفها أنها ما احتملت لك من عِلْمٍ بعملٍ في طاعةٍ أو بصيرةٍ بعيوبِ عملٍ في طاعةٍ إن ذلكَ احتمال فسادٍ منها تقدَّمت فيه من طريق هواها، وإن ذلك مردودٌ عليها؛ فإذا عرفتْ ذلك منك يئسَت مِن أن تُثبتِ لها خيراً، ومنها احتملته لك؛ فالزِمهَا إياه، وسَل الله العون عليها في إصلاح فسادِ أعمالها.

وليصُحَّ عندك أنها لا تساعدك على طلبِ معرفة عيوبِها إلا وقد احتضنت من وراءِ ذلك داءً هو أضرّ عليك من عيوبِ عَملِها، فإذا عملت عملاً واحتملت مؤونةً؛ فارجع إلى الله تعالى بالشُكرِ لتسخيرها لاحتمال ما كنت تستثقل منها، واستغفر الله لها من سقمٍ[1] نيتها في ذلك العمل.

---

(١) السَقامُ: المرض، وكذلك السُقْمُ والسقم، وهما لغتان مثل حُزن وحَزن. لسان العرب، ابن منظور (٦٣٠هـ) مصدر سابق: ج١٢، ص٢٨٨.

وإن ظهر لك منها بكاءٌ فاتَّبع من خوفٍ تدّعيه، فاستمع بكاءها بماءِ المعرفةِ منك بقلةِ صدقها في بكائها، فإن ظهر لك منها حزنٌ عند ذكْرِ الآخرة؛ فاتبع حزنها حزن معرفةٍ منك بعظيم كذبها[1] في حزنها، وليكن ذلك بكاءٌ يوجع القَلْب لعظيمِ مصيبتك في كذبِها مصيبةٌ نازلةٌ بك في أحوالها فإنك عصيتَ إن صح لك من عملك شيء أو قُبل منك شيء.

أن يقبل منك استغفارك لها من سَقَمِ نيتها في عملها وبكاء معرفتك، قبل صدقها في بكائها وحزن معرفتك بعظيم كذبها في حزنها؛ فاعلم أني أنما طمعت لك في القبول(ﷺ) ذلك لأنك عرفت الحقَّ على نفسِك لله تعالى؛ فأقريت لهُ على نفسِك بالحقِّ؛ فكان لك في الحقّ حظ ونصيب، وقد قيل: أفضلهم يومئذٍ من عرف الحقَّ في ذلك الزمان فأقرَّ[2] بهِ، وقيل: عارفُ الحقّ كقائلهِ، وقد يأتي على الناس زمانٌ المُقرُّ فيهم يومئذ بالحقِّ ناجٍ.

وإنك لما تبيَّنت أعمالها، وبُكاءها، وحزنها، ومعرفتها في مواطنِ الصّبر، على ما تصبر عليه في الهوى الذي يُضِلُّ ذلك كله فيعود جهلاً، وعلمت الذي ظهر منها من تحمُلِهَا، وبكائها، وحزنها، كان منها على غير أصلٍ من الصّدقِ إذا كانت اللحظة والكلمة والشيء اليسير يهدرُ ما أظهرت وتمحقه فشكْرتَ الله على معرفتك بالحقِّ، وإقرارك بهِ على نفسك لله، وسألته العون عليها وعلى

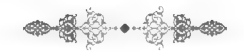
(١) كد: الكَدُّ: الشدة في العمل. العين – خليل الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٥، ص٢٧٣.

(٢) قَرَّ: الْقَافُ وَالرَّاءُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَى بَرْدٍ، وَالْآخَرُ عَلَى تَمَكُّنٍ. معجم مقاييس اللغة – احمد الفارس، مصدر سابق: ج٥، ص٧.

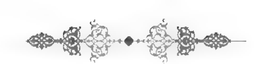
عدول حسن مؤازرته إياك فإنه شَاكرٌ وهبَ لك المعرفة، ثم قبل منك إقرارك بما عرَّفك من الحقِّ شكراً يُثبِّتك عليه في العاجل نورٌ لحكمةٍ في قَلْبك، وجزيل الثواب في الآخرةِ، إنه شكورٌ حليمٌ.

وبالمجرى أيضاً أن ينفي عن قَلْبِك العجب بثباتِ خوف البلوى في نِعَمك، كما ابتلى أصحاب العمامة، وكما ابتلى صديق بني إسماعيل والذي قالَ: «لا يغفر الله لك، وهو من باب الاستدراج فما ظنّ أهل الدّين، ولعل تُبلى بالهوان فتجد ذلك في نفسِك، وترى أنه صنعَ بك مالم تكن أهله ولعلك تُبلى الأخبار بالكرامة من الناسِ فقبلهُ قلبُك، وترى في نفسِك أنه صُنِع بك ما كنت لذلك أهلاً، ولأن تكون نفسك عندك أنها في مثل حالها لعذابٍ أولى بها، ثم تقول: وإن شاء غفر لي فإنه واسعُ المغفرة أولى بها، ثُم تقول: إن ساعدتني ببعض دُنُوي[1].

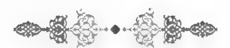
﴿فنسأل الله إلهنا ومولانا أن يهدينا وإياكم بالمعرفةِ إلى معرفتها، والعزمِ على خلافها، والعصمةِ من عدوها، والتوبةِ من ذنوبها، وأن يدخلنا وإياكم في سعةِ عفوه وطاعته، ولا يكلنا وإياكم إليها ولا إلى أي أحدٍ سواه، وأن ينقذنا وإياكم من عاجلِ فتن الدنيا وآجل جميع أهوال الآخرة حتى يوصلنا وإياكم بمنَّتِهِ وفضلهِ إلى رحمتهِ. إنهُ فعَّال لما يريد وهو القريبُ المجيبُ﴾.



(١) دُنُوي: دَنا يدنو دُنُوّاً والدُّون: خلاف الجيّد. جمهرة اللغة - محمد بن الحسن الأزدي (٣٢١هـ)، مصدر سابق: ج٢، ص٦٨٦.



المحاسبةُ تورثُ الزيادة في البصيرة، والكيس في الفطنةِ، والسرعة إلى إثباتِ الحجة، واتساع المعرفة. وكل ذلك على قَدرِ لزوم القلب للتفتيشِ[1].



الْحَارِثُ بن أَسَد المُحَاسِبيّ

(١) حلية الأولياء - أبي نعيم الأصفهاني (٤٢٠هـ)، مصدر سابق: ج٧، ص٨٨.

باب علامة المَرْأَى[1].

قلت: فمتى يكون مرائياً وهو لا يعلم؟

قال المحاسبي: إن العبد لمْ يزل مدهوناً نَأَش[2]، بَين أن يبلغ أشده طلباً للدّنيا، والأثر لهُ في أعمالِ(*) الرِّياء المحض، مُلوكها، وسُوقها[3]عقلاؤها، وجاهلها يتعاملون بالرّياءِ لا يمتنعون من ذلك. الملوك تُعامل الملوك بالرياءِ ويُظهر بعضهم لبعض الإجلال، وهو في الباطنِ يعمل على أن يجمع ملكهِ إلى مُلك نفسهِ، والأتباع يظهر بعضهم للملوكِ الخضوع والاستكانة، ويود السَّايس منهم أنه بقدير على أن يصير هو المَلك، والمَلك هو السايس وكذلك العامة، وكذلك التجار على هذا المعنى وكذلك الصُنَّاع فجميع أعمال طالبي الدّنيا لا تتم إلا بالرِّياءِ. فإذا ارْعَوَى[4] أحدهم، والرِّياء فيه طباع؛فقياسه طَلَبُ الدّين بتلك الطباع.

---

(١) المَرْأَى: وَهِيَ مَفْعَلَة مِنَ الرُّؤْيَةِ. الْعَيْنِ.، لسان العرب - ابن منظور (٦٣٠هـ)، مصدر سابق: ج١٤، ص٢٥٩.

(٢) نَأَش: النُّونُ وَالْهَمْزَةُ وَالشِّينُ كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَخْذٍ وَبَطْشٍ. معجم مقياس اللغة - أحمد فارس، مصدر سابق:ج٥،ص٣٧٦.

(٣) سُوقِيٌّ: مُصْلَحٌ طَيِّبٌ. ونُسِبَ هَذا للعامَّةِ. تاج العروس من جواهرِ، محمد الزبيدي (١٢٠٥هـ)، مصدر سابق: ٢٥،ص٤٣٨.

(٤) ارْعَوَى: رعو، رعي وهو نزوعه عن الجهل وحسن رجوعه. العين - الخليل الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٢ن ص٢٤٠.

فإذا ارتفع إلى العبادة وتعبَّد، وذلك طبعٌ فيه لا يعرفه من نفسهِ لغلبتِه عليه، ومنشأه فيه ويعرفه من نَور الله الحكمة في قلْوبِهم فهم يرون فعله فعل أهل الرياء؛ فمنهم من يمسك على معرفته بصاحبهِ وأنه لو أبدى لهُ عيوبه نفرَ[1] منها ودَبَّ[2] عن نفسه، أو أبطل ما ينسبه إليه فصار عدواً مشاحناً، وقال: يحسدني على ما أتاني لله من فضلهِ من القوةِ على ديني، أو من منقول مُتَعسفٍ مُبتدِعٍ يطعن على أهلِ الخير مما لمْ *يحبهُ العلماء.

فلما عرف الحكيم أهل زمانهِ، وإن زمانه زمان غلبَةُ الهوى، وإعجاب كل ذي رأيٍ برأيهِ اِعتزل نفسهُ ونفرَ عن العامةِ بالمخالطةِ والصحبةِ، وعرف أنه في زمانٍ المعروف فيه منكرٌ والشر فيه قد أحاط بالخيرِ؛فزاولَ نفسه ليقبضها؛فنكَّلت، وأنكرت، وأبت إلا لزوم طباعها الكيانّي[3] ففكر الأديب وقال: واعجباه ممن لا تجيبه نفسه إلى الاستقامةِ بما قد عرفتْ، يريد أن يحمل سواه على ما قد جهلت فوضح لهُ الأمر وقصدَ قصد نفسه يائسـاً من قبولِ أحدٍ منه، بعد ردِّ نفسهِ عليه مع المعرفة بالحّقِ الذي لا ينكره، والعِلْمُ الذي لا يدفعه، وعَجِزُ العامل عن المُجاهدةِ وردِّها عن طباعها إلا مُكرهَةً مغلوبةً؛ فشُغِل بنفسِه عمن سواه، إلا طالبـاً مُلِّحـاً أو مجاملاً مُريداً.

وليس كل العباد أوتوا معرفة عيوب النفسِ، لأَنه أمرٌ خاطرٌ؛ فمن تنبَّه

---

(١) نَفَرَ: النُّونُ وَالْفَاءُ وَالرَّاءُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَجَافٍ وَتَبَاعُدٍ. معجم مقياس اللغة – أحمد فارس، مصدر سابق:ج٥، ص ٤٥٩.

(٢) دَبَّ: دَبَّ النَّمْل يدِبُّ دَبيبـاً، أي مَشَوا على هيمنتهم ولم يسرعوا. العين – الخليل الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٨، ص١٢.

(٣) الكياني: هو من الكيان طبيعة وجوهر. القاموس المحيط – مجد الدين فيروز، مصدر سابق: ج١، ص١٢٢٨.

لذلك فقد نُبِّهَ لعظيمٍ من غير أن يعرف عيوب نفسه، فكيف به لو عرفَ منها شيئًا، ثم وهِبَ له بعد المعرفة سروره بالمعرفة، ثم وهِبَ من بعد سروره بالمعرفة حبّ حلاوة المعرفة، ثمْ وهِبَ (ﷺ) من بعد حبّ وجود المعرفة بالعملِ بما جاءت به المعرفةُ. مِن أصلح عيوب النفس ما كانت النفس تَحسبه على العبد حسنات، فلمْا حدَّ[1] عن القلْبِ العبد رآها سيئات؛ فدأبَ في إصلاحها، فاضطربت عليه عندما كشف الله للعبدِ عن غطاء عيوبِها،وإخفاءِ زينتها؛ فإن هذا العبد من طريقٍ يقعد به عن الزيادة في الأعمال فإنما يُؤتى من استصغاره عظيمـًا؛ فيعمدُ إلى الشكِّ في الفضيلةِ ما أوتي؛ فيفتيه حينئذٍ على قدرِ يقينه بالآخرةِ، وفضيلتها بقدر صون يقينه وتردّده في نفسه بالآخرةِ.

كذلك يكون تردّده في هذا، لأنه بعد فضيلة من فضائلِ الآخرة أوتيها؛ فإن كان ثابت اليقين بالآخرةِ كان ثابت اليقين بما أوتي من أسبابها؛فليمتحن العاقل، إن وجد عاقلاً بيقينه بهذا، فإن كان مُتثبِّتَ اليقين بما أوتيت من نِعمِ الله تعالى مُحقَّقةً لايليها عن ذلك مثل أهل الدنيا جميعـًا عمَّا اِمتن بهِ عليها وجعل لها أهلاً، وإن شكَّ الخلائق فيها؛فليعلم أن ثبات اليقين فيها على قدر ذلك وإن تردَّدَ مع المترددين وَمالَ مع * المائلين * عنها كان يقينه بالآخرةِ على قدرِ ذلك؛ فإذا أقبلتْ النعمة من اللهِ على عبدهِ بمعرفةِ عيوب نفسه، فأول ما يبدئ به الانتقال عن طباع الرّياء، ويعلم أن طباعه التي لمْ تزل فيه وعليها نشَأ طباعُ ريبةٍ وكذبٍ؛ فجدْ في الانتقالِ عنه ولا يكون له همٌّ غير قصد نفسه؛ لأنها مطبوعة على الكذبِ، والكذبُ،والصّدق لا يتقاربان ولا يسكنان في وعاءٍ واحدٍ، إلا أن يغلب أحدهما على الآخرِ؛فينفي ضده.

---

(١) حد: الْمَنْع. جمهرة اللغة، الأزدي (٣٢١هـ)، مصدر سابق: ج١،ص٩٥.

فإذا عرف العبدُ رَيب النفس وفرقها، وكان طالباً للصّدقِ فأولى الأشياء بهِ أن ينفي فنون الكذب عن قلْبه بالجدِّ والحرص، وهو الشُكرُ من العبدِ لحقِّ هذه النعمة، فإذا قصد قصدها بالبغضةِ لها نفرَتْ عنه دواعي الكذب وفنونه، وإنما كان ألفه ذلك من العبدِ لها، وخفتها على قلبهِ، فلمّا أظهر البغضة والاستثقال نفرت عنه غير بينةٍ[1] منه لطولِ صحتها، وشبَّت النفس بها لقربها من طباعِها وشهوتها، والعبد حريص على التقى، والنفس حريصة على الاستبقاء، طامعةٌ في هلاكِ صاحبها من طولِ علاجه ليقيها من ارتجاعِ النفس (؟) إياها.

فلمّا تيقن الصّدق من العبدِ والجّد في انتفاءِ[2] الكذب وفنونه، وشوَّقت للعبدِ حلاوة قبوله؛ فازداد العبد إلى الصّدق شوقاً، وازداد إلى الكذب مقتاً، وإنمّا كان نفارُ الصّدق وفنونه من قلْبِ العبد لغلبةِ الكذب وفنونه عليهِ؛ فتبيَّن العبد بتشوقِ *الصّدْق* إليه.

ولما ثبت فيه ومنه أعمال الكذب؛فلم يفارقها بعد، وازداد حرصاً إلى حرصهِ طمعاً في إقامةِ الصّدْق فيهِ وانتفاء الكذب عنه؛ فالرِّياء من أعمالِ الكذب، والعُجبُ من أعمالِ الكذب، وحبُّ الرياسة والتعظيم والتجبُّر من أعمالِ الكذب؛فمن دَأبَ في نفي الكذب بَرِئ من الرِّياءِ ومن العُجبِ ومن

---

(١) الْبَيِّنَةُ: البُرْهان الحُجّة الْفَاصِلَةُ. لسان العرب – ابن منظور (٦٣٠هـ)، مصدر سابق: ج١٣، ص٥١.

(٢) انتفاء: من النفي نفيت الرَّجل وغَيرَه نَفْياً إذا طردتَه. العين، الخليل الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٨، ص٣٧٥.

جميع دواعي الحسد والشر، وإذا خلا من ذلك ثبت فيهِ الصّدق بفنونِه؛ فإن أحببت أن تجعل الصّدق في هذا الموضع هو اليقين بالآخرةِ، وتصديقك لجميع ما فيها وصدقك في جميع أعمالها، ويصير الكذب والشك والتكذيب بالآخرة، فتكون جميع أعمالك الظاهرة مثل دعواك الظاهرة؛ فتكون أعمالاً كاذبة وجميع تفسير ما لو *أدركت* تفسيره، وَأَجل[1] هذا الباب من طريقِ الصّدق والكذب.

فإن عرفت هذا الباب عرفت جميع الرتب وإن قويت على العملِ به قويت على دفعِ جميع ما يقال من أعمالِ الكذب والمعونة من الله تعالى. والعبد محمودٌ على نعمةِ الإحسان والعون عليها من اللهِ ومذمومٌ على الاشتباهِ والعاصم منها الله؛ فالله مشكورٌ على جميعِ أحوال بني آدم، لأنه إن أحسن منهم محسنٌ؛فنعمة الإحسان واقعةٌ عليهِ ملتمسةٌ منهُ الشكر، وإن امتنع عن الإساءة؛فنعمة العصمة واقعةٌ عليه ملتمسةٌ منهُ الشكر، وإن تمادى بالإساءةِ؛فنعمة التوبة واقعةٌ عليه إذا كانت له مبسوطة غير مأخوذة عند إساءته؛ فمتطوع زاده، والتوبةُ ملتمسةٌ منه الشكر وهي أعظمها نعمة.

قلت: فمتى يعلْم أنه يعلْم؟

قال - المحاسبي -: إذا زِيدَ في عملهِ فأزداد بهِ وجعـًا، عَلِمَ أنه يعلم لقوله من ردّد عِلْمـًا يزدد وجعـًا فسُمي ما يزدادُ بهِ وجعـًا علمـًا؛فلما وصل إلى القَلْب وجعُ العِلْمِ علمتَ أنك قد علمتَ.

---

(١) وأَجَل: تصديق لخبر يخبرك به صاحبك فيقول فعل ذلك فتصدقه بقولك له أجل، لسان العرب- ابن منظور (٦٣٠ه)، مصدر سابق: ج١١، ص١٢.

قلت: فمتى يعلم إنه لا يعلم؟

قال - المحاسبي -: إذا كثُر نفاقُهُ[1] وكثر كلامه في فنونٍ من العِلْمِ، وانتشرت كتبه، وازداد قَلْبه على ذلك غِلظةً وقسوةً حتى يعرفها هو من نفسهِ، فقد عَلْم أنه لا يعلم، وإن كثر ذلك منهُ.

قلت: فمتى ينتفع بعلْمِه؟

قال - المحاسبي -: إذا كان (ﷺ) مُطيعاً لعلمِه متّبعاً دلالته[2].

قلت: فمتى ينفعه علمه؟

قال - المحاسبي -: عُد إذا كان على ما وَصفناه،ورجح بِهِ ميزانه وانتفعَ بعلمهِ.

قلت: وهل ينتفع بالعلْمِ سواه؟

قال - المحاسبي -: إذا كان هو عاملٌ بعلْمِ نفسه، وعلم سواه، نفعه تعليم غيره.

قلت: فمتى ينفع غيره بعلْمِه؟

قال - المحاسبي -: إذا كان هو عاملٌ؛ فأفاد عِلمه سواه،فيعمل به؛ فحينئذٍ ينفعه عمل غيره.

---

(١) نفاقه: من النفاق لأن صَاحِبَهُ يَكْتُمُ خِلاَفَ مَا يُظْهِرُ. مقاييس اللغة - أحمد فارس، مصدر سابق: ج٥، ص٤٥٥.

(٢) دلالته: أي عرفتُه. تهذيب اللغة - محمد الهروي (٣٧٥هـ)، مصدر سابق: ج١٤، ص٤٨.

قلت: فمتى يضرُّ عِلمه غيره؟

قال - المحاسبي -: إذا ضيَّع هو شكر الله في عِلْمِه؛فيعمل بخلافِ عِلْمِه؛ فيما سوأ به في عملِه وخالفوا ما استفادوا منه؛ فكما ضيَّع العالم عِلْمه ضرّ غيره علمُه.

قلت: فمتى يضرُّه عِلْم غيره؟

قال - المحاسبي -: إذا كان هذا المستفيد ممن يضيع العمل بعلمِه فيأسى بِهِ غيره كان قد ضرّه علم غيره.

قلت: وكيف يضرّه عِلْم غيره، والعلمُ نافع لكل من استفاده؟

قال - المحاسبي -: ألا تعلم أنك تأسّيْتَ[1] بعلمهِ من أجل ما ظهر لكَ من عملهِ، ولوكان جاهلاً ما تأسَّيت بعلمِه ألا ترى أنه ضرَّك بعلمهِ؛ فإن قال فهل ينتفع بالمعرفةِ إذا كان مُقصِّراً في العملِ قال: لمسألتك جوابان، قال: لأن التقصير في العملِ والمُضيِّع للعملِ له معنى أنه لم يبلغ الشكر على قدرِ النعمة، وهو يعلم بالدلالةِ غير أن عمله قليل، والتضييع للعملِ ما كان منه من عملٍ وإن كثُرَ فهو ضائع.

لأنه خلاف دلالة النعمة؛ فذلك وإن كثرت من صاحبهِ الأعمال فهي خفيفة الوزن لا وزن لها، غير أن المعرفة نعمة أقبلت لاجتلاب[2] الخير إلى

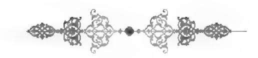
---

(١) تأسيت: من تَأَسَّى، أَيْ جَعَلَ أَمْرَهُ أُسْوَةَ أَمْرِ غَيْرِهِ. مقايس اللغة - أحمد الفارس، مصدر سابق: ج٤، ص٣١٠.

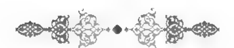
(٢) اجتلاب: من جلب أي جَلَبْتُ الشَّيْء جَلَبًا. تهذيب اللغة، محمد الهروي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج ١١، ص٦٦.

من أقبَلتْ إليه مع قيام من أقبلتْ إليهِ بالشكرِ إذا تمادى بالشرِ مع تضيعِ من أقبلتْ إليه بالشكرِ، فليس أحدٌ قَويٌ إلا من طريقِ الشُكر، ولا ضعيفٌ إلا من تضيعه، لأن النِعم سابقةٌ من الله تعالى إلى خلقهِ، ولأن الله -عَزَّوَجَلَّ- أوجبَ على نفسه لخلقهِ جميعـًا الابتداء بالنعمةِ وهو أولى بالإحسان إلى برٍّ منه. وفرَض عليهم الشكر فرضـًا، ثم أوجب لهم عليه الزيادة منه امتنانـًا، وأوجبَ العقوبة على من ضيَّع منهم شكره امتحانـًا، فصفَحَ عمَّن شاء وعاقب من شاء.





المعرفةُ أصلٌ للصدق، والصدقُ أصلٌ لسائر أعمال البرّ، فعلى قدرِ قوةِ الصّدق يزداد العبد في سائر أعمال البرّ[1].



الحَارِثُ بن أَسَد المُحَاسِبيّ

(١) طبقات الأولياء، أبي نعيم الأصفهاني (٤٢٠هـ)، مصدر سابق: ج٧، ص٨٩.

باب التميز بين الخوف والرجاء.

قال: ينبغي للعبد أن يكون أول شيءٍ يأخذ به لدينه بعد إقرارهِ لله -عَزَّوَجَلَّ- بالوحدانية وأنه خالقه، ورازقه العِلْم بما أمر بهِ، ومعرفته بما نهاه عنه، فإذا عَلْم ما يحتاج إليه من العِلْمِ عرف أنّ قوام ما عَلِمَ الصّدق، وهو الإيمان بهِ، فإذا نظرَ في الذي أُمِر بهِ عرفَ أنّ قوام إيمانه اليقين؛ فإذا (*) أيقن بما آمن بهِ، وعرفَ أن تمام إيقانه الرجاء، والخوف؛ فإذا نظر في رجائهِ وخوفهِ عَلْم أن الرَّجاءَ لا يتم إلا بالرغبة، والخوف لا يتم إلا بالرهبة، فإذا هو فكَّر في الرجاءِ عَلْم أن الرَّجاء لا يكون إلا بالقلْبِ، وكذلك الخوف لا يكون خوفاً إلا بالهربِ؛ فإن قالَ قائل: فكيف يكون حال الرَّاغب الطالب؟

قال: ينبغي أن يكون مسروراً شاكراً، والرَّاهِبُ[1] الهارب يكون مهموماً محزوناً عندنا.

قلت: لمَّا قالَ إن الراغب الطالب يرجو الثواب، ولأنَّ الراهب الهارب يخاف العقاب.

قلت: فبأي شيءٍ ينالُ ما وصفت؟

قال - المحاسبي -: لا ينال ما وصفته إلا بالصّبرِ.

---

(١) الرَّاهِبُ: العابد. شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم - نشوان الحميري (٥٧٣هـ)، مصدر سابق: ج٤، ص٢٦٥١.

قلت: فما خير أداة للصّبرِ؟

قال - المحاسبي -: الزهد والزَّاهد في الدنيا في حصنٍ حصين شامخٍ، وقد جَمعَ لهُ الزهد، خيرَ الدنيا مع رجائه خيراً لآخرته.

قلت: فما قوام ذلك كله، والذي انعقد له عُراها[1] وإليهِ مصيرها، ومأواها، وبهِ جزاؤها؟

قال - المحاسبي -: العقل.

قلت: لما؟

قال - المحاسبي -: لأن الله لم يخلق خلقاً هو أحبُّ إليهِ من العقلِ.

قلتُ: فالعقلُ الذي أعطاه لبني آدم أي شيءٍ هو؟

قال - المحاسبي -: العقلُ عقلان، عقلُ الدِّين، وعقلُ الدُّنيا.

قلت: بَيِّنْ لي عقل الدِّين؟

قال - المحاسبي -: ما وصفت لك.

قلت: فعقل الدّنيا؟

قال - المحاسبي -: الصناعات كلها والحِيلةُ منها.

قلت: فعقلُ الدِّين؟

قال - المحاسبي -: فيه ما لكَ، وما عليكَ، والثواب الذي لكَ منهُ، والعقاب على ما عليك منه.

---

(١) عراها: شكيم القدر شابهه وقاربه. مجمل اللغة - أحمد فارس، مصدر سابق: ج١، ص٥١٠.

فاعرف ما ذكرت تأخذ بحظك إن شاء الله تعالى، واعلم أنك مطبوعٌ طباعـاً حسنةً وسيئةً فأعْدَا عدوِّك سيئات طبائعك، وأولى أوليائك حسناتها؛ فقابِل بعض ما قابَلك منها ببعض. واعلم أنك قد بُليتَ من معالجةِ طبائعك، ومكابدة أهوائك، ومجاهدة نفسك بحربٍ لا حرب أنفع لك منها، فإن رزقت الظفر منها، وإلا أضرّ ما عليك الهزيمة منها. ولا حرب إلا سيحتاج صاحبها إلى المادة؛فاشهد لحِلْمِك من حِلْمِ الحكماء، ولعِلْمك من عِلْم العلماء ولعقلك من عقولهم، فإن عَقل الفرد لا يقوى على أمر العامة، ولا يتكافأ بهِ في أمر الخاصة.

واعلم أن رأس ما يُصلحك ويصلح به على يديك الزهد في الدنيا، وإنما الزهد باليقين واليقين بالعبرِ، والعبر بالفكرِ؛ فإذا أنت تفكَّرت في الدّنيا لمْ تجدها أهلاً أن تبيع بها دينك ونفسك ووجدت نفسك أهلاً أن تكرمها بهوانِ الدّنيا؛ فإن الدّنيا ذميمة[1] الله تعالى، وذميمة المرسلين، وهي دار البلاء ومنزل قَلْعَة[2] (ﷺ)؛ فأحذرها أشدّ الحذر. إياك والشهوات، وليكن ما تستعين بهِ على تركها عِلمُكَ بأنها مُولّهةٌ[3]، لعقلِك مُشغلةٌ لقلْبِك، مُبهجةٌ لرأيك، مشاغلةٌ لك عن معاظم أمورك شديدةُ التبعة عليك في آخرتك، فإنما الشهوات لعبٌ.

فإذا حضر اللعب غاب الجّد، ولا تقوم الدنيا ويصلح الدّين إلا بالجدِّ.

---

(١) ذميمة: من الذَمّ الذَّالُ وَالْمِيمُ فِي الْمُضَاعَفِ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ كُلُّهُ عَلَى خِلَافِ الْحَمْدِ. معجم مقاييس اللغة - أحمد فارس، مصدر سابق: ج٢، ص٣٤٥.

(٢) قُلْعَة: أي رحلة. وقيل: القوم على قلعة تعني القوم على رحلة. جمهرة اللغة - محمد الأزدي (٣٢١هـ)، مصدر سابق: ج٢، ص٩٠٤.

(٣) مُولَّهة: إذا استخفّها الْحزن. المصدر نفسه: ج٢، ص٩٩٠.

*فلا تلقاها وإن كان نالَ منها إلا مُستشعراً خوفاً زائلاً منها؛ فإن نازعتك نفسك إلى اللهوِ واللذات؛ فاعلم أنها نزعت بك إلى شرٍ مُنتَزِع وأرادت بك أفضح الفضوح؛ فعالها مغالبة ذلك، وامتنع منها اقتناع ذلك، ولاً تُداهن هواك في اليسيرِ؛ فتطمع نفسك منك بالكثيرِ؛ فإن لمحلِ العمل ضراوة، ومتى عوَّدت نفسك القليل دعتكَ إلى الكثيرِ.

واعلم أن أسعد الناس أدركهم لهواهِ. إن كان هواه في رشدٍ؛فقد سَعِد، وإن كان هواه في غير رُشدٍ فقد شَقي بما أدرك منه، وقد يَمنع الحَلْيم من استكمالِ لذّةِ الشهوات خوفُه إياها ووجلةُ منها إلى الندم، ومخافة الندم منها وهذه صفة الزاهدين؛ فاعقلها.

إن أولياء الله إن أقبلتْ إليهم الدنيا لمْ يكبروها، وأن أدبرتْ عنهم لمْ يذكروها. يراهم الناس وليسوا منهم، تحسبهم منهم وليسوا منهم. ليست لهم ديارٌ يعمرونها فيطمئنون إليها، إنما ديارهم وقصورهم وعشائرهم قد أخذت الدنيا بأنفاسهم؛ فلولا ما يستريحون إِليهِ من مناجاةِ سيدهم لقاسوا من معاشرةِ الدنيا وأهلها طول العَنَاء.

فهم طلقاءُ رَبِّهم من عمومِ الدّنيا، وعتقاؤه من همومِها، طيب حياتهم من حياةٍ، وأحسن مقامهم من مقامٍ؛ فهم الذين قابلوا نفوسهم، وجاهدوها عمَّا قيلَ بهم إليهِ من راحةِ الدّنيا ونعمها حتى رفضوها، ليسوا بمنشغلين بالأملاك المُعَقَّدة[1]، ولا بأصحاب القصور المُشيَّدة، ولا الأنهار المطّردة[2] الذين

(١) المعقدة: من جداد الطَّلْح: صِغَارُه. تهذيب اللغة - محمد الهروي (٣٧٥هـ)، مصدر سابق: ج١٠، ص٢٥٠.

(٢) المطردة: من اطّرد، واطّرَد الماءُ: إذا تَتابَع سَيَلانهُ. المصدر نفسه: ج١٣، ص٢١٢.

عكفوا على حبِّ الدّنيا وحُطامها يعتدُّون ببعضها، ويطمعون ببعضها علاجاً بعد علاجٍ لا يسأمون من جمعها، ولا تنقضي أمانيهم من شهواتها يبيت آخر عشَّاقها متمنياً للذاتِها،وألوانها؛ فلا يزال آخر الحساب مخدوعاً مُعلَّلاً حتى حضرت منيته[1]؛ فكثُرت حينئذٍ ندامته، وحسرته، وذلك هو الخسران المبين.

طوبى لقلْبٍ صبر،وتوكّل على ربّهِ ولم يتذكر الراحة جزعاً[2]، طوبى لقلْبٍ تَقيٍّ فرَّغ قلبه من ذكْرِ الشهوات، فأتقى الشهوة على طلبِ الهدى ليس (ﷺ) كل من يبتلى يَهلك، ولكن من لا يصبر للبلاءِ يَهلك؛ فلا تعجب من البلاءِ الشديد ولكن العُجب من الصّبرِ كيف يحملهُ العبد. العِلْمُ دليل على الأعمالِ، والعقولُ معادن للرأي فإذا تكامل ذلك في العبدِ نتجت الحكمة في القلوب فتفرَّعت على الألسن؛ والعِلْمُ مُفرِحٌ للعاملين وذوي العقول. مُفزعٌ لذوي المساواة في المضادِ والمنافع، وذوي المعرفة. مُفزعٌ عند اشتباه الأمور.

فجَالسْ يا أخي العلماء، وشاور العقلاء، وافرغ إلى ذوي المعرفة عند الغفلات من الأمور. وسأصف إليك وصف العلماء،* وذوي الألباب من العقلاء، وذوي البصائر من أهل المعرفة؛ فأما من خاف الله في سريرته أعظم من خوفهِ في علانيته، وظهرت خشيته عليه في قوله وفعله؛ فذلك العالم حقاً، وبذلك وصفهم الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) منيته: تعني "منَى" الله تعالى لشيء مَنياً قدّره والمَنا القدر والمَنِيَّة منه. الأفعال - علي بن جعفر السعدي (٥١٥هـ)، مصدر سابق: ج٣، ص٢٠٤.

(٢) جزعاً: من الجزع وهو نقيض الصَّبْر. العين، الخليل الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج١، ص٢١٧.

فإذا لقيتهم فحطَّ عند رِحَالهم، واخفض لفضيلةِ علْمهم جناحك؛ فأما العقلاء فمن عَقَل عن الله تعالى مواعظه، وعرف ما يضرهُ مما ينفعه؛ فاتَّبعَ دلالات عقله لما ينفعه، واجتنبَ ما خالفه وكان التذكُّر شعارهُ، فذلك هو العامل.

فإذا لقيتهم فَاسكنْ إليهم قلْبك، وشاورهم في أمورك واصبر عن رأيهم، وأمّا ذوو المعرفة فَتَراهُ قريناً بعيداً، أصم سميعاً، صموتاً نطوق، سهلاً كزّاً[1]، سمحاً شحيحاً، شجاعاً جباناً، أبله فطناً، عالماً جاهلاً، متغرِّماً صابراً، ضحوكاً باكياً، باسماً عبوساً، مختلطاً مستوحشاً.

ألوفاً نافراً،حذِراً خائفاً راجياً، أحمق عاقلاً، ممتنعاً موجوداً، معروفاً خاملاً، مهموماً مسروراً،راغباً زاهداً، صادقاً كاذباً، خائفاً آمناً، موقناً مُكذباً، راضياً ساخطاً، عزيزاً ذليلاً متواضِعاً متعظماً، نائماً يقظاناً، سلساً للقِيَاد صعب المرام، حلواً مُراً أنسُه الوحدة، وفرحُهُ الحزن، وسروره الهّم وضحكته البكاء، وكلامه الصمت، وقوله الفعل، وجوابه الاسترجاع وموعظته آدابه وفعاله. إن رأيتهُ خِلتَه[2] مختلطاً، وإن كلَّمته خِلتَهُ أبله، وإن اختبرته خلته ملكاً متوجاً عظيماً، لا يخلط هزلاً بجدٍّ، ولا يؤثر دنياه على آخرته، مشغولٌ عن الخلائق باشتغاله بنفسه، فالناس منه في راحةٍ، ونفسه منه في تعبٍ.

---

(١) كزاً: كل مَا ييبس وانقبض. المخصص - علي المرسي، مصدر سابق: ج٣، ص٢٩٥.

(٢) الخَلَّةُ: الخَصْلة تكون في الإنسان. المنجد في اللغة - علي بن حسين الأزدي كراع النمل (٣٠٩هـ)، مصدر سابق: ج١، ص١٩٤.

وقال قائل: لا تفرح بكثرة العملِ مع قلةِ الحزن؛ فإن قلَّة حزن الآخرة الدائم في القلْبِ ينفي كل سرور الدنيا فيه، وقليل فرحٍ وسرورٍ فيه بدوامه ينفي جميع حزن الآخرة، والفرح لا يصل إلى القلْبِ إلا مع غفلته، وغفلة القلْب فهي ميته (*)، والحزن يستبطئه المُتيقِّظ من خالصِ عين اليقين.

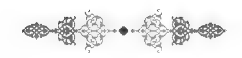
وعلامة ثبات اليقين في قلْبِ العبد استدامة الحزن فيهِ، ولا شيء أبلغ في الزهدِ من ثباتِ *حُزن* الآخرة في العبدِ، وعلامة ثبَات الحزن في القلْبِ أُنسهُ بالوحدةِ، والحزن يهيج بالتيقُّظِ والسرور نتيجة الغفلة، وعدم أن يوجد مسرورٌ محزونٌ من أهلِ زمانك، وقد كان يمكن ذلك في الصادقين وقد يمكن العبد أن يكون محزونـاً ملتمسـاً، يُجرِّب حلال الدنيا وجِمَاع الطاعات، يوجد بالتكلُّفِ والحزن، ولا يوجد بالتكلفِ إلى أن يصل إلى القلْبِ السكينة ويوجبه.

فإن قيل: ولمَا قدَّمت بين يدي اليقين شيئـاً من الطاعاتِ، واليقين معدنٌ منه يستنبط جماع الطاعات ومنه يتفرع البرُّ؟

قال - المحاسبي -: لأن اليقين لا يثبت في القلْبِ إلا بسببهِ، ولأن الله -عَزَّوَجَلَّ- لم يخلق شيئـاً يُدرك بغير سببٍ؛ فعلمنا أن اليقين لا يثبت في القلْبِ إلا بسببهِ؛ لأنا وجدنا الأشياء بعضها مُصلِحٌ وبعضها مُفسِدٌ، والقلب لا يخلو من التيقُّظ والغفلة، والغفلة أسبقها في القلْبِ، والتيقُّظُ أعزُّ من الغفلة إذا كانت الغفلة معترضةً سابقةً إلى القلوب والتيقُّظ مفقود مطلوب غير موجودٍ، ثم أستثنى أمر الآخرة بما يثبت في القلْبِ؛ فإذا هي لا توجد إلا باليقين بها، ثم نظرنا هل لليقين من ضدٍ يرفعه؟ فإذا هو الشك فيها، والشك أسبقهما إلى

القلوب وأَوْجَد[١]. إن اليقين أعزُّ مطلبٍ. وأقلُّ وجودٍ؛ فاستخرجنا جِماعَ أمور الآخرة من اليقينِ بها وما فيها.

ثم اضطرتنا المعرفة إلى معرفة السبب الذي به يوجد اليقين، إذ كانت الأشياء لا تُدرك إلا بأسبابها؛ فأسبقُ الأشياء إلى القلوب الغفلة؛ فالتمسنا بالغفلةِ وجود اليقين؛ فاستحال ودلَّنا على الشك في الآخرةِ؛ فأوقعنا ضدَّهُ وهو التيقظ على اليقين؛ فاستنبطَهُ وأظهره وأثبته، وألحقنا اليقين بهِ، وعلمنا أنه سببه؛ فألَّفنا بينهما؛ فافترقا وامتزجا واتفقا، وبقي ضد التيقُّظ وهو الغفلة، وضد القين وهو الشك؛ فالَّفنا بينهما؛ فافترقا وامتزجا، فصحَّ عندنا أن مخرج الشك من الغفلة، وأن جماع الشر داخلٌ فيهِ ونبت؛ فبالغفلةِ عُبِدَ الشيطان وبالتيقُّظِ عُبِدَ الرحمن.



(١) أَوْجَد: أي (أَظْفَرَهُ بِهِ). تاج العروس من جواهر القاموس - محمد الزيدي، مصدر سابق: ج٩، ص٢٥٩.

فصل: تقوى الله من خيرِ ما تحاضن عليه الأبرار.

أما بعد؛ فإن تقوى الله من خيرِ ما تحاضن عليه الأبرار، وتواصل به الأخيار، فخذ بنصيبك من التقوى؛ فإنه من (ﷺ) أحسن الحسنى، وخير الإخوان من كان عليهِ من الأعوان أولئك الذين بالحقِّ يأمرون وعليه يتعاونون، قصَدوا إلى الله بقلوبهم ووجَّهوا إليه أعمالهم، ونصحوا العباد لله في دينهم فلم تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر ﷺالله ﷺ، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ويخافون يوماً تتقلبُ فيهِ القلوب والأبصار، فأحيا الله بالتقوى قلوبهم ونوَّرَ بالهدى أبصارَهم.

نظروا إلى الدّنيا فأبصروها، وتبيَّنوها؛ فعرَفوها؛ فإذا هي وما فيها عواري[1] تجري بها المجاري إلى حالاتٍ مختلفاتٍ وطبقاتٍ متبادلاتٍ، فلم يقسموا منها على باطلها، ولا أمسكوا منها بزَائلها، ولا اغتروا بالغرورِ ولا رَكَنوا فيها إلى السرور، وما اعتدُّوا منها بالفاني، ولا عدلوا إلا إلى الباقي، فتركوها قبل أن تترُكَهم، ورفضوها قبل أن ترفضهم، وسمعوا صوت المنادي يقول: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[2].

---

(١) عَوَارِيُّ: الْعَارِية. القاموس المحيط - مجد الدين الفيروز آبادي، مصدر سابق: ج١، ص٤٤٦.

(٢) آل عمران: ١٣٣، الآية.

فما عادوا[١] ولا انتظروا واستبطؤوا نفسهم فشمَّروا[٢]،وقصدوا إلى الله إيمانـاً ووفاءً بعهده، وإيقانـاً كما قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡـهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾[٣]، احتملوا في الدنيا المصائب لما يرجون في الآخرةِ من الرعاية واستوت عندهم الحالات إذ كنْ كلّهن زائلات، فلم يجدوا ألَمَ البلاء، ولم يحسُّوا بصيصَ[٤] الأذى.

واستصبروا عند تحقيق المعرفة بالله كل ما نالَهم في الله تعالى طيبة بذلك نفوسهم جديةٌ عليه قلوبهم صحيحةٌ لله نيَّاتهم، سليمة لأولياء الله تعالى صدورهم مُصدِّقين بقولِ الله قد طمحت في الآخرة أعينهم، وعزفت عن الدنيا أنفسهم، فما نظروا إليها نظرة راغبٍ ولا تزودوا منها إلا كزاد الراكب، خافوا الهلاك؛فأسرعوا ورجوا النجاة فأزمعوا[٥] سيراً إلى الله -عَزَّوَجَلَّ- غير مُقصِّرين ولا عن العمل له بغافلين، بذلوا مُهَجَ[٦] أنفسهم في التماسِ الرضا من ربّهم،

(١) عادوا: واشتقاقه من عَاد يعود كَأَنَّهُمْ عَادوا إِلَيْهِ. تهذيب اللغة - محمد الهروي (٣٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٣، ص٨٤.

(٢) شمروا: من شمِر: صدَّرن، أَي أخرجن صدورهنَّ من الصفّ. مصدر نفسه: ج١، ص١٥١.

(٣) الأحزاب: ٢٣، الآية.

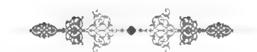
(٤) بصيص: {بَصَّ الشيء} يَبِصُّ {بَصِيصـاً} وبَصّـاً: بَرَقَ ولَمَعَ. تاج العروس من جواهر القاموس - محمد الزبيدي، مصدر سابق: ج١٧، ص٤٩١.

(٥) فازعموا: من كلمة زعم: زَعَمَ يَزْعُمُ زَعْمـاً وزُعْمـاً إذا شك في قوله. العين - الخليل الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج١، ص٣٦٤.

(٦) مهج: المُهْجة، دمُ القَلْب. المصدر نفسه: ج٣، ص٣٩٧.

وما رأوا أنهم بلغوا عند عملهم لعظمةِ خالقهم مِعْشار[1] ما استوجبت عليهم من عبادتهم، ولا ما استحق في نعمته عليهم ورأوا ذلك من عطيته إياهم ومنَّتهُ عليهم.

وكان عند أنفسهم أولى بإحسانهم منهم، وكذلك -(جَلَّجَلَالُهُ) - هو أولى لحساب عباده، فطوبى لهم وحسن مئاب، صحبوا الدنيا بالاستجلابِ ونَعِموا بها بطول الأحزان. نصبوا الآخرة بين أعينهم وجعلوا كتاب رَبّهم إليها صراطهم، فثبَّتوا عليه أقدامهم وأصغوا إليه(*) آذانهم، واستوعبتهُ قلوبهم، وتيقَّظوا بهِ في نومهم؛فاستنارت لهُ قلوبهم وأنارت بهِ أبصارهم وحسُنَت عند تلاوته أعمالهم فكان إلى الخير داعياً - قال تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[2].



(١) مِعشار: جُزْء من عشرَة. وعُشور، وَهُوَ المِعْشار. وَفِي التَّنْزِيل: (وَمَا بَلَغوا مِعْشار مَا آتَيناهم). المحكم المحيط - علي المرسي (٤٨٥هـ)، المصدر سابق: ج١، ص٣٥٨.

(٢) الزمر: ١٨، الآية.

باب الصّدق والإرادة وثقل الصّدق.

قال – المحاسبي –: أرح ما ثقُل عليك من بِرك[١]، وعملك حِف[٢] ما حفَّ عليك من حسناتك؛ فإن الصّدق ثقُلٌ خفيفُ العملِ، والكذبُ من النية إلى العمل يُخفِّف ثقل العمل، قليلُ الصّدق أكثر من كثير من الكذب، واعلم أن إرادتك للعملِ عمل؛ فأنظر في إرادتك،وأبصر إرادتك كما تُبصر عملك، وليراك الله تعالى وأنت على نيّتك دائماً طالباً لها، كما يرى الله إرادتك لعملك وطلبك لعملك؛ فإن يكن هذا من شأنك تظفرُ بنيتك قبل عملك بأجرٍ أكثر من أجرِ عَملك.

واعلم أن عدوّك أعلم بما بدأ منك، وأعلم بِداءِ ما أخفيت منك، وأعلم بِداءِ صحتك منك، وأعلم بِداءِ عدوك منك، وأعلم بِداءِ الخجل منك، واعلم أنه يرى كل برك منك وهو يخفي عنك من دابِرك وسقم نيتك في بِرِّكَ، وما يخفى عن غيرك منك وهو يستر منك عنك من سقَمِ[٣] نيتك ما تستر أنت على

(١) بِرْكٌ: شهر ذو الحِجَّةِ في الجاهلية. الأزمنة وتلبية الجاهلية، محمد بن المستنير (٢٠٦هـ)، المحقق: حاتم صالح، الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م: ج١،ص٤٧.

(٢) (حَفَّ) الْحَاءُ وَالْفَاءُ ثَلَاثَةُ أُصُولٍ: الْأَوَّلُ ضَرْبٌ مِنَ الصَّوْتِ، وَالثَّانِي أَنْ يُطِيفَ الشَّيْءُ بِالشَّيْءِ. مقايس اللغة – أحمد الفارس، مصدر سابق: ج٢، ص١٤.

(٣) السقم: السَّقَم كَمَا قَالُوا الكَرَم وَقَالُوا سَقِيم كَمَا قَالُوا مَرِيض. المخصص – علي إسماعيل مرسي (٤٨٥هـ)، صدر سابق: ج١، ص٤٧٢.

غيرك، وهو غيرك وهو يستر منك ما تستر أنت من عيبِ مثلك، فهو يُرغِّبك في الحسنات التي قد أخفى عنك ما فيها من السَّقَمِ، فهو لا يثقل تلك الحسنات عليك ولا يُكرِّهَهَا إليك، ولا يُقبِّحها عندك ولا يُقبِّحها عند الناس منك.

وودَّ أن الناس كلهم صدقوك في نيتك، إذا ظهر هو سَقَمُ ندبك في حسناتك، وود أن يُصحِحَ للناسِ عَملك إذا كان ذلك منهم يزيدك قوةً ونشاطاً في حسنتك التي قد سقمت فيها نيتك فهو يحسن عندهم أمرك ويعظم عندهم منزلك؛ ليداوم على عملِك وذلك البرّ، وليس نِعمه ولا إرادته ولا محبته أن يعلم ما يعلم هو من سَقَمِ نيتك، إنما همَّه ما تجهل أنت من سَقَمِ نيتك في حسناتِك.

فالحسنة التي تجهل فيها سَقَم نيتك وإرادتك ويجهلها الناس هي أحبُّ الحسنات إليه منك ليس همه أن يعلم من داءِ *عَملِ* مُجمل الحسنات، ومن داءِ تركِ السيئات، ومن داءِ الترك للحسناتِ؛ فإن من داءِ تركها أن تدعها مخافةَ أن يقال قد رايَا[1] لعملِها؛ فتدعها فيصير داء.

ومن داءِ ترك الدنيا،ومن داءِ أخذ الدنيا مما يعلم هو من ذلك، ولا أن يهمه أن يعلْم الناس منك عِلْماً من داءِ سَقم نيتك في ذلك أحبُّ السَقَم إليهِ الذي تجهله، وأبغض (•) السَقَمِ الذي تعمله وتقطن لهُ من نفسك فخذ على حسانتك مما يعلم من ذلك، وحِف على ما قصر عنه عملك وودَّ عدوك أن أدخل عليك سرور الدنيا ومُلك الدّنيا وتعظيم أهل الدنيا بالرِّياءِ وبالخطايا؛

(١) رايا: من الرِّيَاءَ: إظْهار غير مَا فِي الْبَاطِنِ. لسان العرب - ابن منظور (٦٣٠هـ)، مصدر سابق: ج١٠، ص٣٩٥.

لأنه مَثَّل ونظرَ،وفكَّرَ بين ربحهِ منك، وربحك الدنيا كلها لسَقَمِ نيتك في حسناتِك.

فإذا هو قد ربح منك أكثر من ربحك الدّنيا، وأخذ منك أكثر مما أعطاك، وإذا أنتَ قد أعطيته كبيراً لكثيرٍ باقٍ وأعطاك قليلاً صغيراً فانيـاً،وأنتَ منه أيضـاً على غير يقين من الظفرِ به؛فأنت قد أعطيته اليقين وصدَّك عن اليقين بالشكِ والمنى[1] في الرِّياءِ، فهو يُخفي عليك ومنك من سقمِ نيتك في عزلتك ويخفي على غيرك منك من سَقَمِ نيتك في عزلتِك وينفي عليك من سقمِ نيتك في مخالطتِك ما يخفى على الناسِ منك من سقمِ نيَّتك حيلته في سترِك من الناسِ سَقَم نيتك.

أنت تريد أن يُصحَّحَ عند الناس أمرك، وهو يريد أن يصحح نفسك عند نيَّتك، أَسَرُّ الحسنات إليه منك كل حسنةٍ عمتْ عن سِقم نيتك فيها، وعمي الناس عن سقمِ نيتك فيها، وهو أعلم بذات الخشونةِ في الملبسِ والمطعم منكَ، وهو أعلم بداءِ الحزنِ وداء التخاذل منك حيلتك في سترِكِ من الناس سَقَم نيتك منك، حيلته في ستره منك سَقَم نيتك، ما أسر إليهِ الحسنات التي تصيبها الدنيا أو فعال الدنيا هي أسرُّ إليهِ من الحسناتِ التي قد سَقمت فيها النيات، لأنه يريد أن يفسدها عليك *بعد* صدق النية فيها بالمقالِ أو بالمالِ أو بتعظمِ الناس.

فربما أفسدها أولاً سَقم النية فيها، وربما أفسدها بتعظمِ الناس له بها، أو بالمال يجلبه عليه بحسناته فيثابر على تلك الحسنات للمالِ الذي اكتسبه في

---

(١) المَنَى: القَدَر. جمهرة اللغة، محمد الازدي (٣٢١هـ)، مصدر سابق، ج٢،ص١٨٠٥.

جنب حسناته، من حجةٍ أو عمرةٍ أو غير ذلك من بركةٍ، فما أشدَّ حرصه على هاتين الحسنتين على حسناتك التي قد سقمت فيها بنيتك، وأفرَحَهُ بحسنتك التي قد لبست بها المال لأنها ما قد أفَدتَ من المال يزيد في رغبتك رغبةً لَمْ تكن، وفي نشاطك نشاطاً لَمْ يكن، وقوة لَمْ تكن كل ما زادت بكَ الدنيا زدتَ أنت في الجّد، ولو أنقصت من إصابتك نقصت أنت من حرصِك، وذهبت حلاوة نيتَّك، وثقل عليك خفيف سفرك.

وطال عليك قصير غايتك، وحتى تتمنى أن لَمْ تكن سافرت ذلك السفر، ولا خرجت في تلك الخَرجَةِ؛ فاحذر ما قد عملت من مكيدٍ له،واحذر ما لم تعلم (ﷺ) من مَكَايده، وما لا تعلم أكثر مما قد علمت، وما خفي عليك أكثر مما قد بدا لك، وما سَتَر أكثر مما أظهر، إنما همُّهُ منك كل مكيدةٍ يجهلها، ليس همُّه منك كل مكيدةٍ تعلمها.

واعلم أن أصح ما تكون عندك نفسكَ أسقم ما يكون سَقَمها من صحتها، وصحتها من سقَمِها أنك إن أدخلتها في الصحةِ أخرجها من الصحةِ، وإن أدخلتها في السَّقمِ أدخلها؛ لأنه يعلم ما لا تعلم أنت من نفسك، أعني عدوك.

واعلم أنه ليس يستوي علمُك بنفسك وعلم الله تعالى بنفسكَ، وإبليس أعلم بك منك بنفسك والله تعالى أعلم بك منك ومنهُ، ولا يستوي علم إبليس، فعِلْمُ الله تعالى أبطنُ[1] بك من علمك وعِلْم إبليس، والذي عملت لهُ أعلم بعلمِك منك بعلمك، فلا تأمنن من هو أعلم بعلمِك منك بعلمِك.

(١) أبْطَنَ: أَبْطَنْتُ:أي جعلتُه أَخصَّ منه. شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، نشوان الحميري (٥٧٣هـ): ج١، ٥٦١.

إن المُصِحَّ عند نفسه آمن، والآمن على العملِ أنه صحيح من آفة العمل، والآمن على السيئات أضرُّ من السيئات، والآمن على الحسابِ أضر بالحسناتِ من السيئات على الحسنات. أمن الحسنة إلى عدوك من سيئة بعد حسنةٍ، وقنوط بعد حسنةٍ أحبُّ إليه من سيئةٍ واستصغار صغيرةٍ مع تركها أحبُّ إليه من صغيرةٍ أخرى تعمل بها، وأحبُّ إليه من كبيرةٍ تعمل بها أنت مُتَعظِّمٌ لها مستغفرٌ منها، وتركُ الصغيرة على ما وصفت أحبُّ إليه من العملِ بالكبيرة، يتلوها الاستغفار، إنه يقين السنَّة للناسِ.

أن تنطق بمدحِ الصادق ليفسُدَ عليه الصّدق، ويزيد في الصادق قوة في عملِه وقوة في نيته حتى يُسوي من الصادقِ والكاذب، واحذر تجديد قوة المدح، وتجديد حلاوة العمل عند المديح، فإنه يزيد الصادق قوةً عند حادث المدح؛فيفسد عليه صدقه بتجديد نشاطٍ لم يكن حادث قوة أقوى من القوةِ الأولى، وكل ما زاد مديحهم وبتجديد إعظامِهم[1] لذلك العمل حدّد له منك حباً وفيهِ قوة،ورغبة،وعليه مداومة وبه عناية.

وإن ذموا ذلك منك غَمَّك ما كان يُفرحُك، وضاق بك فيه ما اتسع، وأظلَمَ عليك ما كان أنار عندك وصار مُرَّاً بعد أن كان حلواً، تجد له ثقلاً ومنك فترة[2] ولهُ كراهة؛فيفسد على الصادق صدقه من وجوه ما وصفت لك، ويزيد

(١) إعظامهم: من العظمة وهي التعظّم والنّخْوة والزَهْو. تهذيب اللغة - محمد الهروي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٢، ص١٨٢.

(٢) فترةً: من الفَتَرَ يَدُلُّ عَلَى ضَعْفٍ فِي الشَّيْءِ. مقاييس اللغة - أحمد الفارس، مصدر سابق: ج ٤، ص٤٧٠.

الكاذب مداومةً واجتهاده في كذبهِ، ويجد من الصادقِ عند المديح استكباراً لذلك العمل، وقد كان له مستغِّلاً حتى يصير في نفسه وغيره سواء.(❁)

يقال للصادقِ: أكثر الله فينا مثلك، وأنت ممن يرجَّى ناحيته؛فتقبلها النفس، أو يرى رجلٌ رؤيا فيقصها عليك؛فيحدث بها ظاهر قوةٍ،وظاهر مداومةٍ وهو من الرؤيا؛ فيفسد الصّدق ويصير كذباً،ويُحدِّد ذلك كذب الكاذب؛ فاحذر مديح الناس وإعظامِهم لا تدعي الخوف من قلَّةِ الخوف وهو رياءٌ لطيفٌ؛فلا تظهر أنك تخاف إلا أن يُظهِر ذلك الله؛ فيعلمه الله من باطنك كما يعلمه من ظاهرك؛ لأنه يثبت لنفسِك الخوف حتى قلت: إني خائفٌ قلة الخوف، لقد ألطفهُ في زيارتِه من ادَّعى المخافَةَ على قلَّةِ المخافةِ.



باب حاجة العَدْوِ[1] إلى صدق النية في الفرائضِ.

ما أكثر حاجتك إلى فرائِضِك، وحاجتُك إلى آدابك في فريضتك *مثل حاجتك* إلى فريضتك. وصدقُ نيتك فريضةٌ عليك في فريضتك مثل فريضتك. فرض الله عليك أن تخلص له في عملك كما فرض عليك عملكَ؛ فالنية والصّدق في الإخلاصِ في الفرائضِ من الصلاةِ،والزكاة، والحج والبرّ المفروض فريضة عليك من تلك الفرائض، لا تُقبل الصلاة،ولا الزكاة إلا بها كما لا تُقبل نافلة حتى تؤدي الفريضة، وكما لا تقبل صلاة بغيرِ طهور كذلك أرادهُ الله.

والإخلاص لله بالفرائضِ وفي الفرائض؛فاعْنَ[2] بتصحيحِ نيَّتكَ في فريضتِك، كما تُعنَى فريضتك بتصحيح نيتك في فريضتك، فريضة عليك، وتصحيح نيتك في نافلتك فريضةٌ عليك؛ فالصدقُ في النافلةِ فريضةٌ، وقد فرض الله – تعالى – عليك في النافلةِ أن يُخلص له، ولمْ يفرض عليك النافلة فاعْنَ بتصحيحِ نيَّتك في نافلتِك؛ فإنه فريضة عليك وهو ألزم لك، وثُقلها له ألزم من النوافلِ.

---

(١) العَدْوِ: تجاوز ما ينبغي له أن يقتصر عليه. العين – الخليل الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٢، ص٢١٣.

(٢) اعْنَ: شدَّ. تهذيب اللغة – محمد الهروي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج١، ص١٨٢.

فالصّدقُ في النيةِ فريضةٌ عليك في الفرائضِ، وَفريضةٌ في النوافلِ ولا تُثبتُ ولا تُقبلُ فريضةٌ ولا نافلةٌ إلا بهِ؛ فسل عنه واطلبه كما تطلب الفرائض؛ فإنه فرضٌ ولا تكون فريضةٌ إلا بهِ. والإخلاصُ في أعمالِ الفريضة والنوافل، وفي طلبِ العِلْم وطلب السنُّة، وهو الإيمان بالله ومحمد -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، والقرآن، وبالجنةِ، والنار سواء إخلاصٌ واحدٌ. فرض الله تعالى الإيمان بذلك وفرض أن لا يُراد غير الله بذلك.

فقالَ - سبحانه: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾[1]، لا إيمان لمن لا صدق لهُ، ولا إيمان لمن لا يريد الله تعالى بإيمانه؛ فالإخلاص لله فريضة في الإيمان والأعمال وفي التقوى كله، وهو فريضة عامة(﴿﴾) على حُرّنا، وعبدنا، وذَكرِنَا، وَأنثَانا وصحيحنا، وسقيمنا، وفي السفرِ،والحضرِ. فاستووا في فريضةِ الصّدق في إخلاصهم وفي أسفارهم، وفي إقامتهم، وفي سَقَمهم، وفي صحتهم، ولمْ تستو أعمال فرائضهم في أنفسِ الأعمال واستوت عليهم فرائض الله في الصّدقِ لله والإخلاص لهُ، ألا ترى أن المنافق ترك فريضة الله الباطنة في نيتهِ، وإرادته الإيمان لله وبالله. فلم يكن مؤمناً وإن كان مُقرّاً باللسانِ، حيث ترك فريضة الله في تصحيح إرادته في باطنهِ، وفرض الله الإرادة لهُ بالإيمان بهِ كما فرض الإيمان فأصاب المؤمن الصّادق بنيَّته الفريضتين جميعاً الظاهرة والباطنة.

فريضة النية وهي الإرادة لله بالإيمان بهِ ورسله، ولا ينفع إصابة الفريضة الظاهرة إلا بإصابة الباطنة في الإيمانِ والفرائض والنوافل. فإذا رحلتَ في طلب العِلْم لهذه الفريضة، أو مشيتَ في طلب التَّعلُّم لها، أو جلست في طلب التعليم

---

(١) الكهف: ١١٠، الآية.

لها لغيرك، فأنت داخلٌ في فريضة، وجالسٌ في فريضة، وماشٍ في فريضة فهو أفضل من صيام يوم نافلةٍ، وأفضل من قيام ليلةٍ نافلةٍ، وأفضل من صدقةٍ نافلةٍ، وأفضل من حجةٍ نافلةٍ، وأفضل من غزوةٍ نافلةٍ، وأفضل من عتِق رقبةٍ نافلةٍ وهي أفضل ما أُطيع الله فيه.

فإنها فريضة قد فرضها الله وتركها بعض الناس وثقُلت عليهم. فما أكثر حاجتك في إحسانك إلى تصحيح نيَّتك وحاجتك إلى أن لا يكرمك الناس، ولا يعظِّموك مثل حاجتك إلى إحسانك وحاجتك إلى سترِ حسناتك أكثر من حاجتك إلى حسناتك، وما أكثر حاجتك إلى جهالة الناسِ بكَ وبحسناتك، وبعلمك لهذهِ الفريضة ليس فيها تعبُ بدنٍ، ولا بعد آثر ولا نعمه في ذات يدٍ وهي أفضل من فرائضِك، فيها تزكو فرائضك، وإيمانك، وحاجتك إلى حسناتك، إن عَقِلتَ ما وصفتُ لك، ثم عَرَضَت عليك الدنيا كلها أن تظهر حسناتك أو ترى بها ما قبلت الدنيا، ولو حملت عليك عقوبات الدنيا كلها على أن ترى بحسناتِك.

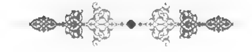
كان ينبغي لك أن تصير إلى تلك العقوبات، وكيف ترى من لا يأخذ منه شيئًا في الدنيا ولا يحمل عنك شيئًا من العقاب ولمْ يُبقِ عليك، ولم يَعدِل، ومن لا يعلمه منك، ولو علمَهُ منك لمَقَتَك[1]. وترى من أنتَ على يقينٍ من نظرهِ إليك ومن هو أعلم بإظهار حسناتك، دلَّ ذلك على جهلك، فما أحوجك إلى إخفاءِ حسناتك وسترِ عملِكَ.(*)

---

(١) المَقْتُ: تَدَلُّ عَلَى القبحِ. معجم مقاييس اللغة - أحمد الفارس، مصدر سابق: ج٥، ص٣٤١.

باب قلَّة الأكل وتَصغِير الدنيا.

تَخافُ الله تعالى من تركِ المَيْتَةِ وهو لعافٍ[1] أكلها، فهو يخاف الله أن يتركها، وهو يخاف الله أن يأخذ الفضل منها. يخاف أن يعصي الله في تركها إذا اضطر إليها، ويخاف أن يصيب منها أكثر من معيشتهِ. أن لو أكلها وهو غنيٌّ عنها؛ فهو يأكلها بحاجة إليها لا لشهوةٍ لها فهذه غايةُ تَصغِير الدّنيا، فإذا كانت في هذا الموضع عند صاحبها لَمْ يحزن عليها، ولَمْ يفرح بها، من يفرح بميتةٍ فاتته أو من يفرح بميتةٍ أقبلتْ إليهِ بل يفرح بها مدبرةً،ويحزن بها مقبلةً؛ لأنه على حدِ عيافةٍ واستعدادٍ، ولكن جُعلَ محتاجاً إلى الغداء فهو لا يستطيب ذلك، وهو يحتاج إليه؛ فبحاجتهِ مدّ يَدهُ إليها للمخافةِ على فواتِ لذاتِ حلاوةِ الدّنيا.



(١) عاف: من العَفْو: ضدّ الْعقُوبَة فِي وزن فَعول بِمَعْنى فَاعل. جمهرة اللغة – محمد الأزدي (٣٢١هـ)، مصدر سابق: ج٢، ص٩٣٨.

باب التماسِ المنفعة في الأكلِ والشرب واللباس إذا كان لله تعالى.

إن من طلب الدنيا فريضة في المطعمِ والمشرب والملبس من قبل. لِأَنَّهُ لو رجلٌ قال: لا آكل ولا أشرب وهو يقدر على المأكل وَالمشرب كان لنفسهِ قائلاً: قال الله -عَزَّوَجَلَّ-: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[1]، فنهى عن أسباب القتل كلها؛ فمن قتل نفسهُ بحديدةٍ أو بسُمٍ أو بغرقٍ أو بحرقٍ أو بجوعٍ أو بعطشٍ؛فسوء قتله إياها؛ فالفريضة عليه أن يخرجها من حدِ قتله إياها بما تيسر وهان في الدنيا من مأكل الدّنيا مما يأكل الآدميون[2] أو غير ذلك ما لا يأكله الناس فإن أكلوه أمسك أنفسهم، وكان في حياتهم، وليس في المأكلِ شيءٌ معلومٌ ولا محدَّدٌ.

وفريضة اللبس، لو أن رجلاً قال: لا أُصلي إلا عريانـاً، ولا أمشي إلا عريانـاً، كان قد ترك الفريضة وهي الصلاة، وكان قد ترك سترَ العورة، وسترُ العورة فريضة؛ فكان تاركـاً للفريضةِ في الأمرينِ جميعـاً؛فعليهِ أن يطلب من

---

(١) النساء: ٢٩، الآية.

(٢) الآدميون: وَهَذَا يتَنَاوَل كل الْمَخْلُوقَات وَدَلِيله قَوْلهم الْعَالم مُحدث كل مَخْلُوق هُوَ دلَالَة على وجود صانعه وعظيم قدرته. تحرير ألفاظ التنبيه، محيي الدين النووي (٦٧٦هـ)، تحقيق:عبد الغني الدقر، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٠٨هـ: ج١،ص٦٤.

اللّبسِ ماستر عورته، وأدَّى فيهِ فريضته بغيرِ لباسٍ محدودٍ ولا جنسٍ من أجناسِ الثياب من وضيعها.

فإن اِدَّعى أنه يريد ستر العورة بلباسِ كسرى وقيصر لمْ يصدق وإن اِدَّعى أنه يريد سد الجوع بمأكلِ كسرى وقيصر لمْ يصدق، واعلم أنّ هذا إنما يريده للذّة ومنتَهى طلب الدنيا جمع ما أحبَّ من الدّنيا؛ فافهم لا تحلو العبادة إلا بالفكرِ، ولا يحلو الرِّياء إلا بالفكرِ قبل الرِّياء، ولا يحلو حبُّ الدنيا إلا بالفكر (﴾)، قبل حبِّ الدنيا.

يقول العابد يراني الله تعالى في عبادتي وتراني الملائكة، وهو يقول المرائي يُرائي الناس، ويقول صاحب الدّنيا إذا جَمعتُ الدّنيا صنعتُ كذا وكذا؛ فيقع العِلْمُ بعد الخَلا[1] بالفكرِ تنبيه مُصلٍّ نائم، ونائمٍ مُصلٍّ، وصائمٍ مفطرٍ، ومفطرٍ صائمٍ، وكاسٍ عارٍ، ومتطهرٍ غير طاهر؛ فأما المُفطِرُ الصائم؛فرجل صَوّم نفسه في ضدِ فطره من آثامِه؛ فهذا صومه المعروف في ضدِ الصيام، وضد الإفطار، وأما الصائم المُفطرُ: فرجلٌ جوَّع نفسه وأفطر من صيامهِ؛ فأقصاه في نهارهِ وعند فطره وسحوره؛ فليسَ من صيامِه إلا اسم صيامه، وجوَّع كبده، وظمأ هو أجره.

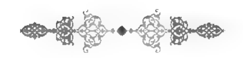
وأما الكاسي فرجلٌ يلبس ثيابه من آثامهِ؛ فثوبه في صلاتهِ من آثامهِ فهو كاسٍ من لباسهِ عارٍ فيما بينه وبين رَبّه ومتطهر غير طاهر؛ فرجلٌ أكتسب طهورهُ لصلاتِه من مآثمِه ومعصيته فهو مُتطهِّرٌ بمائهِ غير متطهِّرٍ من آثامِ طهورهِ؛ فهذا طهورٌ بتطهُّرهِ، فهو يُطهِّر قَذَرَ بدنِه بقدرِ التماسه لدينه.

---

(١) الخلا: يعني الكلام. لسان العرب - ابن منظور (٦٣٠هـ)، مصدر سابق: ج٨، ص٦٥.

ويبقى دَرَنُ[1] بدنه ببدنِهِ، والقَذرُ لا ينقى من القَذرِ،والبدن لا ينقى من الدرن؛ فقَذَرُ بدنِه ودمٌ على جسده أيسرُ في الفاحشةِ من درنِ وضوء وقذَرُ طهوره الذي أكتسبه من آثامِه فهو كرجلٍ توضأ من الحدثِ بالدمِ أو غسل دماً بدمٍ أو رجلٍ نقل معصية في ثوبهِ لمعصيةٍ في عين ماءٍ[2]غَسل به ثوبهِ؛فثمن طهورهِ أفسد لصلاتِه من دمِ ثوبه، وقَذَرِ جسده.

ومصلٍّ نائمٍ صلى لينام واستجلب النوم بالصلاةِ لا لثوابِ الصلاة استجلب الصلاة، وقد يكون مُريداً للنومِ بالصلاةِ ومريداً بالصلاةِ، فصلاته شطران، شطرٌ منها لنومِه، وشطرٌ منها يستجلب لصلاتِه فوات الصلاة، قال: وأما النائم المُصلِّي؛فرجلٌ يريد بنومِه القوة على صلاتِه يستجلبُ بقوةِ المنام قوة الصلاة، وذلك نيَّته؛ فهذا نائم مصلي.



(١) درن: الدَّرَنُ: تَلَطُّخُ الوَسَخُ، وثَوْبٌ دَرِنٌ وأَدْرنُ داخِلٌ عليه. العين - الخليل الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٨، ص٢٠.

(٢) والغريم: الذي لَهُ الدَّين، والذي عَلَيْهِ الدَّين جَمِيعًا، وَالْجمع غُرَمَاء. المحكم والمحيط الأعظم - علي إسماعيل المرسي (٥٨٤هـ)، مصدر سابق: ج٥، ص٥١٩.

باب صدق حُسن الظن والخوفِ والرجاءِ.

قال - المحاسبي -: تظنُّ أنك قد ظننتَ وترجو أنك قد رَجَوت، ولو ظننتَ عملتَ، وتهمُّ أن تَهم وظننت أنك حيث همَمْت أن تَهِم. قد هَممْتَ، ولو هَمَمتَ عملتَ، وظننت حتى رجوتَ أنك قد رجوتَ ولو رجوتَ طلبتَ ما رجوتَ، وظننت أنك تخاف ولمْ تخف، ولو خفت هَربت، والخائف ليس بساهٍ[1]، والذي بَطن[2] أنهُ يخافُ، ساهي المخافة والهرب (؟) معـًا، والظنُّ والعمل معـًا، والرجاء والطلب معـًا مَن حَسُنَ ظنّه حَسُنَ عمله، ومن اشتدَّ خوفه اشتدَّ هربه، ومن اشتدَّ رجاؤه اشتدَّ طلبه.

وقال: ومن رجا وأساء فإنما تمنى وأختر[3]؛فأبصر الحال التي تكون فيها خائفـًا من الحال التي تكون فيها راجيـًا، إنها تُمنِّيك ثُم تحزنك؛ فتظنّ أنهُ يرحمك، وكذلك فعل بأهل الكتاب قبلنا فمن هذا نهانا الله (جَلَّجَلَالُهُ)؛ فقال: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[4]، الراجي

(١) ساهي: إذا كَانَ ساهِيَ القَلْب، ذَاهِب الْعقل. تهذيب اللغة - محمد الهروي (٣٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٦، ص١١٣.

(٢) بطن: من الْبطن خلاف الظّهر، والباطن خلاف الظَّاهر. جمهرة اللغة - محمد الأزدي (٣٢١هـ)، مصدر سابق: ج١، ص٣٦٠.

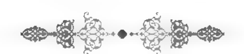
(٣) وأختر: من الخَتْر: هُوَ الخَديعة بعَينها. المحكم والمحيط الأعظم، علي إسماعيل المرسي (٤٨٥هـ)، مصدر سابق: ج٥، ص١٤٩.

(٤) النساء:١٢٣، الآية.

ساعي، الراجي ليس بساهٍ، والراجي ليس بمتوانٍ[1]، والمُتمني لاهٍ ساهٍ. وقد يعرف هذا.

إنَّ الرجلُ قد يرجو الشيء من أمورِ الدنيا ما فيه طمعه، إنه لو طلبه قَدِرَ عليه، فلا يتوانى ولا يسهو، ولا يلهو،ولا يقصر بل يستمر، وإذا رجا ما ليس طمعه أنه يظفر به، فإنما تراه مقصِّراً غير مستمرٍ لأن الذي رجا إنما كان مُنى ولو كان رجا لطلبِ ما رجا؛ فلما كان مُنى تقاصر عن طلب المُنَى ولم يحقِّق منه حقائق الرجاء، فظن أن المُنَى رجاء، وأن الرَّجاء لا يكون إلا بالتعبِ والتَّصبُّبِ[2].

وقال: من رَجَا الدنيا كان لتُرجا بِهِ حقائق حقيقة حدَّها في قلبِهِ، وحقيقة من ظاهرِهِ عناية وكذلك مُنى للمُتمني الآخرةِ، وكذلك الرَّجاء؛فالرَّجاء ليس له حلاوة في القلْبِ ولا ظاهر عنايته على البدنِ وكل رجاءٍ لمْ يكن بهذه الصفةِ فهو رجا أن يكون راجيًا، ومن رجَا وطلب فهذا ذاقَ حلاوة الرَّجَاء بقلْبِه وذاقَ مرارة العناية على بدنِه؛ فهذا أصاب الرَّجَاء في إصابة نفس الرَّجَاء.



(١) متوان: أَي تلكّأ. المخصص - علي إسماعيل المرسي (٤٨٥هـ)، مصدر سابق: ج٣، ص٣٣٥.
(٢) التَّصَبُّبُ: يعي التدفق. لسان العرب - ابن منظور (٦٣٠هـ)، مصدر سابق: ج١٠، ص٩٩.

باب يا أخي اِعرف موضع مأمنه الشكر.

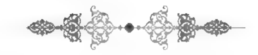
ومأمنه يستغفر من مَأكلك أو ملبسك أو مشربك أو مركبك أو مكسبك أو زوجتك أو ولدك الأمن من مكسبِ طاعةٍ أو مكسب معصيةٍ؛ فإن كان من مكسبِ طاعةٍ؛ فأشكره وإن كان من مكسبِ معصيةٍ؛ فاستغفره فإنك إن تستغفره في هذا المكان؛ فقد استغفرته وشكرته وإن أنتَ جعلته موضع شُكْرٍ فلمْ تستغفره فلمْ تصب في شكرِهِ طريق شكرِه.

فقد لقي يونس -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- ما لقي؛ فما زالَ من موضعِ طريق الغضب لهُ، وقد غضب لهُ ولكن لمْ يكن نصب في الباطنِ غضب الباطنِ؛ فلمْ ينفعه الغضب حيث أخطأ طريق الغضب الباطن بل كان الغضب في ذلك الموضع معصيةً؛ فلا يؤمن عليك أن تكون أسوأ حالاً من يونس - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين شكَرَهُ على ما كان ينبغي أن يستغفر منهُ، فلو أنّ أحداً أفْلَتَ من هذا (*)أفْلَتَ يونس -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-.

فلتكن الإصابة بالشيء لهمٍّ إليك من إصابة الشي؛ فإن يونس أصابَ الغضبِ ولمْ يُصيب بالغضبِ ما يكون الغضب طاعةً لله تعالى؛ لأنه غَضِبَ لله في ظاهرهِ، وقد عصاه في باطنهِ بالغضبِ لله في ظاهرهِ حتى أغضبَ الله بباطنِه في غضبهِ لله في ظاهرهِ، فقال: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا﴾[1]، إلى قومه فسرَّها:

(١) الأنبياء: ٨٧، الآية.

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾[1]، ذلك البلاءُ الذي أصابه، وهذا يدخل على أصحاب الأمر بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ، والحياءِ، والبرِّ كله، والصمت؛ فليكن الهمُّ في ذلك كله الباطن.



(١) الأنبياء: ٨٧، الآية.

باب فضل ترك المعاصي.

تركُ السَّبَبِيَّة[1]، وإن كانت صغيرةً أفضل من أن لو حجَجتَ مئة حجةٍ نافلةً؛ فإن ترك السَّبَبِيَّة أفضل، وليس رجاؤك تركُ السَّببيَّة أعظم من رجائك لمئة حجة نافلة بل لو اعتقتَ مع كل حجة رقبة كان تركُ السَّبببيَّة أفضل، والرجاء لها أعظم والثواب من الله عليها أكثر، بل لو غزوت عشر غزوات كان ترك السببية أفضل؛ لأن ترك السببية فريضة، والغزوات نافلة، بل لو صِمْتَ عمرك فكنت فيهِ صائماً لا تفطر نهارك، وقائماً في ليلِك لا تفتر[2] كانت فرائضك من تركِ سبَبيَّاك صغيرها وكبيرها، وفرائضك من أعمالِك المفروضة عليك أفضل من ذلكِ كله، وليكن رجاؤك لفرائضِك من تركِ كذبه إلى تركِ فطرِهِ إلى تركِ مدِّ شعره، إلى ترك خَلْفِ موعدٍ أنتَ لهُ أرجى وهو منك أعظم، وهو عندك أوثق من جميعِ ما وصفت من النوافلِ، وإنك إن وثقت بنوافلِكَ ثقتك بفرائضِك سويت بين ما لا يستوي، وإن كانت نوافلُك أرجى عندك وأوثق لك من فرائضِك أضررت بنفسِك في تصغيرك لفرائضِك، فليراكَ الله وأنتَ مُعظِّمٌ للفريضةِ وَلأهل الفرائضِ.

---

(١) السَّبَبِيَّة: أي: التعليل. معجم الصواب اللغوي، أحمد مختار، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م: ج١، ص٦٦.

(٢) فَتَرَ فُتُوراً: سَكَنَ عن حِدَّتِه، ولانَ بعدَ شِدَّتِه. العين - الخليل الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٨، ص١١٤.

فإن تعظيم الفرائض أولى بكَ من تعظيمِ النوافل ومن الدليلِ على إعظامك للفرائضِ قلَّةُ إدلالك بالنوافلِ على أهل الفرائضِ، ومما يدُلُّكَ على تصغيركَ وتقليلكِ الفرائض استطالتُكَ بنوافلِك على أهل الفرائض، والفرائضُ أعَمُّ منفعةٍ وأعَمُّ بركةٍ من نوافلك ليس في فرائضِك عُجبُ نوافلك، ولا إدلالُك بنوافلِك.

واستطالة نوافلك وفرائضك شفاء ليس فيهِ داء وهي تذهبُ بالداءِ وفيها الشفاء، ونوافلك تجلبُ كِبرَك، وعُجبَك، وإعراضك، واستطالتك، واستصغارك الفقراءِ (﴿) واستحلال الأغنياء والخطوة عند الأمراء، وهي أُلفة الفرائض، وهي داءٌ يصيبك وقد يصير دواء نوافِلك، وذلك لتستوي قدماكَ، وأقدامُ أمَّتك في فريضتِك، وأنتَ لا تستطيل من عملِك بالعملِ الذي يكثر فيه العمال معك، أنما يجلبُ ذلك عملك الذي تنفرد به وحدكَ، وتقصد فيه شركاؤك فذلك داؤكَ ألا ترى أنك لا تُدِلُّ على الجيران ولا على الإخوان بصومِ رمضان ذلك ما يهم وأنتَ عند نفسك صائمٌ حالُكَ وحالهم سواء؛ فإن انفردتَ بشعبان جَلَبَ ذلك عليك ولك عُجباً وتكبُّراً واستكباراً، ذلك لأن الإخوان لمْ يساووك فيصومونه معك.

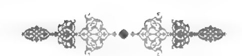
وهكذا كل أعمال البرّ من الفرائضِ، فما أخفَّها في معتلها، وما أثقلها في عوامها، وأعظم أمورها فقد ترتجي فرائضك لنوافلِك، وتخشى نوافلك على أنفسها وعلى فرائضك؛ فلا تأمن من نوافلِك للردِّ على فرائضِك ونوافلِك؛ فإنك منها ومن سَقَمِ النية فيها على خطرٍ عظيمٍ. إن يكون الله -عَزَّوَجَلَّ- رآكَ تريد غيره بعملِك عبداً مثلك؛فتعطيه من ذلك، وتتوجه إليهِ أكثر مما توجَّهتَ إلى ربّك. إن يكون حكم عليك مع غضبِه عليك.

أن قالَ (جَلَّجَلَالُهُ): اِعمل ما شئت فلا أقبل منك؛فإنك تعمل في نافلتك وفريضتك في غير مُعتمدٍ، ثم يسلك معرفة إرادتك ومعرفة سَقَمِ نيَّتِك؛ فيستدرجك بتحسين ذلك عندك، وقلة صرفِهِ عليك ويستدرجكَ بإعظام الناس لك، وخشيتهم منك، وقبولهم قولك، ويستدرجك بالقوةِ، والنشاط والمداومة، والمثابرة على عملِك الذي قصدته بنيَّتك فيهِ قصد ما وصفت لك، حتى يرمينك عدوك بسهمِ حديثِهِ؛فيقول لك: إنّ الصّادق يُداوم، والكاذب يغترُّ[1]، قد جاء إن المَرأَى لا يثبت أربعين ليلةٍ.

بل أنا أصف لك أنَّه يثبتُ ثمانين سنة، وإنّ الصّادق يغترُّ والفترة إليهِ أسرع، والكاذب أقوى والفترة إليه أبطأ؛ لإنه قد تعجَّل من عاجلِ حلاوة الرّياء، وحلاوة تعظيم الناس، وحلاوة ما أصاب بهِ من الدنيا ما يقوى به على التعظيم من العبادِ، والتطويل من الرّياءِ، ومن أوجه استدراجه لك أن ترى في منامك رؤيا تقويك على عبادتك أو تُرى لك فتُبلِّغُك وتقصُّ عليك حتى تأمَنَ على عملك برؤياك أو برؤيا غيرك.



(١) اغتر: أَي غَفَلَ. تاج العروس وجواهر القاموس - محمد الزبيدي، مصدر سابق: ج١٣، ص٢٢٤.



"ولا إيمانَ كالحياءِ والصّبرِ. وآفةُ الحديثِ الكذبُ، وآفةُ العِلْمِ النسيانُ، وآفةُ الحلمِ السفَهُ، وآفةُ العبادةِ الفترةُ، وآفةُ الظرفِ الصَّلَفُ، وآفةُ الشجاعةِ البغيُ، وآفةُ السماحةِ المَنُّ، وآفةُ الجمالِ الخُيَلاءُ، وآفةُ الحسبِ الفخرُ"[1].



الحَارِثُ بن أَسَد المُحَاسِبيّ

---

(١) المعجم الكبير - سليمان بن أحمد الطبراني (٣٦٠هـ)، ت: حمدي عبد المجيد، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، ١٩٩٤: ج٣، ص٦٨، رقم الحديث: (٢٦٨٨).

باب الزَّجر[1] عن القنوطِ[2].

تركُ القنوط فريضة مثل ترك السببيَّة من المأكلِ والمشرب، ومثل العمل(ﷺ) بالحسنةِ من الصلاةِ والصيام، وليس مثلها في العملِ بها، وليس مثل الصّبرِ؛ لأن الصّبر أمر تجزع منه النفس؛فأنت له مُستكرهٍ ولها مُكره، ولا بسخطٍ عمَّا تحب النفس إذ فيه صادقٌ وعادلٌ ومجروحٌ، وترك القنوط حسن عمله بقلبِك ليس منه تصّبرٌ من نفسك على حُسنِ ظنّك بها أنها محملةٌ منه حبـًا، وتحمله حقـًا لا صدقـًا من النفسِ ولا تصّبراً، وقد يرجى لك من حسنِ ظنِّك وترك القنوط من رَبّك أفضل مما ترى من باطنك.

وقد يكون المؤمن عاصيـًا لله تعالى في أفعالِه مطيعـًا لله في تحريمهِ أفعالِه مطيعـًا لله تعالى في تركِه القنوط من الله تعالى؛ فطاعته في وجهين. جميعـًا في طاعةٍ أعظم من تلك المعصية في المعاصي، وقد يُرجى لك ما وصفت، وقد يكون المؤمن مطيعـًا لله في بركةِ القنوط،واليأس من الله تعالى.

فطاعته لله في ذلك طاعة وفريضة، وعمله بالمعصيةِ ترك الفريضة؛ فقد يُرجَى بما عمِلَ من عملٍ عن فريضة في حُسنِ ظنّه بربِّه غفران ما ترك من فريضة

---

(١) الزَّجر: النَّهْي. المحكم والمحيط الأعظم - علي المرسي (٤٨٥هـ)، مصدر سابق: ج٧، ص٢٨٩.

(٢) القنوط: الْيَأْس. العين، أحمد خليل الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٥، ص١٠٥.

في طاعةِ رَّبه؛ فهي فريضة يُرجَى بها تلك الفريضة في تلك المعصية، وحذَّركَ من أمانك إياها وفرضهُ عليك تركُ الأمان على العصيان بالإحسانِ، وتركُ الأمان بالإحسان على الإحسان كما فرض عليك تركُ القنوطِ مع العصيان.

فحرام اليأس من اللهِ، وحرام الأمْنِ من اللهِ على العصيان وعلى الإحسانِ؛ فلا يأمْن الله أن يردَّ عليك إحسانك ويعذبك بأصغرِ عصيانك، ولا تقنط من اللهِ تعالى أن يغفر بأقلِ الإحسان أكثر العصيان؛ فإنه قد أطمع في السرفِ أن يغفره؛ فقال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾[1]، ونهى عن القُنوطِ من اللهِ فيهِ؛ فهو ذنب في الذنوبِ أعظم من الذنوبِ التي نهى الله تعالى عنها، والتوبة منه مثل التوبة من السببيَّة التي قنطَتْ بها من الله فتُب إلى الله من قنوطِك كما تتوبُ إليهِ من سيئاتك التي جَلبتْ عليك قُنوطك، واستغفره منها واستغفر الله من أمْنِك، وعُدَّهُ ذنباً من أعظم ذنوبك وخفهُ كما تخاف أعظم ذنوبك.

فإن الأمْن على الحسنةِ كبيرةٌ، والقنوط على السببية كبيرةٌ، والقنوط ذنب لا تكتسبه بتعبِ بدنك ولا بسهر عينيك وهو ذنبٌ تكتسبه بقَلْبِك لا بمدِّ يدك،ولا بنقلِ قدمك، ولا المأكل (*) في بطنك، قال الله - (جَلَّجَلَالُهُ) -: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾.

ولمْ يقل أقتلوا أنفسكم ولا أحرقوا أنفسكم، ولمْ يقل صوموا بقية أعماركم، ولمْ يقل قوموا فأسهروا بقية ليلةٍ من أعماركم، ولمْ يقل اِبذلوا كل

---

(١) الزمر:٥٣، الآية.

أموالكم ولا شَطرها، ولمْ يقل توبتكم تُحرِّم ماحل لكم، ولمْ يحمل في توبتكم بما حمل على قوم موسى قبلكم ولكنهُ قال: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ﴾.

يدعوكم إلى أن يحسن ظنكم بهِ وجعل فيه فريضةً، إن حسن ظنكم بربكم يُرجى لسَرَفِكم[1] وليس فيها توبةٌ من شرٍ فيكم، ولكنها طاعة في سَرَفِكُم تُرجى لسَرفكم؛ فأنتم من سَرَفكم ومن ظنّكم في حسنِ ظنّكم بين أمرين: بين ما يُرجى، وما يُخشى وهو العدل، والفضل من اللهِ نظراً منه لكم، ومُخزٍ لكم أن *تقعوا *بسَرَفِكم في ذنبٍ لا تعمله جوارحكم، وهو أعظم من جناية جوارحكم عليكم، فقال -(جَلَّجَلَالُهُ) -: إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2].

ثم أخبرَ أن ذلك بمشيئته في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾[3]، من أهل السّرف ومن اِكتسب دون السّرف، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[4] والشرك من السَّرفِ، غير السَّرف بالإيمانِ والتوحيد، وما شاءَ من طاعاتِ المُطيع لمن يشاء؛ فقوله ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ﴾[5]. نَهَى وهي فريضة وهي إطماع في عفو الله، وليس فيه

---

(١) السَّرَف: تجاوز مَا حُدَّ لَك. والسَّرَف الْخَطَأ؛ وإخطاءُ الشَّيْء: وضعُه فِي غير مَوْضِعه. تهذيب اللغة – محمد الهروي (٣٧٠هـ)، مصدر سابق: ج١٢، ص٢٧٦.

(٢) الزمر: ٥٣، الآية.

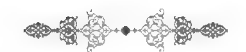
(٣) الفتح: ١٤، الآية.

(٤) النساء: ٤٨، الآية.

(٥) الزمر: ٥٣، الآية.

بيان غفران لذلك السَّرف؛ فترْكُكَ قنوطك موقف يُرجَى بك ويُخشى عليك ما كان من السَّرفِ.

فالسَّرف يخشى على تركِكِ القنوط، وتركُكَ القنوط يُرجى للسّرف، ويدلك ذلك من جهةِ حسن الظن بربك، وتركك قنوطك واليأس من ربك لقولهِ تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾[1]، وأنت لا تحمل الكفر لثقلِه على بدنِك، ولا تحمل الإيمان لثقله على بدنك، ولكن تحمل الحبَّ لله، وللإيمان خفةٌ بقلْبك، وتحمل الكرهَ، والسخط للكفرِ بقلْبك، كذلك تحمل أحسن ظنك، وتركك للقنوطِ خفة بقلْبِك؛ فلتُعظِّم رجاءك لمن لمْ يُقنَط من رحمتهِ، ليعظم خوفك من أمْنِ مكرِ الله، فإنهُ لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.



(١) الحجرات: ٧، الآية.

باب السَّبَبِيَّة والهمُّ[1] بها وما يتشعَّبُ من ضررها.

(﴿) قال: الهمُّ بالسببية همَّان؛ همُّ إجمَاعٍ وأزمَاعٍ[2] عُقدَ بالقلْبِ، وإجماعٌ من العقلِ، وهمٌّ يخطر بالبالِ وليس بهم إجماع، ولا أزماع، ولا عقد بالقلْبِ ولا إجماع من العقلِ ولا ثَبات له، همُّ يوسف - عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ - الذي لمْ يدعه الله لهُ ولا مكَّنهُ منه، وهو همٌّ خطرةٍ، وليس فيهِ هذه الصفة، وهو الهمَّ الذي لمْ يكن إجماعاً ولا عقد عقل، وكذلك هو من كلِّ مؤمن.

والهمُّ الذي مِثلُ همِّ يوسف -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- والجماعة ذنب وليس هو بالذنبِ الذي همَّ بهِ في نفسِ ذلك الذنب. والمَمشَى في ذلك الذَّنبِ الذي هدى الهمَّ بهِ، والذي وصفت لك الممشى سببيَّات والكلامُ فيهِ من السَّببيَّات، والمجلس لانتظارهِ مجلس سببيَّة، والنفقة في الذي اجتمع عليهِ نفقة سببيةٍ، والسَّفْر[3] فيهِ

---

(1) الهمُّ: الشجن، الحزن. العين - أحمد الخليل الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٦، ص٣٦.

(2) والزَّمَع: أرذال النَّاس وأتباعهم، بِمَنْزِلَة الزَّمَعِ من الظلْف. وَالْجمع أزماع. المحكم والمحيط - علي إسماعيل المرسي (٤٨٥هـ)، مصدر سابق: ج١، ص٥٣٨.

(3) السفر: بَياض النَّهار. العين - أحمد خليل الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٧، ص٢٤٦.

سفر سببية، وآثر سببيتَه، وليس هو سِلك السببيَّة في نفسِ مُشَمِّرٍ[١] مُعتمدٍ تلك السببيَّة.

ولكن سببيَّةٌ يُطلب بها سببيَّة؛ فالفعلُ في طلبِ السَّببيَّات يكتب سببيَّات، والآثارُ والنفقات في طلب سفك الدماء، وأخذ الأموال، وتعطيل الحدود، سببيَّات ظَفر بتلكِ السببيات في أنفسها أو لمْ يظفر بها؛ فإن جرتْ المقادير يفوت عمل تلك السببيَّات في أنفسها من مأكلٍ ومشربٍ أو ضربٍ بيدٍ، أو وطءٍ بفرج، أو قتلٍ بسيفٍ أو بحريقٍ في نار، فالآثارُ والمسيرُ والنفقات سياق.

وإن جرت المقادير بالعملِ بها كتبت تلك السببيَّات سببيَّات، فتُكتب تلك السببيَّة في العملِ بها في أكلها أو شربها أو وطئِها على وجهِ ما أُصيب فيهِ سببية معتمد، وتكتب الآثار في طلب تلك الأعمال آثار طلب سببيَّات. لأن الآثار في طلبِ السببية سَببيَّة، والطلب للسَببيَّة لا تكتب حسنة. فالسببية عظيمةٌ شُؤمُهَا[٢] كبيرةٌ تبِعتها، كثيرةُ أوجهٍ ما يُستجلب بها السببيَّات استصغارها واستغلالها من أمنها، ومن عَلْمِ ضَررِها،ولا ضِرَار عليها من ضَرَرها.

ولا آثارَ في طلبها من السهرِ والسفرِ من ضررِها، والحزن من فَوتِه على ما فاته منها من ضَررِها والفرح بعملِها من ضررِها والتمني لمثلها، أولها في أنفسها من ضَررِها، والتَّلهُفُ مثلها تَلهُّف معصية على صاحبِ ذلك كله في كلِّ وجهٍ من ذلك أعظم السبيل، وبذلك على ذلك. أنّ الله تعالى سجن يوسف -عَلَيْهِ السَّلَامُ- بهمّهِ.

---

(١) مُشَمِّرٌ: مَاضٍ سَرِيعٌ فِي الْحَوَائِجِ. مصدر نفسه:ج٢، ص٣٥.

(٢) شُؤمُهَا: سُودُهَا. لسان العرب - ابن منظور (٦٣٠هـ)، مصدر سابق: ج٤، ص٢٠١.

وما تمَّ لهُ فعلِه بضع سنين في سجنِه وهو في غيرِ ذنبٍ (ﷺ) في العملِ ببدنِه ما أقصى يوسف، ولكن مشى فعَاجَل الله بهمَّه، وممشاه،وبمقامهِ، وبكلامهِ، وبنظره؛ فقال – (جَلَّجَلَالُهُ): ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾[1]؛ فوصف منها همّاً، وهمَّ بها؛ فوصف منه مثل همِّها. ثم حذَّر بعدها كل من جاءه خبرها فالهمُّ ذنبٌ، ولا مِن يوسف ولا مِنها الذنب في معتمدِ الذنب، فَهمّه لمْ يكن السببيَّة التي يحلَ سراويله[2] لها، والذي صرفت عنه السببية ولمْ تصرف عنه الهَمَّ بها؛ فأنفلَت من سيء مُعْتَلِّها وأصابه وبالَ الاجتماع، والهمِّ، والمقام، والممشى، والمقال، والنظر.

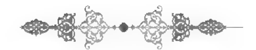
فلم تكن الآثار آثار حسنات، وكانت آثار سببيَّاتٍ منه ومن زلتهِ، وهي من غيرهِ مثلها منه بسببيات وليس هي بأنفسِ من تلك السببيَّات ممن همَّ بها؛ فأرادها كإرادته وكهمَّتهِ، لو همّ الخَطرة للذنبِ يؤاخذه بها هي مثل الصدمة، والجزع، عند صدمةِ المصيبة؛ فتلك موضوعة ليست بقلَّةِ رِضاً ولا ترك التسليم، ولا خروجٍ من حدِ الصّبر، ولكنها جُرعة عند المصيبة، ولا يملكها بشرٌ موضوعة ومغفورة، وليست بسببيةٍ، لأَنَّ رسُولَ اللهِ (صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ) عند مصيبتهِ بإِبرَاهِيمَ ابْنه، قالَ: «إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ وَالقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبُّنَا»[3].

(١) يوسف:٢٤، الآية.

(٢) سِرَاوِيلَه: لَبِسه وتَقَبَّى قَباءَه سِرَاوِيلَه. المخصص – علي المرسي (٤٨٥هـ)، مصدر سابق: ج١، ص٤٠١.

(٣) الجامع المسند الصحيح – محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ)، ت: محمد =

فالدمعةُ وحزنُ القلْبِ ليس مما يُسخط الله، وليس مما فيهِ ترك الصّبر لله، وليس مما فيهِ ترك الرِّضا لله، وليس فيهِ ترك الرِّضا والتسليم لأمر الله، ولكن وضعهُ الله عن ابن آدم، لأنه لا يستطيع صبراً ولا يكون إلا كذلك، ولو كانت الدمعة والحزن عند الصدمة قلَّة تضني[1] *وسخطًا وصدمة للقضاءِ، وخروجًا من حدِ الصّبر؛ لعَصَمَ[2] الله منه نبيَّه، فهو للموتِ كذلك موضوعٌ عنه.



= زهير، دار طوق النجاة، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ:: ج٢، ص٨٣، رقم حديث رقم (١٣٠٣).

(١) تضني: تَضَنَّى الرجلُ: إِذا تمارَض. تهذيب اللغة - محمد الهروي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج١٢، ص٤٨.

(٢) أعصم: إذا تمسَّكَ به ألزمه. المصدر نفسه: ج٢، ص٣٤.

باب بيان الحسنة وما همَّ بها، وما يتشعَّبُ من نفعِهَا.

قال: والهَمُّ بالحسنةِ حسنةٌ، والإجماعُ على الحسنةِ حسنةٌ، وليس في الحسنةِ خَطرةٌ[1]، ولا يقال: خطرةٌ للحسنةِ، ولكن يقال: همَّ بالخطرةِ في الحسنةِ، هو الهمُّ بالحسنةِ، والهمُّ مضاعف إلى ما شاء الله من التصعيدِ لا يُحصى، تصعيد ما شَكر الله ولا يُحكى، والممشى في الحسنةِ حسنة نحو السبييَّات التي كُتبت لك في صفةِ السببيَّات، والآثارُ في الحسناتِ حسنات كانت مكتسبةٌ من المحسنات حسنات من وجوه ما وصفتُ لك؛ فما أعظم بركة الحسنات وأعمّ منفعتها، وأكثر وجوه بركتها، وأكثر ما تُجلبُ الحسنات (﴾) من الحسناتِ.

فالمؤمن مأجورٌ في طلبِ الحسنات، وفي الهمِّ مأجورٌ في النفقةِ، وفي الحسناتِ؛ فكُن أحد رَجُلَيْن إمّا رجلٌ اِكتسبَ نوافلَ الحسنات وفَرائض ترك السببيَّات أو رجلٌ أصاب بتركِ السببيات لفرائضِ الله في تركِ السببيات وما أردتَ من برٍّ فأنظر فيهِ؛فإن كَان للهِ؛فإن إرادتك حسنةٌ، وعَملك فيه حسنة، وإن لمْ يكن لله؛ فترْكُهُ حسنة فريضةٌ؛ فقد تصيب بتركِ النافلة التي لا يريد الله بها

(١) الخطرة: سبق الشَّيْء إِلَى الْقلب، هجَس الأمر. المخصص، علي المرسي (٤٨٥هـ)،مصدر سابق: ج٤،ص٤٩.

فريضةً لأن الله - (جَلَّجَلَالُهُ) - فرض عليك تَرْكَ ما لم ترده، ولمْ يفرض عليك كل برٍّ من النوافلِ.

فترْكُ الرِّياء في العَملِ فريضةٌ، والعملُ بالرياء تركٌ للفريضة والصّدق في النيةِ في النافلةِ فريضةٌ، فأنت مُصيب فريضتين من وجهِ ما وصفتُ لك فريضة في إرادتِك لله إخلاصك لله، وفيه فريضة الله عليك، وفريضةٌ حيث تركت اللذات في نيّتِك، وتركت مالم تُرد الله بهِ من عَمَلِك فهما وجهان من الفريضة: فريضةٌ إن عملت بالحسنةِ النافلة أن يخلص نيَّتك فيها، وفريضةٌ إن تركت حسنةً.

النيَّة فيها كاذبةٌ، وقد بيَّن الله في آيةٍ من كتابه في الآثار والحسنات؛ فقال: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم﴾[1]، فسوَّى بين المآثر، والعمل.

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌ﴾[2]؛ فالنيلُ، والآثارُ، والظَمأ والمخْمَصَة، والشقاء، والتعب والنصبُ، والضجر، كل ذلك عملٌ صالحٌ طلبَ بهِ الجهاد في سبيلِ الله تعالى فاعله يُكتبُ بذلك كله حسنات.

قال - المحاسبي -: وقد حضر *حكيماً* الموتُ؛ فاجتمع إليهِ تلاميذه.

فقالوا - التلاميذ -: أوصِنا؟

---

(١) التوبة: ١٢٠، الآية.

(٢) التوبة: ١٢٠، الآية.

قال – الحكيم – أني لمُتكلَّفٌ لكم الكلام على ما بيَ، أخبروني أموفقون أنتم بفضلِ الزهد أمْ لا؟

قالوا – التلاميذ –: ما لزمناه إلا لعِلْمِنا بفضلهِ.

قال – الحكيم –: أفي الدُّنيا ذلك الفضل أمْ في الآخرةِ؟

قالوا – التلاميذ –: إنا إذ أقررنا بفضلهِ، ورأينا غَير أهله أفضل في الدّنيا عيشاً من أهلهِ؛ فقد اضطررنا الرأي إلى أن يوجب ذلك الفضل لأهلهِ في الآخرةِ.

قال – الحكيم: فإنكم إن كرهتم الموتَ الذي هو سبيلكم إلى الآخرة؛ فقد كرهتُم المنزلة التي فيها الفضلُ لكم، ورضيتُم بالمنزلةِ التي فيها الضرّرُ عليكم مع أنكم أحقّ أن تنظروا ما هذا الموت المكروه عند العامة، هل تجدوه غير مفارقةِ الروح الجسد؟ (ﷺ)

قالوا – التلاميذ –: إمّا نجدهُ غير ذلك.

قال – الحكيم: فهل يَسُرَّكم ما أدركتم من العملِ أو يحزنكم ما فاتكم منهُ؟

قالوا التلاميذ: نعم.

قال – الحكيم –: فبأي ذَيْنك[1] الحزنين يُقتنى العِلْم، وأيهما يقصرُ بكم عَن استكماله بالجسدِ الذي قد ترون ما بهِ من العَمَى، والصَّمم، والبُكم،

(١) ذَيْنك: أَي يَعْنِي قَطْعًا بعد قَطْعٍ. المخصص – علي بن إسماعيل المرسي (٤٨٥هـ)، مصدر سابق: ج٤، ص٢٥.

والضعفِ، وقلة العناء عند مفارقة الروح إياه أمْ الذي لا يزال الإنسان سميعاً بصيراً ناطقاً عاقلاً ما رام[1] فيه.

قالوا – التلاميذ –: بل بحسنِ الروح وَوجِهَتِهِ تدرك العلم، وبثقلِ الجسد وغلطه يقصر عنهُ.

قال – الحكيم: إن كان قد استبان لكم أن العِلْم ثمرة الروح؛ فإنّ *الموحى[2]،الموصي بكم عنه ثقل الجسد؛ فكنتم بدركِ العِلْمِ مسرورين، وبفوتِهِ مَحزونين لقد أضطركم الرأي إلى اختيار مفارقة الروح للجسدِ على ملازمتهِ إياه، ألستم ترون أن شهوات الجسد النساء، والبنون والأموال وفضول المطاعم والمشارب، والملابس والمراكب وهي المُضِّرةُ بالزهدِ، وأنكم لمْ تجعلوا تلك الأموال من الشهواتِ ولم تظهروا منها إلا صيانةً للعقولِ، ورغبةً في زيادةِ العِلْم.

قالوا – التلاميذ –: بلى.

قال: أمَّا إذا أقررتم أن هذه اللذّات المقوِّية للجسدِ هي المُفسدة للعقولِ؛ فإن الأجسادَ التي تقبل اللذّاتِ هي لها أفسَد.

---

(١) رام: الرَّوْمُ: طَلَبُ الشَّيْءِ. العين، أحمد الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٨، ٢٩١ص.

(٢) الموحى: التفهّم، وكل ما فهم به شيء من الإشارة والإلهام. موسوعة كشاف اصطلاحات العلوم والفنون – محمد بن علي الحنفي ابن القاضي (١١٥٨هـ)، ت: علي دحروج، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٩٦: ج٢، ص١٧٦٧.

قالوا – التلاميذ –: فكيف لنا بأن يجترئ من الموتِ على ظل* مثل* ما اجْتَرأتَ، ونزهد في الحياة مثل الذي زهِدتَ فيهِ.

قال لهم الحكيم: ألستم تعلمون أن الحكيم الخالص العاقل البريء من الذنوبِ قد أمات نفسه بيده قبل حين حَنَقَه[1]، وذلك أنهُ رفض من الأهلِ والنعمةِ، والمال، ما لا يُراد للدّنيا إلا لهُ، واحتمل نَصبَ العبادة وعنَا بها ما لا يربح منها إلا الموت؛ فما حاجة من لا يتمتع بشيء من لذّةِ الحياة إلى الحياة، أمْ ما هرب من لا راحة لهُ إلا في الموت من الموتِ، لعمري قد ظَلَمَ من التمس اسم الحكمة والزهد في الدنيا بغير استحقاق معناها، وجَهِلَ من ظنّ أن لهُ إليها مع النعيم والتلذّذ سبيلاً، فهل عسى أن يأتي أحدكم برأيه أن يجتمع لهُ اسم الزهد في غير سيرة الزهد، وأنواع الطعام، والمشَارب والملابس، والمَنَاكح.

قالوا – التلاميذ –: ما نطمع في ذلك ولا نظنّه، وكيف نطمع في اجتماع الزهد وأعمال زهرة الدّنيا وقد رُوي أن أحدنا إذا زادَ في مطعمِهِ، ومشربهِ بعض الزيادة أو قارَبَ منها ما يثقل أو يُحرِّك في قلبهِ شيئًا من أضداد العقل من (ﷺ) الشهوةِ والحرض[2]،والحسدِ وأشباهه، أنكرَ عقلهُ زمانًا وإن كان لمْ يُباشر شيئًا من ذلكَ الذي تحرَّكَ إليهِ؛ فكيف بمفارقةِ تلك الأمور ومباشرتها.

---

(١) حَنَقَه: من حنق: ضمر وييس. جمهرة اللغة، محمد الأزدي (٣٢١هـ)، مصدر سابق: ج١، ص٥٦١.

(٢) الحرض: الفاسد في جسمه وعقله. الزاهر في معاني كلمات الناس – محمد الأنباري، ت: حاتم صالح، الرسالة، بيروت،ط١، ١٩٩٢: ج٢، ص٢٦١.

– قال الحكيم –: لعمري ما من شيء أنفع لهُ من الصُّيَّابَةِ[1]، ولا أسرع إليهِ من الفسادِ إلى عقلِ الحكم.

قالوا – التلاميذ –: ما تركَ قول معلمنا الحكيم لنا سبيلاً إلى أن نتمتَّع لِلذّةٍ، أو نرغب في بقاءٍ، وما فَضل جَرَاءته على الموت على جرأتنا عليه، إلا فضلَ ما أصلح من نفسِه مما هو منا غير مُنصَلح ولو أصلحنا من أنفسِنا مثل ما أصلحَ من نفسِه مما هو غير مُنصلحٍ، ونفينا عنها من قَرَائِنِها[2] من الحرصِ، والشهوة، والغضب، مثل الذي نفى لحدث لنا من الجراءة على الموت مثل الذي حدث لهُ، وقال: قليلٌ كانوا إذا تعلَّموا عملوا؛ فإذا عَملوا شَغلوا، وإذا شغلوا عَرفوا فإذا عرفوا هذَّبوا.

قال – المحاسبي –: نظرت في هذه الأمور فإذا جميع الخَلْقِ قد حلت بهم العقوبة إلا من شاء الله وكذلك الحديث عن النَّبِيِّ – (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) – قَالَ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يُدْخِلُهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ فَقِيلَ: وَلَا أَنْتَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتغمَّدني رَبِّي بِرَحْمَةٍ»[3]، وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لو أنَّ اللهَ يؤاخذني، وعيسَى بذنوبِنا لعذَّبنا ولا يظلِمُنا شيئًا وأشار بأصبعيهِ»[4]، أو نحو هذا.

---

(١) الصُّيَّابَةُ: (الصَّمِيمُ)، الخِيَارُ مِنَ الشَّيْءِ. تاج العروس – محمد الحسني، مصدر سابق: ج٣، ص٢٢٤

(٢) قَرَائِنها: من قَرَائِن، أي إِذا كَانَت يَسْتقبِل بعضُها بَعْضًا. تهذيب اللغة – محمد الهروي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٩، ص٨٧.

(٣) المسند الصحيح – مسلم بن حجاج (٢٦١هـ)، مصدر سابق: ج٤، ٢١٦٩، رقم الحديث (٢٨٦١).

(٤) جاء الحديث: «لو يؤاخذني الله وابن مريم بما جنت هاتان، يعني الإبهام والتي تليها، =

فنظرت من أرجا الناس للرحمةِ إلا إذا هو المُقبل على طلبِ الآخرة بالعبادةِ، والزهد في الدنيا والورع، ونظرت أهو شيء يُعتمد عليه؛ فإذا هو شيءٌ لا يُعتَمَدُ عليه؛ لأنه لا يبلغ في ذلك مبلغاً يستحق الجنة بعملِه.

قال - المحاسبي -: ويقال إن عيسى بن مريم -عَلَيْهِ السَّلَامُ- قال: ((إن كان فيكم من وثقَ بعملهِ فأني لا أثق بعملي))[1]؛ فنظرت هل يجوز أن يفوز المُفرِّط أو يهلك المجتهد؟ فإذا ذلك يجوز؛ فإذ الأمر قد رجع إلى مشيئة الله تعالى إذ لمْ يستأهل المجتهد بعملهِ، ولمْ يُقنِّط الله المُفرِّط دون الشرك لسعةِ رحمتهِ؛ فنظرت هل من خلق فيهم بيان ذلك؟ مُختَبِره العابد الذي قالَ للمُفرِّطِ والله لا يُغفر لكَ؛فغفر الله للمُفرِّطِ، وكان تفريطهُ سبب النجاة والمغفرةِ، وأدخَلَ العابد النار؛ فكانت عبادته سبب هَلاكهِ. وإذ أصدق في بني إسرائيل[2]، حيث قال: أنا صدِّيق بني إسرائيل.

فكان سبب هلاكه شدَّة اجتهاده، وكان خليع بني إسرائيل[3] سبب نجاته تفريطه حيث أزْرى[4] على نفسِه، فَرأس هذا العِلْمُ أُخفي على الخَلْقِ، إلا أنك

= لعذبنا، ثم لم يظلمنا شيئاً». الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان - محمد بن حبان التميمي (٣٤٥هـ)، ت: شعيب الأرناؤوط:، الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٨: ج٢، ص٤٣٥، رقم الحديث (٦٥٩).

(١) الزهد الكبير، أحمد حسن البيهقي (٤٨٥هـ)، مصدر سابق: ص١٥٠، حديث: (٣١٥).

(٢) القصد هو نبي يوسف.

(٣) القصد هو النبي يونس.

(٤) ازرى: (أَزَرَ) الْهَمْزَةُ وَالزَّاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ الْقُوَّةُ وَالشِّدَّةُ. معجم مقاييس =

ترجو للمجتهدِ في الخيرِ، وتخاف على المُفرِّطِ، ويرجو(ﷺ) بعد للمفرطِ ويخاف على المجتهد؛ لأنه حَكَمٌ عدلٌ ألا ترى لو أن سارقـًا سرق عشرة دراهم، وسارقـًا سرق مئة ألف درهم.

كان حكم الله فيهما واحداً قطعُ اليد؛ فكذلك لا يُؤمَنُ على من عصى الله تعالى أن تحل بهِ العقوبة إلا أن يعفو عنه، وكأني رأيت أرجى الناس للنجاةِ أخوفهم على نفسهِ.

ألا ترى أن يونس – عَلَيْهِ السَّلَامُ – إذ ظنّ أن الله لا يعاقبهُ عَجَّلَ عليه العقوبة، وقد ذُكِرَ أن قومـًا أزروا على نفوسهم وخافوا الهلاك؛فعادوا بلوم أنفسهم نحو حديث الإسكافُ[1]، والذي قالَ: أرى الناس يدخلون الجنّة وأدخل النار، والذي أصاب دنيا؛ فقال ما يُرضي عني رَبّي، فكُتب صدِّيقـًا والذي قال: مثلي يدخل المسجد، ومثلي يجلس مع هؤلاء، فكُتب صدِّيقـًا.

والعابد الذي قال لنفسهِ: من قبلك أتيت وليس عندك خبرٌ، فقيل لهُ: ساعتك هذه التي أزرَيت فيها على نفسك أفضل من عبادتك كلها.

قالت السيدة عائشة –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا–: إذا علمت أنك محسنٌ فإنك مسيءٌ، وإذا علمت أنك مسيءٌ فأنت مُحسنٌ. وقال بعض الناس: هلَكَ من لمْ يُقِرْ أنهُ هالكٌ.

= اللغة – أحمد الفارس، مصدر سابق: ج١، ص١٠٢.

(١) الإسكاف: الصَّانِع. تهذيب اللغة – محمد هروي (٣٢١هـ)، مصدر سابق: ج١٠، ص٤٧.

وقال: الفضل[1] لعِيسَى بْنُ يُونُسَ[2]: إنما أخاف عليك أنك ترى أنك عالمٌ وأنتَ جاهلٌ، وأن ترى أنَّ عندك خيراً وليس عندك خير، وكما قال: فرأينا الإِزرَاءَ أشبه الطرق، ثم لمْ نأمن أن نحبَّه من هذا الوجه؛ فنقول إنك خائف، وإنك وجلٌ؛ فاستبشر أنك ناجٍ وفَائزٍ، فيا ويح المسكين ما يدري إنا موتى، وكيف يهلك ومن أي وجهٍ يهلك؟ أمْن وجه الإحسانِ أمْ من وجهِ الإساءة؟ إلا إن الإحسان والاجتهاد أحمدُ وأعذرُ، والخلْقُ لله يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء؛ فنقول: ما شاء الله.

وقال - المحاسبي: ما أحسن كثرة الصلاة والصوم، ولكن نُبْلَ[3] الرجل وشرفه، وصومه وبرِّه وعقلهِ ووعده؛ فإذا بُلي بعملٍ من أعمالِ البرّ عَلِمَ الله منه عنايته بلقائه وإحكامه، وإخلاصه وإذا أُبتلي بأعمالِ الشرِّ عَلْم الله منه حذره من الإثمِ في منطقهِ وسمعه، وبصرهِ، وفرجهِ وجوارحهِ من مطعمهِ وغير ذلك.

وإذا أُبتلي بذلك عَلم الله منهُ ندامتهِ، وفزعه، وخوفه، وتوبته؛ فهذا مثلُ الرجلِ وشرفِهِ. وقد يكون كثير الصلاة والصوم ولا يكون لهُ ذلك الحذرُ من

---

(١) الفضل: هو الفضل بن سهل السرخسي الوزير وأخو الوزير الحسن بن سهل، ومات الفضل سنة تسعين ومائة على يد المأمون. سيرة أعلام النبلاء - الذهبي (٧٣٧هـ)، مصدر سابق: ج١٠، ص١٠٠.

(٢) عيسى أبي إسحاق عمرو بن عبد الله الإمام القدوة، الحافظ، الحجة أبو عمرو، وأبو محمد الهمداني، السبيعي الكوفي، توفي سنة إحدى وتسعين ومائة هجرية في خلافة هارون. المصدر نفسه: ج٨، ص٤٨٩.

(٣) (نُبَلَ) النُّونُ وَالْبَاءُ وَاللاَّمُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى فَضْلٍ وكِبْرٍ. معجم مقاييس اللغة - أحمد الفارس، مصدر سابق: ج٥، ص٣٨٣.

الدّين، ولا دقّةُ النظر في الأمورِ. وقد تكون كثرة الصلاة والصيام هي بحبِّ كثرةِ المال (﴿﴾)، وبحبِّ المنزلة عند الناس، وإنما يدور الأمر على الصّدقِ والبرّ، والورع، والعقل، أن يكون ثابتاً لا يزول عند الرّضا والغضبِ، ولا عند إضافة الدنيا ولا عند الزَّوال والمنع، ولا عند التَّكرمة والهوان بشدةِ مذاهبه وشمائله في أي حالٍ كان على مرتبةٍ واحدةٍ؛ فهذا المنسوب في الدنيا إلى النُّبلِ والشرفِ في أمرِ دينه.

وقال قائل: في معرفة النفس إني اتهمتُ نفسي على ديني، واتهمتُ معرفتي بنفسي؛ فلمّا صحَّحتُ النظر وأطلتُ الفكر لأقعَ على حقيقة معرفتي بنفسي، وجدتها تتكلم بكلامِ الخائفين ما لَمْ تضطر إلى الخوف، وتقول بقولِ الأبرار ما لَمْ تُمتَحن بالتقوى،وتصف وصف الصادقين ما لَمْ تحتج إلى العمل بهِ، وتدَّعي دعوى الموقنين ما لَمْ تمتحن بالإخلاصِ،وتزعم أنها من المتواضعين ما لَمْ تخاف هواها عند تهيُّج الغضب؛ فلمْ أكن أتوهَّمُ عند وصفي للصَّدقِ، وإثبات قولي للحقِّ وحلاوة منطقي للإخلاص إلا أني كذلك.

فإذا امتحنتُ في مواطن الحقّ لمحاسنِ القول فيه وجدتني كاذباً، وإذا احتجت في مواطن الخوف إلى خوفي وجدتني آمناً، وإذا احتجت في مواطن الإخلاص إلى الإخلاص وجدتني مُرائياً في غير مواطنٍ، ولا آمن ولا أكثر من أن أحصيه؛ فإن ثبت في وصفي محاسن قولي وجَبَ أن يكون ذلك من مخرجِ الحقّ من قلبي إذ كنت أُحسِن وصف الصّدق بالقولِ، ولا أجد حقيقة الصّدق في العملِ؛ فظهر لي بذلك فساد عملي وصحَّ عندي وصف منطقي.

فرجعتُ مُلتمساً من أين فساد عملي؛ فعلمتُ أن فساد عملي من فساد قلبي، ولو صحَّ قلبي لصحَّ مني قولي، ولصدق بالوصفِ لِساني ولمْ يظهر مني التزين لمن لا يملك ضَري ولا نفعي؛فأطلتُ الفكْرَ، وصحّحِتُ النظر واستعنت بالعِلْم لأقع على العلةِ التي فرَّقت بين محاسن وصفي، وقبيح خبري في امتحاني ثم تدبَّرت ما يظهر من لساني؛ فصحَّ عندي أن اللسان مُترجمٌ للقَلْبِ؛ فوجدت اللسان يصف الحق فيُحسن ويصف الصّدق؛فيصيب ثم يمتحن الإخلاص بهما؛ فيُجيد فتحيَّرت عند هذا الوصف وبعد هذا الخبر.

قلت: إن كان لِساني مُترجماً عن قلبي؛ فترجمَ بهذه المحاسن لمْ أشك أن سَاكنَ قلبي الصّدق وغامِرَهُ الخوف، ولولا ذلك لترجم اللسان بخلافِ ما قد ظهر منهُ من وصفِ البرّ والإحسان فاضطرتني العناية إلى استرشادِ (﴿) العِلْم والمعرفةِ، والاستعانة بدليلِ العقل؛فسيرشدهم فدلُّوني على أن النفس تقبل من عملها ومعرفتها، وتضطر إلى دلالةٍ تجعلها في كل ما همَّ به وجهها عند الناس؛ ليعرفوا فضلها في علمها، وحسنَ سيرتها في آدابها.

وإذا وقع الامتحان الذي ينبغي أن يعملَ بعلمها، ويُتكلمُ فيه لله بها قدَّمت هواها وأخَّرت عملها ورضيت بهواها، فدلَّتني المعرفة بأنها هي المُعبِّرة عن نفسها بالصّدقِ، بالقولِ في غير مواطن الصّدق وهي المُحقَّةُ عن نفسها بالوهنُ[1] في قولها، والرياء في عملِها أخفى كثيراً ذلك منها على العارفين من المُدَّعين المعرفة بأنفسهم فما ظنُّك بالجاهلين بأنفسهم.

---

(١) الوهن: الوَهْن: الضَّعْف فِي الْعَمَل والأمْر. تهذيب اللغة، محمد الهروي (٣٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٦، ص٢٣٤.

وإنما تَصُحُّ معرفة ما وصفنا عند جَهَابِذَةِ[1] العالمين من العارفين بأنفسِهم عند تحقيق الامتحان فلا يغير محاسن وصف نفسك الصّدق؛ فإذا احتجتَ صدقها كذبت ولا تطمئن إلى صحةِ وصفها للحقِّ؛ فإذا احتجتَ إلى قيامها بهِ عدلَت، ولا تلتقينَّ إلى حسن وصفها للإخلاص؛ فإذا اضطرتَ الى إخلاصها رَأَيْت ورينتَ[2]، ولا تغتر بوصفها للبرِّ والتقوى.

فإذا امتحنت برِّها وتقواها غدرَتْ وفجرَتْ ولا تقبلنَّ منها دعوى الخوف؛ فإذا افتقرت إلى خوفها أمنتْ وبطِرتْ، ولا تيقنَ بإظهارها الرّضا، والتوكُّل؛ فإذا عارضها خوف الفقر دون زوال فَلهُ قنطَتْ ويَئستْ، وإن عارضَهَا أيسَرُ البلاء سخطتْ وجزعتْ، ولا يغرنَّك ما تظهر لك من تواضعها واسترخاء أذنيها.

فإذا احتجت إلى حقيقةِ الامتحان تكبَّرت وتجبَّرت، يا مغرور لا تقبلنَّ منها دعواها الحلْم وعالمها في مواطنِ التزين، فإذا افتقرت إلى جهلِها عند استماع ما عابَ بهِ من قولِ الحقِّ فيها مما يُسخَطُ منهُ سفِهَت[3]، وغضبت، فإن مُدحت بباطلٍ مع موافقةِ ذلك هواها اهتزَّت وفرحت، يا مغرور لا تفرحنَّ

---

(١) جَهَابِذَةٌ: بغوامضِ الأمور. معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار، مصدر سابق: ج١، ص٤٠٩.

(٢) تَرِينُ: الرَّاءُ وَالْيَاءُ وَالنُّونُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى غِطَاءٍ وَسَتْرٍ وهي من الرَّين. مقياس اللغة - أحمد الفارس، مصدر سابق: ج٢، ص٤٧٠.

(٣) سفهت: من معنى سَفِه نفسَه: أهلك نَفسه، وأَوْبَقَ. تهذيب اللغة، محمد الهروي (٣٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٦، ص٨١.

بمبادرتِها في آصرةِ[1] طباع المعروف، والمبادرة في الخيراتِ.

فإن لمْ تُشكَر على معروفها وتُقرِّر لها إحسانها غضِبتْ، وقطعتْ بك في كلِ حالٍ تحتاج فيهِ إلى صدقها، وخذلتك في كل أوانٍ تحتاج فيهِ إلى إخلاصها وأيسَتُك[2] في كلِ أوانٍ تحتاج إلى شكرها للمنعمِ عليها؛ فلا تليقنَّ إلى محاسن وصفها للتزينِ وكبيرِ عملها للرياءِ، ولكن انظر كيف تُبطلُ محاسِنَ وصفها بقبيحِ خبرها.

واعلم إنه إنما تُستَخرج محاسن ما في القلْوبِ من الصّدقِ (﴿) ومساوئ ما في القلْوبِ من الكذبِ في مواطن الامتحان؛ فعندها تبدو فضائح ما تحنُّ بهِ ضمائر الأنفس من شرٍ إن كان فيها، أو خيرٍ إن كان عندها، فغيِّر نفسك بميزانِ عقلك في مواطنِ الامتحان.

فخفِفهُ عليها واستحِ من دعواك الصّدق، وقد ظهر لك سبيل الريب منها، وصحَّ عندك مخرج الكذب من خالصِ ضميرها، وليكن لكَ في الحقِّ نصيبٌ بإقراركِ عليها بكذبِها وإثباتك لها باطلها؛ فتدبرت هذا الوصف من دلالاتِ العِلْم، والمعرفة، وشهادة العقل لهما بصدقِ ما دلَّ؛ فوجدت الخير الشافي فيهِ، وعلمتَ أن لو كان ساكنُ قلبي الصّدق، والتقوى، أو كان عامرهُ الخوف، والإخلاص، لأعانوني عند أوانِ حاجتي إليهم.

فلما فقدتهم في مواطنِ الحاجة إليهم ظهرَ من قلبي عند اضطراري إلى

---

(١) أصِرٌ: حبس. العين - الخليل الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٧، ص١٤٧.

(٢) أيس: الثقيل الضعيف. المصدر نفسه: ج٧، ص٣٠٠.

الخوفِ الأمْن، وعند استعانتي بالصّدقِ ظهر منه الكذب، وعند فَقْرِي إلى الإخلاصِ ظهر منه التزين، وعند استعانتي بالتواضعِ ظهر منه الكِبرُ، وعند حاجتي إلى الحلْم ظهر منه السَفَهُ، وعند أمانتي لطمَعي ظهر منه الحرضُ[1]، والشرهُ وفي أوان التؤدةِ[2] وحسن النظر،ظهرت مني العجلة والرغبة، وفي أوان حسن الظنّ والثقة، ظهر مني الاستبطاء،والقنوط وخوف الفقر.

وعند حسن الثناء، والمدح بما ليس فيه ظهر مني السرور، والرّضا بهِ عند الذمّ بسوءِ السيرة بما قد عرفته مني، وظهر مني الغضب تسخُّطاً لما قيل فيَ؛ فصحَّ عندي مع تصحيح هذا الوصف. أنَّ سَاكنَ قلبي وغَامِرَهُ الريبُ[3] والكذبُ، وعلمت أن قلباً غَامِرهُ الرَّيبُ *وسَاكنهُ * الكذبُ.

إنّ الكذب والفجور والرَّيب مُجَانب لليقينِ، غير أنه يجب على العبدِ فرضاً، عليه إن يقرَّ بالإيمان ولا يجحده؛ فيكون زيادةً في شرهِ؛ فعظُمَتْ عند تصحيح هذا الخير مصيبتي، وهذا حالٌ فيهِ عَظُمتْ بليتي، إلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ[4]، الله بجميلِ عفوهِ، ولمْ ينقطع عند قبيح ما بدأ لي من نفسِي رَجَائِيَ. وعلمتُ أن الله تعالى أكرم من أن يؤنِّب عباده لمعرفةٍ، أو يمدهم بمعونةٍ، ثم يخذلهم عند

---

(١) الحرضُ: المشرف على الهلاك. مجمل اللغة، أحمد الفارس، مصدر سابق: ج١، ص٢٢٦.

(٢) التَّؤدة: التَمَهُّل والتأنيّ والرَّزانة. العين، خليل الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٨، ص٩٧.

(٣) الرَّيْبُ: الشَّكُّ. العين، خليل الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٨، ص٢٨٧.

(٤) يَتَغَمَّدَنيَ أَي: إلَّا أَن يُلْبِسَني. تهذيب اللغة، محمد الهروي (٣٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٨، ص٩٥.

أوانِ حاجتهم إليه، أو أن يطلبهُ العبد ويضطرُّ إليهِ ويحسن الظنّ بهِ، ثم يخلفه ظنه؛ فسهَّلَ عليَّ ما بدا لي من قبيح أمري وشرارة نفسي، واحتيال إبليس لي في أحوالي، وعلمت أن كيد الله -عَزَّوَجَلَّ- (ﷻ) أنفذ من كيدِ إبليس في بني آدم، وعلمت أن من تفضَّل عليَ بموهوبِ معرفته وبهذا وصفي إنه قادرٌ على إصلاح فساد قلبي فلمْ أيأس.

قلت: فما تسهيلهُ لك بمطلبِ الصّدق؟

قال - المحاسبي -: إذا ظهرت لي عيوب نفسي وكذبها وأقرّت بهِا، فقد سهَّل لي طريق مطلب الصّدق.

قلت: فما الذي يحول بينك وبين الصّدق إذا تركت درجته وقد عرَّفكَ معارج الكذب؟

قال - المحاسبي -: يحول بيني وبينه تركُ الشكْر مني لهُ على ما عرَّفني من عيوبِ نفسي وكذبها.

قلت: فما شكْر هذه النعمةِ التي قد حالت بينك وبين أن تنال درجة الصّدق؟

قال - المحاسبي -: ترك الكذب في مواطنِ الامتحان.

قلت: فإن عجزتُ عن ذلك؛فبما أستعين عليه؟

قال - المحاسبي -: بالصّبرِ على مخالفة هواها فيهِ.

قلت: فإن لمْ أطق في مواطنِ الامتحان، إذا هي تكلمت أن أمنعها من التزينِ والكذب؟

قال – المحاسبي –: فأحبسها فيهِ، من الكلام.

قلت: فإن قهرتني وتكلَّمتُ وندمتُ؟

قال المحاسبي: ففرضٌ عليك أن تهرب بها من كل موطنٍ تعلم يقيناً أنها تقهرك فيهِ على الكذبِ والتزين.

قلت: فإن لمْ أصبر على أن أحبسها من هذهِ المواطن التي تقهرني فيها بالتزينِ والكذب؟

قال – المحاسبي –: فمن أجل غلبةِ حبُّ الكذب عليكَ سلك بها محل الكذب، والرّياء، والتزيين، واعلم يقيناً أن بينك وبين الصّدق عقبة الكذب ينبغي لك أن تقطعها. قد صحَّ عندي فضلُ ما بين الدرجتين وإني لا أَصِلُ إلى ركوبِ درجة الصّدق إلا بنزولي عن درجة الكذب، ولكني قد رجعت مضطراً إلى معرفتي التي هي صلاح فساد القلْب من بعد أن صحَّ عندي الفساد، ولمْ التفت إلى عملي لأنه قد صحَّ عندي، أي لا أُدرك بسقمِ عملي إصلاح فساد قلبي؛ فرجعت ملتمساً من أين أتيت ومن أين ذهبت بفسادِ قلبي؟ وما الذي ينفي عن القلب الكذب والريب؟

فوجدته الخوف الصّادق، فصحَّ عندي أن قلباً غَامَرهُ الخوف الصّادق ما للرّينِ فيهِ مَبيتٌ ولا مَقبلٌ إلا بالخَطرَات والوسواس من الشيطانِ، ثمْ ينفيه الخوف عن مسكنِه؛ فلمّا صحَّ عندي ذلك علمتُ أن الخوف أولاً يتفجَّرُ منه الخوف، وطلبت العين التي يتفجر منها الخوف ما هي؟

فوجدتها الشكر لله، فلما صحَّ عندي أن مخرَج الخوف من الشكْرِ، علمت

أن للشكر بحراً يخرج منهُ الشكْر، وطلبت البحر الذي منه مخرج الشكْرِ (ﷺ) فوجدته اليقين؛ فالتمستُ اليقين أولاً فلمْ أجده، وطلبتُ مخرجَهُ من أين هو، فوجدتُ مخرجَهُ من عندِ الله؛ فانتهيت إلى غاية الغايات؛ فوجدت الله أول كل شيء وخالق كل شيء، والدَّالُ على كل شيء، ووجدت الذي يتلو وهو الدليل عليهِ الإيمان بهِ وهو أقرب إلى اليقين من كلِّ شيء.

لأنه من أيقنَ بالمُنعم عليه شكرهُ على نعمهِ؛ فطلبت أدنى الأسباب إلى الشكْر؛ فوجدتُ الخوف أقرب إلى الشكْرِ من كلِّ شيء؛ لأنه من شكْرَ الله تعالى على نِعمِه خاف على زوال نِعمه، ومن خاف على زوال نِعمِهِ جانَبَ معصيته، ومن جَانَبَ معصيته؛ فقد سارع إلى طاعتِه.

فإذا شُكْرُ القلْبِ اليقين، والشكْرُ والخوفُ تَفِرُّ[1]عن القَلْبِ الرَّيب[2] والكذبِ، وحالفهُ الإيمان، وكان القَلْب مُنوَّراً باليقينِ مُزيّناً بالشكْرِ معصوماً بالخوفِ، مُستعملاً بالرجاءِ مشتاقاً إلى ما بِهِ قد أيقن زاهداً في كل ما هو دونه؛ فإذا كان القلب على ما وصفنا، وجدتَ صاحبه مُمسكاً عن وصف ما يعرف وذلك كله من فنّهِ؛ فإذا جاءت الخَطَرَات التي تُحرِّكه لما فيهِ عند حقائق الامتحان ظهر ما في القلْبِ من الصّدقِ في أوانه ومن التقوى في أوانه، ومن الخوف في أوانه، ومن الإخلاص في أوانه، ومن الشكْرِ في أوانه ومن التواضع في امتحانه، ومن قول الحقّ في مواطنِ امتحانه، ومن حُسنِ التوكُّل في أوانه.

---

(١) تَفِرَّ: وهي لاَ تَفِرَّ وَلاَ تَهْرُبْ فَقَدْ أَعطاه بِذَلِكَ أَماناً. لسان العرب - ابن منظور (٦٣٠هـ)، مصدر سابق: ج١١، ص٢٣٩.

(٢) الرَيْبُ: الشَكُّ. والظِّنَّةُ، والتُّهمَةُ. المصدر نفسه: ص٤٤٢.

ومن كراهيته للمدحِ وحسن الثناء، وقلّة محبته للرياسةِ، والتعظيم في أوانِهِ، ومن حُبّهِ إخمال[1] نفسه في أوانه، وذلك كله كامِنٌ[2] فيه؛ فلمّا تَبيَّنَتُ ما فسد القلْب بالمعنى الذي وصفنا كثُر عليه دعوى الصّدق بعد معرفتي نفسي، وقلتُ كيف بالجراءةِ مني على هذه الدعوى؛ فدلَّني العمل على أن دعواك الصّدق، تأكل ما قيل من الكذبِ فمنه خزيك على دعواك.

قلت: فهمت عنك ما وصفته من فساد العمل، وذلك لأن مخرجَهُ من فسادِ القلْب ثمَ آيستني[3] من إصلاحِه إلا بالخوفِ الصّادق، ثم أخبرتني أن الخوف الصادق لا يكون إلا من اليقينِ، وقد علمتُ أن من اليقينِ ما هو أكثر منه، ثم لا منتهى لعظمةِ الله، فصِفْ لي أقلَّه، فقد علمت أن بأوله قد يدرك الآدمي كل المنافعِ على قَدرهِ. (﴿)

قال - المحاسبي: صدقت؛ فاعلم أن النفس اليقين نورٌ يجعله الله تعالى في قلْبِ عبده؛ فيشاهد به القلبُ أمورَ الآخرة كالمشاهدةِ لها بالغيبِ عنها؛ فيرى ما هنالك من الجنةِ والنارِ وعظيم ملكوت السماوات برؤيةِ نور القلْبِ بما هو أنفذ من رؤيةِ الأعْينِ لمشاهدةِ الدُّنيا ثم يرجع إلى القلْب بالشهادةِ على ما قد نفذَ فيهِ نور قلبه؛ فيملئ القلْب بأقلِ ما فيه من اليقينِ نوراً ينفي عن القلْبِ

---

(١) الخمال: دَاء يُصِيب الإِبِل فِي صدورها وأعضادها. جمهرة اللغة - محمد الأزدي (٣٢١هـ)، مصدر سابق: ج١، ص٦٢٠.

(٢) كامن: كَمَنَ الشيءُ فِي الشَّيْء وكَمُنَ يكمُن، إِذا توارى فِيهِ. المصدر نفسه: ص٩٨٣.

(٣) آيستني: (يَأَسَ) الْيَأْسُ: قَطْعُ الرَّجَاءِ. مقياس اللغة - أحمد الفارس، مصدر سابق: ج٦، ص١٥٣.

كلَّ ظُلمةٍ، فهو قول الله في كتابِه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾[1]، ليس يعني ميتةَ الأموات.

وذلك أنّ الله لمْ يَرُدَّ ميتاً ماتَ إلى الدُّنيا، ولكن ميتةَ الأحياء وهي الظلمة التي كانت في قلوبهم فأنارهم الله باليقينِ فهي حياتها، ومن أراد أن يتركه ميتاً وهو حيّ يمسي بين ظهراني[2] اليأس وهو عند الله وعند الموقنين ماهي إلا حياة الظلمةِ التي في قلْبِه، تركهُ الله في الظلمةِ لا يُطالع بظلمةِ قلْبه شيئاً من شواهدِ الآخرة. فقد حالت الحُجب بينه وبين مطالعتها؛ فهو يقول ما يقول الموقنون، ويصف صفاتهم والقلب مظلمٌ لا نورَ له؛ فليس لوصفهِ حلاوةٌ، ولا لأعمالهِ نورٌ.

فقال – (جَلَّجَلَالُهُ): ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾؛ فهو الكافر والمنافق، والجاهل؛ فأخرج الكافر من كفرهِ، والمنافق من نفاقهِ والجاهل من جهلهِ؛ فهي حياتهم، ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾[3] أفرأيت من تركه الله في ظُلمتِه من يستطيع أن يخرجه منها إلا الذي أنزله فيها؛ فأخبر الله تعالى: لَيۡسَ بِخَارِجٖ من الظلمة؛فقالت الجهلةُ فيمن يدعي الاستطاعة، بل نحن نستطيع أن نخرج منها، وقال الله تعالى: ﴿لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾، حتماً كما وادَّعى الآدمي الجاهل أنه يستطيع حتماً منه فلو عَلمَ المسكين أنه.

---

(١) الأنعام: ١٢٢، الآية.

(٢) ظهراني: الوقت المتوسط ويقال: وَيُقَالُ: رأَيته بَيْنَ ظَهْرانَي اللَّيْلِ أَي بَيْنَ الْعِشَاءِ إِلى الْفَجْرِ. لسان العرب – ابن منظور (٦٣٠هـ)، مصدر سابق: ج٤، ص٥٢٤.

(٣) الأنعام:١٢٢، الآية.

إنما صار لا يستطيع كثيراً مما يريد من أحواله في دعواهِا لاستطاعة، وكثيرٌ من الاستطاعةِ كي يستطيع ويلجئ إلى الذي يملك ضرَّهُ ونفعه في الطاعاتِ، والمعاصي، ليعينه على ما لا يستطيع ويعود إلى ذكْر اليقين.

قال قائل: اليقين إذا وصل إلى القلْبِ يملئ القلب نوراً، وينفي عنه كل رَيبٍ؛ فيملئ بأقلِّ القلْبِ شكراً ومن الله تعالى خوفًا وذلك؛ لأن اليقين معرفة عظمة الله تعالى قدْر عظَمَة الله، وعِظَم قدر معرفة عِظَمِ الله؛فلذلك يكون قدر (ﷺ) الخوف من عظمةِ الله، وبقدر كثرة الخوف لله يحتجز العبد من معصيةِ الله، ويصدق في الأعمالِ من طاعةِ الله؛ فإذا صحَّ اليقين في القلبِ صحَّ الخوف فيه، وعَمُرَ خَرابُه؛ فإذا قلَّ الخوف خَرِب القلب وقلَّ عمرانُه.

قلت: فما عمران الخوف في القلْبِ؟

قال -المحاسبي-: الحزن الدائم والاعتبار بما يرى، والاختبار بما تسمع.

قلت: فما خرابه؟

قال – المحاسبي –: إذا لمْ يكن فيه ما وصفنا.

قلت: فإذا لم يكن في القلبِ الخوف، والحزن؛ فما الذي يَقلقهُ ويُعمِّرُه؟

قال – المحاسبي –: الأمْنُ منه، والسرور بالدُّنيا، والفرح ومن الفرح، والسرور تنتج القسوة، والغفلة ومن بينها ينتجُ العُجبِ ومن العُجب مَخرج الكفر، لقولِ النبي – (صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) –: «أخاف ما أخافُ عَليكم شُحًّا مُطَاعًا

وَهَوىً مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ»[1]، وإذا تمكَّن في القلْبِ العُجُب ورثَهُ الكِبرُ، وكان غَامِرُهُ حينئذٍ حبُّ التعظيم، وحبُّ الثناء، وحبُّ الرياسة، والمدح؛ فإن لمْ يفعل ذلك بهِ انتفخت أوداجه[2]، واحمرَّت حَمَالِيقُ[3] عينيه غضباً، وذلك محضُ الكبرِ.

قلت: فإذا صحَّ القلب بتصحيحِ الخوف فيهِ صحَّت الأعمال؟

قال – المحاسبي: فما ظنك بالدابةِ أجهدها قائدها، وحثَّها[4] سائقها؛ فقصرت في السيرِ،طاقتها ومجهودها.

قلت: لا.

قال: فلذلك لا يسكن في هذه النفسِ المَعيُوبة؛ إذ أفادها الحقّ، وسَاقَها الخوف الصّادق أنها لا تقتصر في أعمالِ الطاعات بالاستقامةِ خوفَ العاقبة؛ فانظر متى يخرج الأمن، والاستهانة من قلْبِك؛ فكيف بوجوبِ الطاعات فيه.

إن العقوبات إذا تعجَّلت مع الوثوب على المعاصي، لأقصَرْنَا عن المعاصي، ولا ستمر فينا حُسن السيرةِ من الأخلاقِ، والآداب لأمور الدُّنيا، ومجدّتْ بنا الاستقامة لأعمال الآخرة، ولكن العقوبات تأخَّرت.

---

(١) انظر: سنن الترمذي – محمد بن عيسى الترمذي (٢٧٩هـ)، مصدر سابق: ج٥، ص٢٥٧، رقم الحديث (٣٠٥٨).

(٢) أوداج: مَا أحاط بالحلقومِ من الْعُرُوق. المخصص – علي إسماعيل المرسي (٤٨٥هـ)، مصدر سابق: ج٢، ص١٥٢.

(٣) حَمَالِيقُ: الْعين، بياضُها أجمعُ. المصدر نفسه: ص٩٧.

(٤) حَثَّ: استعجل. لسان العرب – ابن منظور (٦٣٠هـ)، مصدر سابق: ج٢، ص١٣١.

فاستمر بنا قُبح السيرة من الأخلاق، والآداب لأمور الدنيا؛ ففقدنا الخوف وقعدَ بنا الأمْن، والاجتهاد عن استقامة أعمال الآخرة ولكن من ثقةٍ منا، صبرنا على وعيده وعقابه، لبسنا ثوب الاستهانة، ولكن من قلّة يقْينِنا إنما حذراً من عقابِه؛ فإنّ لله وإنا إليهِ راجعون.

وقال قائل: متَّعنا الله وإياكم بالنعمة والعافية، ومنَّ علينا وعليكم بشكْرٍ يجلُب المزيد، ووفَّقنا وإياكم لامتياز الحكمةِ والغُنْم[1]، *ولإيثار* المبادرة على حسنِ الشكْر منا عليهِ، إني للعنايةِ بنفسِي، وبمن أعنى(ﷺ) بهِ صرفتُ ما علمتُ لأختبر بهِ ما جهلتُ؛ فلمْ أجد أحبط للأعمال المستورة، ولا أفسد للقلوب الجامدة، ولا أضرّ بالحكمةِ البالغة، ولا أجمع في هَلكَةِ العبد المريد، ولا أدوم على أضرار الموقف، ولا أبعدَ من الإنصاف، ولا أقربَ من الجور[2] في الحكم، ولا ألزم لحجةِ العُجب، ولا آثرَ لجلب الهوى، ولا أجهل لإصابة الحقّ، ولا أعمل بالرياءِ والتزين، ولا أبركَ لخالصِ النصح، ولا أعمل بموافقة الهوى، ولا أشد من سخطٍ له؛ إذا هو خالف منه الهوى، ولا أبعدَ من حُسنِ السيرة، ولا أقرب من قبحِها، ولا أحسن ظاهراً، ولا *أقبح* باطناً من غفلةِ الرجل عن نفسِه، وقلَّة معرفته بها.

سيما إن كان عاقلاً مريداً؛ فأجابته نفسه حينئذٍ إلى احتمال مُؤن الطاعات،

(١) الغُنْم: من الْغَنِيمَة وفِي اللُّغَة الرِّبْح وَالْفضل. جمهرة اللغة، محمد الأزدي (٣٢١هـ)، مصدر سابق: ج٢،ص٩٦٣.

(٢) جور: الجور: نقيض العدل. العين - الخليل الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٦، ص١٧٦.

أو عَالِمـًا مؤدَّبـًا؛ فأدركَ بعملهِ فضيلةً لَمْ تكن نفسه بأملِها ولا يبلغها بملكٍ من ملكِ الدنيا، عظم نفسه حينئذٍ * ترصِد ارصادِه بقوله، أَصْبَأَ[1] السبعُ في المكانِ الخَفي، كي ينال حظه منها في جهلهِ بها؛ فوثب[2] عَليهِ، وثبةً تملكهُ بهواها، وتأسره بموافقتِها؛ فحينئذٍ يتسع العبد في جهلِه بها، وينشط في مساعدتها، وإن كان يدَّعي أنَه لا يثق بها؛ فلا يغضب إلا لها، ولا يرضى إلا لها ولا يحتمل من الأعمال إلا ما وافق هواها.

وإن كان فيه خلاف الحقّ، ومع ذلك يفقد من مثلِه الخوف إلا بالدعوى، ويقل منه الخشوع، والحياء ويكثر فيهِ التزين، والرّياء، وذلك غفلة العبد عن نفسِه وجهله *بها* ويظهر منه عند ذلك الرجاء الكاذب، والخوف الكاذب ويحسُنُ ظاهره، وكلامه، ويفسدُ ويقبحُ باطنه وهمته، وأمارة ذلك في مثلهِ أن يقلَّ الإنصاف من نفسهِ لغيره ويلتمس التعصب لنفسه من غيره، إنه من لم يعرف نفسه؛ فهو من استقامة نفسه في اِعوجاج، ومن دنياه على قُبحٍ وفساد، ومن دينه على غرورٍ، وإني استرشدت العِلْم والعقل، أن يقفا بي على معرفتي بنفسي، وبماذا اخْتَلَبَها[3] فأرشداني بأن العبد لا يصل إلى معرفة نفسه إلا بصدق الخوف، واستدراكِ ما مضى من سيّء أعمالِهِ السالفة وإصراره على مَسَاوِئِهَا والمُقامِ عليها.

---

(١) أَصْبَأَ: إِذا طَلَعَ وَقد صَبَأَ يَصْبو من الصِّبا. المخصص - علي المرسي (٤٨٥هـ)، مصدر سابق: ج٤، ص١٩٩.

(٢) وثب، إذا جلس جُلوسـًا متمكِّنـًا. تهذيب اللغة، محمد الهروي (٣٧٠هـ)، المصدر سابق: ج١٥،ص٥٢.

(٣) اخْتَلَبَهُ: أي (الْخِلاَبَةُ) الْخَدِيعَةُ بِاللِّسَانِ. شمس العلوم ودواء كلام العرب - نشوان الحميري، مصدر سابق: ج٣، ص١٩٠٧.

فقلت: أما ما مضى من الإساءةِ؛ فإن استدركها؛فلقلة أن يعرف بعضها، وأما المساوئ التي هو مقيمٌ عليها؛ فقد عازه[1] بمعرفتها. (﴿)

قال – المحاسبي – إنما عازهُ معرفته لجهلهِ بعيوبِ نفسه، ولأتلافهِ بها.

قلت: فكيف بمعرفةِ عيوبها؛ فإنه قد قيل: إن الله تعالى إذا أراد لعبدٍ خيراً عرَّفه عيوب نفسه؛ فالنفسِ هل تنفرد بعيوبٍ دون العبد؟ وهل لها من عيوبٍ غير العيوب الظاهرة من المعاصي، والفجور، والسرقة، وشرب الخمر والغيبة، وما شاكل ذلك مما يظهر للمخلوقين؟

قال – المحاسبي: بها معاصي باطنة تخفى على العبدِ وعلى المخلوقين؛ فأدناها أضرُّ على العبدِ من الفطامِ عن المعاصي الظاهرة.

قلت: ثبتَ لي عِلْمٌ ذلكَ في التنزيل أو في السنَّة أو في الآثار.

قال –المحاسبي–: إن كان معه منك خمسون حجةٍ وإلا زِدتُك.

قلت: خمسٌ من خمسين؟

قال –المحاسبي–: ألمْ تسمع قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾[3]،وفي قصة ولد آدم فطوَّعت لهُ نفسه قَتل أخيه، (قيلَ لقيهُ)؛ فقتلهُ، ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ

(١) عازهُ: غالبهُ. معجم ديوان الأدب – إسحاق بن إبراهيم (٣٥٠هـ)، مصدر سابق: ج٣، ص١٧٦.

(٢) يوسف: ٥٣، الآية.

(٣) النازعات:٤٠، الآية.

لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[1]،﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسَمِرِيُّ ﴾[2]، إلى قوله: ﴿سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾[3]،وقال النبّي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): «رجعتم من الجهادِ الأصغر إلى الجهادِ الأكبر مجاهدة النفوس»[4]،وقالَ رجلٌ: ما أفضل الجهاد؟ قيل: مجاهدة نفسك وهواك، ويقال: كل شيء نفس، ونفسُ النفسِ الهوى، ونفسُ الهوى الشهوات.

وقال الحَسنُ البصري: ((حادِثوا هذه القلوب بذكرِ الله؛فإنها سريعةُ الدثورِ، وأقذعوا[5]هذه الأنفس؛ فإنها طُلَعَةٌ - وإنها تُنازِعُ إلى شَر غاية))[6].

وقال يونس بن عبيد[7]: ((إني وجدت نفسي تجهل لي مؤونة الصوم في

(١) يوسف:٨٣، الآية.

(٢) طه: ٩٥، الآية.

(٣) طه:٩٦، الآية.

(٤) انظر: الزهد الكبير - أحمد بن حسين البيهقي (٤٥٨هـ)، مصدر سابق، ص١٦٥، رقم الحديث: (٣٧٣).

(٥) أقذعوا: أي أَقْذَعَ وهي الْقَافُ وَالذَّالُ وَالْعَيْنُ كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى الْفُحْشِ. مِنْ ذَلِكَ الْقَذَعُ: الْخنَا وَالرَّفَثُ. مقاييس اللغة، أحمد الفارس، مصدر سابق: ج٥، ص٦٨.

(٦) جاء: ((حادِثوا هذه القلوب فإنها سريعة الدثور وأقنِعوا هذه الأنفس فإنها تنزع إلى شر غاية)). البداية والنهاية، إسماعيل عمر ابن كثير (٧٧٤هـ) المعارف، بيروت، ط٨، ١٩٩٠: ج٩، ص٣٦٨.

(٧) يونس بن عبيد ابن دينار (١٤٠هـ)، الإمام القدوة، الحجة أبو عبد الله العبدي، مولاهم البصري. من صغار التابعين وفضلائهم. سير أعلام النبلاء - الذهبي (٧٣٧هـ)، مصدر سابق: ج: ٦، ص٢٨٨.

الحرِ الشديد بالبصرةِ، ولا تجهل لي تركَ كلمةٍ لا تعنيها))، وقالَ: أوحى الله تعالى إلى داوود -عَلَيْهِ السَّلَامُ- يا داوود عادِ نفسك فيَّ، ودَنّي[1] بعداوتها وكان النبيّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وأصحابه يعوذون بالله من شرورِ أنفسهم؛ فإن النفس مطبوعةٌ على الميلِ إلى حبِّ هواها مالم يُحفزها الخوف، وقد حرَّم الله تعالى هواها في الكتابِ، والسنَّة وَبِحَسْبِكَ من معرفتك بشرِّها. أن الله تعالى جعل هواها ضد الحقَّ وهي قابلةٌ من هواها، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾[2].

قال أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب -عَلَيْهِ السَّلَامُ- (ﷺ) عن رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): «إن أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ طُولُ الأَمَلِ، واتِّبَاعُ الْهَوَى؛ فَأَمَّا طُولُ الأَمَلِ فَيُنْسِي الآخِرَةَ وَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى؛ فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ»[3]. وقال قائل: «أخاف عليكم ثلاث بلايا شحاً مطاعاً، وهوى مُتَّبعاً، وإعجاب المرء بنفسه»[4].

---

(١) ودَنِيّ: الدُّنيا لأنَّها دَنَتْ وتأخَرَّتِ الآخِرةُ. العين - الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٨، ص٧٥.

(٢) ص: ٢٦، الآية.

(٣) نهج البلاغة - علي بن أبي طالب (٤٠هـ)، شرحه: محمد عبده، دار المعرفة - بيروت، ج١، د.ت: ص٩٢. جامع البيان في تأويل القرآن - محمد بن جرير القرطبي (٣١٠هـ)، ت: أحمد شاكر، الرسالة، السعودية، ط١، ٢٠٠٠: ج١١، ص١٤٦، رقم الحديث: (١٢٨٣٦).

(٤) وهو حديث عن علي بن أبي طالب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوىً متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العامة) في تفسير القرطبي جاء بمعنى الآية: =

قلتُ؛ فَالْآنَ أرجع مضطراً إلى معرفةِ النفسِ وعيوبها، إذا كنتُ لا أسلم عليها في أعمال الشرِ، وأرجعُ مضطراً إلى العِلْمِ؛ فعنى قول: سفيان الثوري(١٦١هـ)[1] ((إذا عرف العبد نفسه لمْ يضرهُ ما قيل فيهِ من ذمٍّ، وما عمل من أعمالِ خير سراً وجهراً))[2].

وقد سمعتك تقول: كل ما لا يضرّ فهو ينفع؛ فما أرى من العِلْمِ بعد العملِ أعود[3] نفعـًا على العْبد من معرفتِه بنفسهِ؛ فاشرح لي من ذلك ما يرجع بي إلى النَّفع في أعمالي، وينصر بي فساد أعمالي وصلاحها.

قال - المحاسبي: ما زلتَ تَعقْلُ ما سألت عنه، لقد سألت عن أصل الخير والشر، ومن فروعهما ما ظهر منها وما بطنَ ما يُعقْلُ منه وما يُجهلُ، وسألت عن عِلمٍ لا يُحتمل اليوم، ومن احتمله؛ فبعبارةِ القول منه فقط، والعجز عن احتمالهِ للعملِ.

= ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾، المائدة: (١٠٥)، الآية. فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل (٢٤١هـ)، ت: وصي الله محمد، الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٣: ج١، ص٥٣٠، رقم الحديث (٨٨١). جامع البيان في تأويل القرآن - محمد القرطبي، مصدر سابق: ج١١، ص١٤٦.

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي (٧٣٧هـ)، مصدر سابق: ج٧، ص٢٣٠.

(٢) آداب الدين والدنيا، - علي بن محمد الماوردي (٤٥٠هـ) دار المناهج، بيروت، ط٢، ٢٠١٤: ص١٢٦.

(٣) أعود: أُمارِسُ. العين، الخليل الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٢، ص٢٥٨.

وذلك لأنَّ فيه عِلمُ الصَّبرِ،والمكروه،والنزوع[1] عن ظاهر الشر وباطنه، واحتمال ظاهر الخير وباطنه بمعنى حقيقة. الصّدق في القولِ، والإخلاص في العملِ، وهو التوبة النصوح، والخوف الباطن والحزن الدائم، والفكر في المعادِ، وهيهات أن يصل العبد إلى معرفة عيوب نفسه إلا بعقْلٍ وعِلْمٍ غزيرٍ، وبمعرفةٍ شافيةٍ، وحكمةٍ بالغةٍ وبصيرةٍ ثاقبةٍ معروفةٍ إنَّ فيه خالصَ الدِّين، قَالَ الله تعالى لنبيهِ (صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ): ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾[2]، فلا تكبرنَّ عليك الآن إذ سألت عن الأمرِ العظيم أن رجعتْ عليك المسألة بالجوابِ العظيم والموصوف الشديد؛ فإنك لو علمت ما عنهُ سألت لأعددت لرجوع الجواب جلبابَ[3] الصّبر، واحتمال أعظم المؤونة لجزيلِ الثواب، ولمعرفةِ النفس تفسيرٌ يكثرُ ولا يمكن للمستمع معرفة ذلك إلا بالإيجاز.

إلا من قدَّم فراغ القلْبِ لهُ، والنظر فيه، ومراجعة السؤال عنه؛ فإني وجدت تأسيس ابن آدم على تأسيس التجارب؛ فمن أجل ذلك ركبَ فيهِ ما ركبَ فيهِ من الأداةِ لدفعِ شرَّ ما سُلِّط عليه من العدوِ، ألا ترى أنَّهُ يقول (جَلَّجَلَالُهُ): ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[4]؛ فاعقلْ عن اللهِ تعالى ما حذَّرك من عداوتِك، واعلم أن إرادة إبليس وسلاحه الذي يصل بهِ إلى الظفر بك. هو آثَرُ الأشياء عندك وهو هواك. (﴿)

---

(١) النزوع: قلعُ شَيْءٍ. مقاييس اللغة، أحمد الفارس، مصدر سابق: ج٥، ص٤١٥.

(٢) الزمر:١٤، الآية.

(٣) جلباب: ما تُغطِّي بِهِ ثِيابَها مِن فَوْق، كالمِلْحَفةِ. تاج العروس وجواهر القاموس، محمد الزيدي، مصدر سابق: ج٢، ص ١٧٥.

(٤) فاطر:٦ الآية.

واعلم أنّ محبَّتك للطاعةِ المُحاربة لعدوِّك، والمُجاهدة لنفسك، والمخالفة لهواك، سيما إذا كانت نفسك موافقةً لهواها، وكان هواك سهم إبليس المسموم بهِ يصل إلى قلْبك. وهو كلامٌ إن فرَّعناه تفنَّن، وتفرَّع فكثُر، ومعرفة نوعٍ واحدٍ من الأصول التي يُستدَلُّ بها على الفروع أثقل على إبليس من معرفةِ ألف مسائلةٍ، يُحقِّق ذلك قول أبي هريرة: ((لبابٌ من العِلْمِ أصلح بهِ فساد قلبي، وفسادَ قلب من يأوي إلي، أحبُّ إليَّ من صلاةٍ حولٍ مبرورٍ، وصيام حولٍ مبرورٍ؛ لأن فساد الأعمال كلها إنما يؤتى العبد فيها من جهلِه بفسادِ قلْبهِ ومصلحة فساد قلْبه، ولو عرف فساد قلْبه من أين أتى لعرفَ صلاحه من أين يؤتى))[1].

اعلم الآن إن معرفة عِلْم النفس عِلمٌ صغير، وإنه موجودٌ وإن سمعه من يدعي عقلاً أنه يعقله، فإن عقِلَهُ في الظاهر أنه يُصدِّق به في الباطنِ أو إن أقرَّ بهِ في المشاهد، فإنه يقِرُّ به في الوحدة، كلا إنه أعز من ذلك، والذي يدل على غيره. أنَّه قد صح مثلَ قول سفيان – الثوري: ((من عرف نفسه لمْ يضره ما قيل فيه من خيرٍ أو شرٍ))[2].

فاعلم علمـًا غير ذي شك، أنه إذا لمْ يضره، فأنه قد نفعهُ؛ فما ظنُّك الآن برجل يبلغ في العِلْمِ درجةً ينفعه ما يضرّ غيره، ولا أعلم عالمـًا ولا عابداً على وجهِ الأرض ممن نعرفه الآن وهو يضَرُّه ما قيل فيه من خيرٍ أو شرٍ، إن مُدِح

(١) آداب الدين والدنيا. الماوردي (٤٨٥هـ)، مصدر سابق: ص ١٤٣.

(٢) المصدر نفسه: ص١٤٠.

بخير فتنهُ ذلك المدح؛ فضَرَّه، وإن مُدِح بشرٍ فتنهُ؛ فضَرَّهُ المدح، وإن ذُمَّ[1] بحقٍّ أحزنِه وفتنهُ فضَرَّه الذمّ.

فأمّا من لا يعرف فلا يقدر على أن يعصي؛ فيجوز في الحكمِ ذلك؛ ليعلم أني لا أعرف من يعرف نفسه، ولا أعرف من يعقل كيف ينبغي لهُ أن يعرف نفسه، ولا أعرف من إن أخترته بِقِيْلِهِ[2] أو بفعلِه؛ فمن ذلك ضَرباً ما قيل فينا من خيرٍ أو شرٍ، والله المستعان على إغماضنا[3] وعلى قلةِ هدايتنا لمعرفتِه، وإن وصفَ معرفة النفس عندي اليوم لخطرٍ عظيم عند من يدَّعي العَقل، والمعرفة، والعَمل.

قالَ ابن مبارك[4] -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-:

تغـرَّب الحـقّ حتـى وَصفُـه خَطـرٌ
عنـد الحليـم وعنـد العالـمِ الخَـبرِ.

وقد صحَّ عندي أنه من لمْ يعرف نفسه؛ فهو من دينه على غَرر، ومن سيرة دنياه على أقبح السيرة.

---

(١) الذم: اللَّوْمُ في الإِساءة. العين، أحمد الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٨، ص١٧٩.

(٢) بُقَيْلَة: بُقيلة وخضِر. المخصص، علي المرسي (٤٨٥هـ): ج٣، ص٢٨٧.

(٣) إغماضنا: وهي إغماض وتأتي في إغماضِ الْكَلاَم والجدل والخُصومات فِي الدِّين، وَمِنْه حَدِيث مُعاذ: (إياكَ ومُغَمّضَاتِ الْأُمُور). تهذيب اللغة، محمد الهروي (٣٧٠هـ)، مصدر سابق: ج١٤، ص٢١٥.

(٤) الإمام: عبد الله بن المبارك (١٨٤هـ). سيرة أعلام النبلاء - الذهبي (٧٣٧هـ)، مصدر سابق: ج٨، ص٣٩٧.

واعلم أنه من ضَرَّه ما قيل فيهِ من خيرٍ أو شرٍ في سرٍّ أو علانية؛فهو يضرَّه ما عمل من أعمالِ الخير، والشر (*) وكل هذا لا يوجد إلا بمعرفةِ الرجل بنفسِه، وإني لما تدبَّرت دلالات العِلْم والعقل لأقع على معرفة نفسي أصبت وصفي، ووصفَ من أعرف من أهل زماني. أن قد ظهر من أهلِ زماني الوحشة،والتقاطع، والتدابر، والتباين والحسد لأمور الدُّنيا، والغفلة، والتسويف لأمور الآخرة.

فاستوحشتُ ذلك *وأقلعتُ* وساءَ ظنّي، وإني في طولِ الفكرة فيهِ حتى غَلَبَ عليَ همّهُ،؛فوجدت دلالات العِلْمِ ونظائر الحكمة، وفطن[1] القلوب قد نَعَوا[2] إلينا أزمنة الخير، وذكروا إدبار دولتِه، وحذَّرونا، وأنذرونا هجوم الشر وإقبال دولتِه، وإني لأرى زماناً قد استدار أهله ودارت *الخاصة* رجاؤه بالشرِ وغلبه الهوى؛ فرأيت الجاهلية من أهل الدّين، وأهل زماني ممن أعرف قد تباغضت، وتنافرت؛ فالقلوب منهم قد اختلفت والأهواءُ فيهم قد تفرَّقت وبعضها من بعض قد تبرَّأت، والعلماء منه قد فُتنت وإلى الدُّنيا قد ركنت، وقرَّاؤها قد تحيرت ولدنياها قد آثرت وعلى ذهبها، وفضتها قد حرصَت، وعن آخرتها قد غفلت، والقلوب منها قد فسدت وتنكرت،وعبادها قد جهِلتَ.

فتعظمت وتكبرت، والعهود منهم مرحَتْ[3]، والأمانة فيهم قد قلَّت،

---

(١) فطن: الفطنة: من قولك: هو فطن وفطن، أي: عالم. مجمل اللغة، ابن فارس، مصدر سابق: ج١، ص٧٢٣.

(٢) نَعْواً: مَوضِع، زَعَمُوا. جمهرة اللغة، محمد الأزدي (٣٢١هـ)، مصدر سابق: ج٢، ص٩٥٥.

(٣) مرحت: من مَرِحَ واللهو. مقاييس اللغة، أحمد الفارس، مصدر سابق: ج٥، ص٣١٦.

وفُقدت، والعقول منهم قد نقصت وأهواؤهم عليهم قد غلبت، والأحلام فيهم قد غربت، والمروءات والآداب منهم قد ذهبت، والسكينة والوقار منهم قد قلَّت والجفاء،والقسوة، والوحشة منهم قد ظهرت،وبعضهم لبعضٍ على المداهنةِ قد احتملَ. وذلك أني وجدت الدُّنيا قد سقتْ أهلها من حُبّها كاساً صرفاً سَرقت لهُ عقولهم، *وأبدت* فيهِ هواهمُ.

فعادوا إلى هذا الوصف، فلا تسألنَّ عمَّا ورائه؛ فلقوس الهوى بموافقةِ النفوس في أعراضِ القلوب أنفذُ سهماً من دلالاتِ العقول، ولإصابة الحقّ مخالفة في أهدافِ النفوس يُحقق ذلك، قول ابن مسعود[1]: ((أنتم اليوم في زمانِ الحقّ فيهِ قائده الهوى، وسيأتي بعدكم زمان يقود الهوى فيهِ أعمال الحقّ))[2].

قال ابن عباس[3] -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ-:

ومـا النـاس بالنـاسِ الذيـن عهدتُهـم
ولا الـدارُ بالـدارِ التـي كنـتَ أعـرِفُ[4]

---

(١) أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود الهُذلي حليف بني زهرة صحابي وفقيه ومقرئ ومحدث (٣٢ هـ). سير أعلام النبلاء - الذهبي (٧٣٧هـ)، مصدر سابق: ج١، ص٤٦٢.

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد جرير القرطبي، مصدر سابق: ج١٩، ص٢٠٨.

(٣) عبد الله بن عباس حبر الأمة، وفقيه العصر، وإمام التفسير أبو العباس عبد الله، ابن عم رسول الله - صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وقد دعا له رسول الله -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- أن يفقهه في الدين، وسمي ترجمان القرآن، توفى سنة (٦٨هـ). سير أعلام النبلاء - الذهبي (٧٣٧هـ)، مصدر سابق: ج٣، ص٣٤٠.

(٤) تكملة البيت الشعري: (وما كلُّ من تَهوى يحبّكَ قلبُهُ...ولا كلُّ مَن صاحبتَه لك مُنصفُ). =

وسُمعَ صوتٌ حين قُتِل عمر - بن الخطاب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لبيكِ على الإسلام من كان باكيًا
فقد أوشكوا هُلوكًا[1] وليسوا على العهدِ

وأدبـــرتِ الدنيـــا وأدبَـــرَ خيرهـــا
وقد ملّها من كان يوقِن[2] بالوعدِ[3]. (ﷺ).

فاعقل متى قيل هذا، فإني وجدت لهذه الأنفس الأمَّارة بالسوءِ حكومات جَور خفية، يخفى أكثر ذلك من المرءِ عن نفسِه، فضلاً عن أن تعرفُه منها حتى إن الكلمة فيها يرجعها ويوافق هواها ويخالف الحقّ بِهِ ليستخرجها، وإن الْعصبَة[4] لتظهر كِبرها، وإن الطمعَ الكاذب ليمحو ورعها ويبطل تقواها، وإن الأعمال الطاهرة لباسًا يُعرفُ به أهلها؛ إذا كانوا صادقين، أو يَقصدونه إذا كانوا كاذبين، وإنّ أعمال الجوارح يُصحِّحها برّ القلوب أو تفسدها، وإنّ القلوب *مهيمنةٌ* على الجوارح.

= انظر: تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب، محمد بن خلف (٣٠٩هـ)، ابن المرزبان: ت: عصام محمد، التضامن، السعودية،١٩٩٢: ص٦.

(١) وهُلوكًا: من هلك أي السقوط. مجمل اللغة، أحمد الفارس، مصدر سابق: ج١، ص٩٠٨.

(٢) يوقن: من اليقينِ، وهو إزاحة الشك، وتحقيق الأمر. العين، الخليل الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٥، ص٢٢٠.

(٣) الهواتف - عبد الله محمد عبيد البغدادي (٢٨١هـ) ابن أبي دنيا، ت: مصطفى عبد القادر عطا، الكتب الثقافية، لبنان، ط١، ١٩٩٣: ص٣٢.

(٤) العُصْبة والعِصابة: جمَاعَة لَيْسَ لَهَا وَاحِد. تهذيب اللغة، محمد الهروي (٣٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٢، ص٢٩.

واعلم أنَّا وافقنا الصالح من الماضين في أعمال الجوارح، وخالفناهم بالهِّممِ، والقلْوب من الخوفِ قد نفرت عند الأحزانِ إلا بالتكلّفِ، وحزن التكّلف، لا يثبتُ أو يَنْصَرِمُ[1] ولمْ يعقل التواضع إلا بإظهار السيماء[2] في تقصير الثياب. وحف الشوارب، والهيأة في اللباسِ.

فتحابينا في الألسنِ للموافقةِ على المداهنةِ، وتباغضنا بالقلوب لاختلاف القلوب، وعَادَى بعضنا بعضاً على المصادفة، وآلَفَ بعضنا بعضاً على المباينة في العِشرةِ؛ فتنافرت القلوب ووقعت فيها وحشة؛ فَسيمَانا سِيْمَا الكاذبين، تبيَّنهُ فينا الصادقون.

فأصبحنا مع قبحِ الوصف وسَمَاجةِ[3] هذه الآداب لا نستأهل خروجاً عن البعض ولا دخولاً في زيادةٍ؛ فما تلقى منا إلا ذماً لغيرهِ مذموماً عند غيرهِ، مستوحشاً منهُ، غيرهُ غير واثق بغيرهِ، ولا هو موثوق عند غيرهِ إلا مع موافقة الهوى على الغشِ والإدهان، لا نجد صديقاً فنتأسَّى بهِ ونقتدي، ولا خائفاً؛فيلزمنا الخوف، ولا محزوناً بعِلْمٍ وعقل؛فبقينا حيارى نطلب الصّدق وما إليهِ سبيل، أتعلم يا عاقل وصف من هذا؟

---

(١) يَنْصَرِمُ: وَيُقَالُ: لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ الأَصْرَمانِ لَأن كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَنْصَرِمُ عَنْ صَاحِبِهِ. - لسان العرب، ابن منظور) ٦٣٠هـ)، مصدر سابق: ج١٢، ص٣٣٦.

(٢) سيماء: رُؤْيَة، مظهر، هيئة. المصدر نفسه: ج١٢، ص٣١٢.

(٣) سَمَاجة وَهُوَ سَمْج وَقَالُوا سَمِيج كقَبِيح. المخصص، علي المرسي (٤٨٥هـ)، مصدر سابق: ج١، ص٢٣٣.

هذا وصف عيون أهل زمانك من مقربيهم، وعلمائهم، وعُبادهم، والمدَّعين للعقولِ منهم مشترهين[1] في رضاهم مُتكبرين عند خلافِ أهوائهم، أهل سفهٍ، وغلوٍ، وجهالةٍ عند غضبهم. وأهل حرصٍ، ورغبةٍ، وأدَنأ نفوسٍ عند أطماعهم حُبّهم بالمصافحةِ بالأيدي، ومودتهم مُكاشرةٌ[2] عند التلاقي، وفي القلْوبِ داءٌ دفينٌ، وهذه صفة أخلاق المنافقين.

قال حذيفة[3] -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: كنا نعرف المنافقين على عهد النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إذا لقونا بدؤنا بالمصافحة بالأيدي والْمُكَاشَرَةِ[4] (ﷺ)؛ فإذا مضينا همزوا[5] لنا ولمزونا[6]، وذلك أني وجدت من أعرف من أهلِ زماني يتفقهون بالألسنِ، يأمرون بهِ ما وافق ذلك أهواءً باطلةً فيما خالف أهواءنا.

واصفون للزهادةِ في الدُّنيا بالألسنِ، عاملون فيها بالحرصِ، والرغبة

---

(١) مشترهين: شراهةٌ إلى المال: جشع وطمع. معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار، مصدر سابق: ج٢، ص١١٩٦.

(٢) مُكاشرة: ضَحِك فوقَ التبَسُّم وخصَّ بعضُهم بِهِ ضَحِك النِّساء وَتَهانَفْت بِهِ. المخصص، علي المرسي (٤٨٥هـ)، مصدر سابق: ج١، ص٢٧٧.

(٣) حذيفة بن اليمان -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وهو حسيل بن جابر من بني عبس حلفاء بني عبد الأشهل ويكنى أبا عبد الله. شهد أُحُداً وما بعد ذلك من المشاهد كان من الصحابة وهو أعلم أهل زمانه بالمنافقين، وتوفي بالمدائن سنة ست وثلاثين. الطبقات الكبرى - محمد بن سعد (٢٣٠هـ)، مصدر سابق: ج٦، ص٩٤.

(٤) المكاشرة: من الكَشْرُ: بدو الأسنان عند التبسم، ويقال في غير ضحك، كَشَّرَ عن أسنانه إذا أبداها. العين، الخليل الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق:ج٥،ص٢٩١.

(٥) همزوا: من ورجلٌ هُمَزة: يعيبك من خلفك. المصدر نفسه: ج٧، ص٣٧٢.

(٦) ولمزونا: هو من اللَّمْزُ، كالغمز [في الوجه] تَلْمِزُه بفيك بكلام خفّي. المصدر نفسه: ج٧، ص٣٧٢.

بالجوارحِ والقلوب، يدفعها عنا في الظاهرِ بالقولِ، ويجترها إلينا بالأيدي والأرجل في الباطنِ؛ فبدلنا الخوف من أهوالِ الآخرة خوف الفقر قبل نزوله، وبدَّلنا مكان الصّدق في الأعمالِ جزيل الثواب من الله للتزين عند خلقه ليعظموه، ويقبلوا منا ويحسنوا علينا ليناً. فصبرنا مكان الشكْر لله على نعمهِ وجميل ستره طلبَ الشكْر من المخلوقين؛ فأحببنا تعجيل ثواب أعمالنا من المخلوقين في الدّنيا، ونزعم أنَّا نلتمس ثوابها من اللهِ في الآخرةِ، وقد حرَّم الله ذلك على خَلقِه؛ فطلبنا الصّدق بالتمني،وباختلاف النية، وبالكذب في القلْبِ فهذه صفة أهل زماننا فأعلمهُم مستحوذٌ عليهِ هواه، وأعقلهم حزينٌ مجَانبٌ لعملِه، وأحلمهُم *ليسبقه*.

فيما علم عنه الصبي وأبلغهم في منطقه متأوِّلٌ، وأصغاهم بالاستماع يُرصدك الغوائل[1]، وأنفذهم رأياً يعمى عند عيوبِ نفسه، وأرشدهم اجتهاداً مفتونٌ معجَبٌ، وأثبتهم عقلاً جائرٌ عن محجةِ الحقّ متمسكٌ برشا الضلالة وأكملهم بصيرةً عاجزٌ عن العملِ ببصيرةٍ، وجاهلنا ذئبٌ مختلسٌ مُستصغِرٌ لمن ليس في درجتِه مُستدرَجٌ من حيث لا يعلم، وعابدُنا جبَّارٌ لا يُكلَّم، فقد أحاط بنا الجهل ونحن لا نعلم فهيهات ما أبعدك، وعِظَم ما ترى،وكل من يُرى من التمسُّك بعُرى[2] الإسلام.

---

(١) الْغَوَائِلُ: الدَّوَاهِي. تهذيب اللغة، محمد الهروي (٣٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٨،ص١٧١.

(٢) بعُرىً: وَثِيقَةٍ يُنْقَلُ فِيهِ الرُّطَبُ. لسان العرب، ابن منظور (٦٣٠هـ)، مصدر سابق: ج٣، ص١٨٧.

قال ابن مبارك: (تغرَّبَ الحقّ حتى مالهُ عِلْم... يؤتى إليهِ ولا يُرجى لهُ أحدٌ).

وقال أيضـاً: (تغرَّبَ الحقّ حتى وصفهُ خطرٌ... عند الحكيم وعند العالمِ الخبرِ).

فإذا كنت في زمانٍ وصف الحقّ فيهِ خطرٌ عند من يدَّعي العِلْمَ، فما ظنك بمعرفتِه والعلم بهِ فأنت في بحرٍ تضطرب عليك أمواجه؛ فسابِحُهم كم يثبت حتى يعرف، ومن لا سِباحة لهُ فهو راسبٌ طالب التمسك، وهيهات كيف لهُ بالتمني فيهِ والتسويف، وإن كان يأتيه من غير وجهةٍ وكيف لهُ إن كان عالمـاً بصيراً،عازمـاً، صابراً، زكيـاً،فطنـاً، (ﷺ) أن يقوم على فِطَامِ[1] ستين سنة أو خمسين سنة. قد أحَاطَ بسويداءِ قَلْبِه؛فاشتد عليهِ عظمه، ونَبتَ عليه لحمه وشابَ في أصدُعهِ[2] وقَرُحَ[3]فيهِ نابُهِ، ثم همَّ باللهوِ بنا، وقَلةِ المعرفة، والصّبر يريده الأمان.

فإن كان يريدهُ فليجرد عن ذراعيه، وليُشمِّر عن ساقيه وليلج[4] بابه، وليعض على أخيارِ الضمير، وليجدّ في الطلبِ إن كان راغبـاً في الجنَّة وهاربـاً

---

(١) فِطَامُ: قَطْعِ شَيْءٍ عَنْ شَيْ، وَفَطَمْتُ الرَّجُلَ عَنْ عَادَتِهِ. مقاييس اللغة، أحمد الفارس، مصدر سابق: ج٤، ص٥١٠.

(٢) أصدع: بَلِيغٌ جرِيءٌ عَلَى الْكَلاَم. المصدر نفسه: ج٨، ص١٩٧.

(٣) الْقَرْحُ: جَرْحُ الْجِلْدِ. مقاييس اللَغة، أحمد الفارس، مصدر سابق: ج٥، ص٨٢.

(٤) يلج: يلجُ بالشيء أي يُبادرُ به. العين، الخليل الفراهيدي (١٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٦، ص٢٠.

من النارِ ومحباً لله تعالى، وليتأهب،وليتذرَّع؛فإن مباشرة ألف مُتدجّجٍ[1] يصرخون لهُ، أيسر من واحدٍ قد كَمنَ لهُ، لا يدري من أي وجهٍ يهجم عليهِ.

واعلم أن هذا كتاب لا يعقله عاقله إلا عقلَ عباده، ولا يقبله من سمعِه إلا قبول تعجُّبٍ وإقراره بلسانِهِ أنه الحقّ ومن يريده ويجهله أكثر؛ فأمّا من يريده للعملِ؛ فلا أعرفه، وإنما رأيته عِلْمِاً مهجوراً لا يُقبل، ومن قَبِلهُ لا يعقِلهُ، ومن قَبِلهُ وعَقِلهُ؛ فغايته المُباهاة بهِ، فقد هممتَ بتركِهِ لأنه ليس من عِلْمِ زمانك، ولا حاجه لهم بهِ؛ لأنه عِلْمٌ يَرِدُ بأهلِه إلى مخالفة هوى أنفسهم ومجاهدتها، والخَلقُ -إلا من عصم الله- عامتهم اليوم من العِلْمِ،والعبادة لهوى أنفسهم، ونسأل الله عفوه، وعافيته، والمعونة منه تفضُّلاً، ورحمةً بنا.

قالو: لو أن أهل الثَّغرِ[2] غزو كلهم، وقاموا صفوفاً ها هنا يريدون خراب هذا الدّين لرأيت الحزن ها هنا لصلاحِ النفس أوجب على الرجلِ من الحربِ في فسادِهَا.

ثم قال – المحاسبي -: أرأيت لوكان أبو بكر الصديق -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أميراً، والناس كلهم مثل عُمر – بن الخطاب – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، وأنت على غير ما ينبغي، ما فعل صلاحُهم بفسادِك؟ ألَمْ يكن على عهد النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وأبي بكر، وعمر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، وزمانهم قومٌ لمْ تنفعهم بركة النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، ولا صلاحُ أبي بكر، وعمر في زمانِهم.

---

(١) تَدَجَّج: تَدَجَّج دخل فِي سِلاحه. المخصص، علي المرسي (٤٨٥هـ)، مصدر سابق: ج٢، ص٤٨.

(٢) ثغر: الثغر عند العرب: موضع المخافة. الزاهر في معاني كلام الناس، محمد الأنباري (٣٢٨هـ)، مصدر سابق، ج١،ص٤٤٠.

ثم قالَ: إذا لمْ ينفعهم صلاح أولئك؛ فما يُغنيكَ اليوم صلاح غيرك.

ثم قال: عد أنك قمت واجتهدت على أن أقمت الناس على حدٍ كما ينبغي للخادمِ الصغير والكبير ولمْ تهتم لنفسِك؛ فما تُغنيك إقامتهم على الحدِ، أو ليس العَجَبُ أن* تركت همَّ* نفسك، وهي أعز الأنفس عليك، وأقبلتَ على همّ غيرك أو ليس هذا العَجبُ. (*)

وقال - المحاسبي: انظر زمان النبي(صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، أموالهم، ونفقاتهم، وتقواهم، وأَرْخ[1] النفقة في ذلك الزمان كان يرفع صاحبه إلى السماءِ حيًّا في المثلِ؛ لأنه كانت أموالهم، وأخبارهم، ونفقاتهم طاهرةً.

وكان في ذلك الزمان الفقيرُ خيراً من الغنّي؛ فكيف ترى اليوم حيث فسدت الأموال، والأنفس، والزمانَ، والنّيّةِ. ثم قال: لا أعلم اليوم شيئاً خيراً من الفقرِ، حتى لا تبلغ شيئاً من أعمالِ البرّ النافلة مثل: الحَجّ والغزو، وغير ذلك.

ثم قال: أرأيت لو أن رجلاً قام ها هنا من خِيار هذه الأمة، وآخرَ من شرارِ هذه الأمة؛ فتطاول هذا الخَيّرُ على هذا الرجل السوء، فما يغنيه خيرهُ، وعبادته، ولو كان قد عَبد الله مئة سنةٍ. فإذا لمْ تستقم للخيرِ لن تتطاول على الرجل السوء؛ فكيف ترى حال من يتطاول على من هو خيرٌ منهُ.

آخرهُ: وَقد بلغنا أن ثلاثة أشياء تقسي القلوب؛ كثرةُ الكلام في غير دَأبِ[2] الله تعالى، والذنوب إذا حُمِل بعضها على بعضٍ، وملءُ البطنِ من الطعامِ.

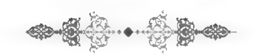
---

(١) أَرْخَ: أيْ: وسِّعْ عَلَيْهِ الأمرَ فِي تصرُّفه. - تهذيب اللغة، محمد الهروي (٣٧٠هـ)، مصدر سابق: ج٧، ص٢٢١.

(٢) دَأْبَ: إذا اجتهدتَ فِي الشَّيْء. المصدر نفسه: ج١٤، ص١٤٢.

وقال: احفظ لسانك، ولا تقولن إلا حقًّا، واسكت؛ فإنك إذا فعلت ذلك أدخلك في أصنافِ الخير.

انتهى.... والحمد لله وحده.. وصلَّى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين، وهو حسبي ونعم الوكيل بلغ مقاله الحمد لله. (۞)

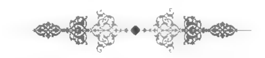


فهرست الآيات الكريمة

اسم السورة والآية	الآية	الصفحة
﴿ الأنفال ﴾		
﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾	٢٨	١٣٠
﴿ التوبة ﴾		
﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ﴾	١٢٠	٢٠٢
﴿ يوسف ﴾		
﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾	٢٤	١٩٩
﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾	٥٣	٢٢٤
﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾	٨٣	٢٢٥
﴿ الكهف ﴾		
﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾	١١٠	١٧٩

الصفحة	الآية	اسم السورة والآية
		﴿الأحزاب﴾
١٧٠	٢٣	﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾
		﴿فاطر﴾
٢٢٨	٦	﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾
		﴿ص﴾
٢٢٦	٢٦	﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾
		﴿الزمر﴾
٢٢٨	١٤	﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾
١٧١	١٨	﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾
١٩٥	٥٣	﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾

اسم السورة والآية	الآية	الصفحة
﴿الفتح﴾		
﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾	١٤	١٩٠
﴿ الحجرات﴾		
﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾	٧	١٩٦
﴿المدثر﴾		
﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾	١٢	١٣٥
﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾	١٣	١٣٥
﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾	٣٨	١٢٧
﴿النازعات﴾		
﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾	٤٠	٢٢٤



فهرس الأحاديث النبوية

الصفحة	رواة الحديث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ	طرف الحديث
٣٤	أَبِي هُرَيْرَةَ	«بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»
٢٢٦	أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ	«أخاف ما أخافُ عَليكم شُحًّا مُطَاعًا وَهَوىً مُتَّبَعًا»
١٤١	شَرِيكِ بْنِ طَارِقٍ	«ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلا ولهُ شَيْطَانٌ»
١٣٦	أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ	«لَوْ خَرَجَ عَلَيْكُمْ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»
٢٢٥	جابر الأنصاري	«رجعتم من الجهادِ الأكبر إلى الجهاد الأصغر»
١٩٩	أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ	«إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ وَالقَلْبَ يَحْزَنُ وَلاَ نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا»
٢٢٦	علي بن أبي طالب	«أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ طُولُ الْأَمَلِ، واتِّبَاعُ الْهَوَى»



فهرست المخطوطات

- الحارث بن أسد المُحَاسِبيّ، مخطوطة التصوف، رقم المخطوط: ١٤٢٨، مكتبة الجامع الكبير، بورصة تركيا.
- الحارث بن أسد المُحَاسِبيّ، مخطوطة الخَلْوَة والتنقل في العبادة ودرجات العابدين، رقم المخطوطة: ٢٧١٣، كستمونة، تركيا.
- الحارث بن أسد المُحَاسِبيّ، مخطوطة الرعاية لحقوق الله، رقم المخطوطة: ١٥٣٤ الجامع الكبير، بورصة تركيا.
- الحارث بن أسد المُحَاسِبيّ، مخطوطة الزهد، رقم المخطوط: ١١٠١، جارالله، إسطنبول.
- الحارث بن أسد المُحَاسِبيّ، مخطوطة شرح المعرفة وبذل النصيحة، رقم المخطوطة: ١٣٥٤، شهيد علي باشا، إسطنبول.
- الحارث بن أسد المُحَاسِبيّ، مخطوطة المراقبة والمحاسبة، رقم المخطوطة: ٤٨٩٣، مكتبة دبلن، إيرلندا.
- الحارث بن أسد المُحَاسِبيّ، مخطوطة النصائح، رقم المخطوطة: ٦١٤، مكتبة بغداد، إسطنبول.



المصادر

- أحمد البصري الشعراني، الطبقات الكبرى، ت: أحمد شمس وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٩١.
- أحمد البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، ت: رياض زركلي، الفكر، لبنان ط١، ١٩٩٦.
- أحمد الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السلام، ت: بشار عواد، الغرب، بيروت، ط١، ٢٠٠١.
- أحمد بن الحسين البيهقي، الزهد الكبير، ت: عامر أحمد، الجنان، بيروت،١٩٨٧.
- أحمد بن حنبل، الزهد، ت: محمد جلال شرف، دار النهضة، بيروت،١٩٨١.
- أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة، ت: وصي الله محمد، الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٣
- أحمد بن خلكان، أنباء أبناء الزمان، أ: إحسان عباس، صادر، بيروت، ١٩٩٤.
- أحمد بن عبد الله الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الفكر، القاهرة،١٩٩٦.

- **أحمد** بن علي بن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ت: إبراهيم الزئبق، دار الكتب، القاهرة، ط١، ١٩٩٣.
- **أحمد** فارس القزويني، معجم مقاييس اللغة، ت: عبد السلام محمد، دار الفكر، القاهرة، ط١، ١٩٧٨.
- **أحمد** فارس القزويني، مجمل اللغة لابن فارس، ت: زهير عبد المحسن، دار الرسالة بيروت، ط٣، ١٩٨٦.
- **أحمد** مختار عمر، معجم الصواب اللغوي، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨.
- **إسحاق** إبراهيم الفارابي، معجم ديوان الأدب، ت: أحمد مختار، الشعب، القاهرة،٢٠٠٣.
- **إسماعيل** بن عمر ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ط٨، ١٩٩٠.
- **اليمان** بن أبي اليمان، التقفية في اللغة، ت: خليل إبراهيم، بغداد، ١٩٧٦.
- **آنا** ماري شميل، الأبعاد الصوفية في الإسلام، تر: محمد السيد وآخرون، مكتبة الجمل، بغداد،٢٠٠٦.
- **تاج** الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ت: عبد الفتاح محمد، مكتبة هجر، مصر،١٤١٣هـ.
- **جمال** الدين الكجراتي، بحار الأنوار في غرائب التنزيل، المعارف العثمانية، إسطنبول،١٩٦٧.

- **جمال** الدين الأنصاري، لسان العرب، ت: عبد الله علي، صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.
- **جمال** الدين المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ت: بشار عواد، الرسالة، بيروت، ١٩٩٢.
- جوزيف فإن أس، علم الكلام والمجتمع، تر: سالمة صلاح، الجمل، بيروت،١٩٩٠.
- **حارث** المُحَاسِبيّ، آداب النفوس: ت: عبد القادر أحمد، دار الجيل، بيروت،١٩٩١.
- **حارث** المُحَاسِبيّ، أستاذ السائرين، عبد الحليم محمود، دار البصائر، قاهرة،٢٠٠٥.
- **حارث** المُحَاسِبيّ، الإنابة إلى الله، ت: هلمون ريتر، O.SPES، ألمانيا،١٩٣٥.
- **حارث** المُحَاسِبيّ، الإنابة لله، ت: مجدي فتحي السيد، دار السلام، القاهرة، ١٩٩١.
- **حارث** المُحَاسِبيّ، التوبة، ش: عبد القادر أحمد، النصر، القاهرة،١٩٧٧.
  حارث المُحَاسِبيّ، التوهم، ت: آرثر جون آربري، بيت الوراق، بغداد،٢٠١٠.
- **حارث** المُحَاسِبيّ، الخَلْوَة والتنقل في العبادات، ت: اغناطيوس عبد خليفة، الكاثولكية، بيروت،١٩٥٥.

- حارث المُحَاسِبيّ، الرعاية لحقوق الله، ت: عبد الحليم محمود، المعارف، القاهرة، ١٩٨٥.
- حارث المُحَاسِبيّ، الرعاية لحقوق الله، ت: عبد القادر عطا الله، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٨٥.
- حارث المُحَاسِبيّ، الرعاية لحقوق الله، ت: مارغريت سميث، بغداد، ط١، ٢٠١٤.
- حارث المُحَاسِبيّ، الصبر والرضا، ت: جوزيف فإن اس، O.SPES، ألمانيا ط٦، ١٩٣٦.
- حارث المُحَاسِبيّ، العقل وفهم القرآن، ت: حسين القوتلي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٧١.
- حارث المُحَاسِبيّ، العلم، ت: محمد عابد مزالي، دار التونسية، الجزائر، ١٩٧٥.
- حارث المُحَاسِبيّ، المسائل في أعمال القلوب والجوارح، ت: محمد فوزي كريم، بلومينا، القاهرة، ٢٠١٨.
- حارث المُحَاسِبيّ، المكاسب، ت: سعد كريم الفقي، دار ابن خلدون، الإسكندرية، د.ت.
- حارث المُحَاسِبيّ، الوصايا، ت: عبد القادر عطا الله، دار الكتب العلمية، لبنان، ط،١، ١٩٨٦.

- **حارث** المُحَاسِبيّ، رسالة المسترشدين، ت: فتاح أبو غدة، دار السلام، حلب، ط٢، ١٩٦٤.
- **حارث** المُحَاسِبيّ، شرح المعرفة وبذل النصيحة، ت: مجدي فتحي، الصحابة، مصر، ١٩٩٣.
- **حارث** المُحَاسِبيّ، معاتبة النفس، ت: محمد عبد القادر عطا، دار الاعتصام، قاهرة،٢٠٠٣.
- **حسن** عبد الله العسكري، التَّلخِيص في مَعرفَةِ أسماء الأشياء – ت: عزة حسن، دار طلاس، دمشق، ط٢، ١٩٩٦.
- **حسن** عبد الله العسكري، الفروق اللغوية، ت: محمد عبد السلام، الإسلامي، السعودية،١٤١٢هـ.
- **حكيم** الترمذي، ختم الأولياء، تر: عمر أونجنت، حكاية، أنقرة،٢٠١٤.
- **خليل** بن أحمد الفراهيدي، العين، ت: إبراهيم السامرائي، مكتبة الهلال، بغداد،١٩٨٥.
- **خير** الدين الزركلي – الأعلام، دار العلم للملاين، بيروت،٢٠٠٢.
- **زهير** شفيق الكبى، موسوعة خلفاء المسلمين، دار الفكر العربي، بيروت، ط١ ١٩٩٤.
- **زين** المناوي، الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، ت: محمد أديب، صادر، بيروت،١٩٩٩.

- **سعيد** بن حسن الأندلسي، ديوان أبي مدين الغوث، أ: عبد القادر مسعود وآخرون، بيروت، ٢٠١١.
- **سلمة** الصحاري، الإبانة في اللغة العربية، ت: عبد الكريم خليفة، التراث، عمان، ١٩٩٩.
- **سليمان** بن أحمد الطبراني، المعجم الكبير، ت: حمدي السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٩٩٤.
- **شهاب** الدين بن ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٧.
- **شهاب** الدين الحنبلي ابن عماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ت: عبد القادر الأرناؤوط وآخرون، دار ابن كثير، بيروت، ١٩٨٧.
- **شمس** الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ت: حسان بن منان، دار الرسالة، بيروت، ٢٠٠١.
- **عبد الله** بن أسعد بن علي اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧.
- **عبد الله** محمد عبيد البغدادي ابن أبي دنيا، الهواتف، ت: مصطفى عبد القادر عطا، الكتب الثقافية، لبنان، ط١، ١٩٩٣.
- **عبد الله** محمد عبيد البغدادي ابن أبي دنيا، الرقة والبكاء، ت: محمد خير، دار ابن حزم، بيروت، ١٩٩٢.

- **عبد الحليم** محمود، أبو مدين الغوث، دار المعارف، القاهرة،١٩٨٥.
- **عبد الرحمن** بن خلدون، شفاء السائل وتهذيب المسائل، ت: محمد مطيع، الفكر، بيروت، ١٩٩٦.
- **عبد الرحمن** بن علي الجوزي، تلبيس إبليس، دار القلم، لبنان،٢٠٠١.
- **عبد القادر** الكيلاني، الغنية في طالبي الحق، ف. ح: صلاح بن محمد، العلمية، بيروت،١٩٩٧.
- **عبد الكريم** بن هوزان القشيري، الرسالة القشيرية، ت: عبد الحليم محمود، الشعب القاهرة،١٩٨٨.
- **عبد الكريم** بن محمد السمعاني، الأنساب، دار الجنان، بيروت، ط١، ١٩٨٨.
- **عبد الواحد** يحيى، مقالات رينيه جينو، تر: زينب عبد العزيز، دار الأنصار، مصر،١٩٩٦.
- **عبد الوهاب** الشعراني، الجوهر المصون والسر المرقوم فيما تنتجه الخَلْوَة من الأسرار والعلوم، ت: شريف مصطفى، جوامع الكلم، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- **عصام** الشنطي، فهرست المخطوطات العربية، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٩٩٦.
- **علم الدين** محمد ياسين المكي، العجالة في الأحاديث المسلسلة، دار البصائر، دمشق، ط٢، ١٩٨٥.

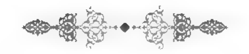
- علي الحسين بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجواهر، العصرية، بيروت، ٢٠٠٥.
- علي المرسي، المحكم والمحيط الأعظم، ت: عبد الحميد هنداوي، الكتب العلمية، بيروت،٢٠٠٠.
- علي المرسي، المخصص، ت: خليل جفال، أحياء التراث، بيروت،١٩٩٦.
- علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، شرحه: محمد عبده، دار المعرفة – بيروت، ج١، د.ت.
- علي بن جعفر علي السعدي الصقلي، كتاب الأفعال، عالم الكتب، القاهرة،١٩٨٣.
- علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣.
- علي بن محمد الجزري ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ت: عبد الله القاضي، الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧.
- علي بن محمد الجزري، اللباب في تهذيب الأنساب، ت: قاسم محمد، المثنى، بغداد،١٩٧٥.
- علي حسن الشافعي، تاريخ مدينة دمشق، ت: محب الدين العموري، الفكر، دمشق،١٩٩٦

- **عمر** الشافعي ابن ملقن، طبقات الأولياء، ت: نور الدين شربيه، مكتبة الخانجي، قاهرة ،١٩٩١.
- **فريد** الدين العطار النيسابوري، تذكرة الأولياء، ت: محمد جادر، الأندلس، بيروت،١٩٧٩.
- **فؤاد** سَزكين، تاريخ التراث العربي، تر: محمود فتحي، إدارة الثقافة والنشر، الرياض،١٩٩١.
- **كارل** بروكلمان، تاريخ الآدب العربي، تر: عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة، ط٥، د.ت.
- **كمال** الدين الأنباري، نزهة الألباء في الطبقات، ت: إبراهيم سامرائي، المنار، الأردن، ١٩٨٥.
- **مجد** الدين محمد فيروز آبادي، القاموس المحيط، ت: التراث، دار الرسالة بيروت،٢٠٠٥.
- **محمد** أحمد الهروي، تهذيب اللغة، ت: محمد عوض، دار أحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٢.
- **محمد** إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، ش: مصطفى ديب، دار ابن كثير، دمشق،٢٠٠٢.
- **محمد** الأنباري، الزاهر في معاني كلام الناس، ت: حاتم صلاح، الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٩.

- **محمد** البخاري، التعرف لمذهب أهل التصوف، ت: آرثر جون آربري، الخانجي، القاهرة، ١٩٣٣.
- **محمد** بن ادريس الشافعي، الأم، ت: رفعت فوزي، دار الوفاء، مصر، ٢٠٠١.
- **محمد** بن أسحاق البغدادي، الفهرست، ت: إبراهيم رضوان، المعرفة، بيروت،١٩٩٧.
- **محمد** بن جرير القرطبي، جامع البيان في تأويل القرآن، ت: أحمد شاكر، الرسالة، السعودية، ط١، ٢٠٠٠.
- **محمد** بن حبان التميمي، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان – ت: شعيب الأرناؤوط، الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٨.
- **محمد** بن حسن الأزدي، جمهرة اللغة، ت: رمزي منير بعلبكي، العلم للملاين، بيروت،١٩٨٧.
- **محمد** بن حسين السلمي أبو عبد الرحمن، طبقات الصوفية، ت: أحمد الشرباصي، الشعب، القاهرة، ١٩٩٠.
- **محمد** بن خفيف، سيرة الشيخ الكبير، ش: علي الديلمي، الثقافة الإسلامية، مصر، ١٩٧٧.
- **محمد** بن خلف ابن المرزبان، تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب، ت: عصام محمد، التضامن، السعودية،١٩٩٢.

- **محمد** بن خير الإشبيلي، الفهرست، ت: بشار عواد وآخرون، الغرب الإسلامي، تونس،٢٠٠٩.
- **محمد** بن سعد، الطبقات الكبرى، ت: محمد عبد القادر دار الكتب، بيروت، ط١، ١٩٩٠.
- **محمد** بن عبد الملك الطبري، خلوة العاكفين: منتخب من سلوة العارفين، ت: تحقيق ودراسة بلال الأرفه لي، دار المشرق، بيروت، ط١، ٢٠١٣.
- **محمد** بن علي الحنفي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون، ت: علي دحروج، لبنان، بيروت، ١٩٩٦.
- **محمد** بن عيسى الترمذي، الجامع الصحيح، ت: أحمد محمود، مكتبة الحلبي، دمشق،١٩٧٨.
- **محمد** بن محمد الزبيدي، تاج العروس جواهر القاموس، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٨٤.
- **محمد** بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، تخ: الحافظ العراقي، ابن حزم، بيروت، ط١، ٢٠٠٥.
- **محمد** بن محمد الغزالي، الدرة الفاخرة، ع. ع: موفق فوزي جبر، الحكمة، دمشق، ط١، ١٩٩٥.
- **محمد** بن محمد الغزالي، المنقذ من الضلال، ت: أحمد شمس الدين، دار الكتب، بيروت،١٩٨٨.

- **محمد** بن المستنير، الأزمنة وتلبية الجاهلية، المحقق: حاتم صالح، الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٥.
- **محمد** عبد الحي الهندي، الرفع والتكميل في الجرح والتعديل، ت: الشيخ عبد الفتاح أبو غده، البشائر، بيروت، ط٤، ٢٠٠٤.
- **محمد** عبد الكريم الشهرستاني، الملل والنحل، ع.ع: أحمد فهمي، دار الكتب، بيروت، ط ٩، ١٩٩٦.
- **محمود** بن عمرو الزمخشري، أساس البلاغة، ت: محمد باسل، الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨.
- **مسلم** بن حجاج القشيري، صحيح مسلم، ت: محمد فؤاد، دار إحياء الكتب، القاهرة، ١٩٤٥.
- **مصطفى** عبد الله جلبي، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ت: محمد شرف، التراث، بيروت، ١٩٤١.
- **نشوان** بن سعد الحموي، شمس العلوم ودواء الكلام عند العرب، ت: حسين لعمري الفكر، بيروت،١٩٩٩.
- **يوسف** بن عبد القرطبي، جامع بيان العلم وفضله، ت: الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، السعودية، ط١، ١٩٩٤.



محتوى الكتاب



المحقق
محمد فوزي كريم
mohammd.fawzi@gmail.com

